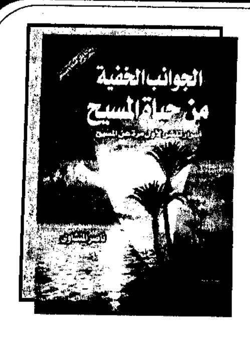
رسالة لكل مسلم ومسيح

الجوانب الخفية من حياة المسيح

أسرار تنشر لأول مرة عن المسيح

ناصر المنشاوى



اسم الكتـــاب:	الجوانب الخفية من حياة المسيح
اسم المـؤلـف:	ناصر المنشاوى
تاريخ النشــر:	يناير ٢٠٠٣
رقـم الإيـداع:	١٧٥٠ / ٢٠٠٣
التـرقـيم الدولى:	I.S.B.N. 977 - 5740 - 20 - 7

عـنوان المـؤلـف:	ج . م . ع - الفيوم - فيديمين
تليـفـون:	٢٠٨٤٥٥٣٥٥١ +
تليـفـون:	٢٠١٠٥٤٦١٢٦٨ +
البريد الألكترونى:	Nass_ELmensh@hotmail.com

إهـــــداء

سيدى المسيح :

لقد اختلفوا فـيك ، وفرقوا دينهم وكانوا شيعـاً ، فبعد أن جئتهم بالتوحيد الخـالص ديناً قيماً ، دين الحق ، إذا به يتعرض لغواشى من التعدد والتثليث .

سيدى المسيح :

لقد اشتّـقت المسيحيـة من اليهودية ، واليهـودية صارمة فى عقيـدة التوحيد ، فإن الطريق الذى صـار من أورشليم - مجمع تلاميذ المسيحية الأوائل - إلى نيقية - حيث أقرت عقيدة التثليث كان من النادر القول بأنه كان طريقاً مستقيماً .

سيدى المسيح :

على الرغم مما كان - وهو كثير وخطير - فلقد بدأ يظهر فى الآفاق ماينبىء بحتمية العودة إلى تعاليمك الأولى التى قلت فيها للقوم : ﴿اعْبُـدُوا اللَّـهَ رَبِّـي وَرَبَّكُـمْ﴾ [المائدة : ٧٢] أو بنص الإنجيل: «الرب إلهُنا رب واحد» .

ياسـيـدى . . لك منى الكثـير والكثـيـر من التعظيم ، والطيب من التـحيات والتبـجيل ، ولك منى هذا الإهداء ، وإلى لقاء يرتجى فى ظل مـــن وسـعـت رحـمـتـه كل شىء - لقـاء - عـسى أن يكـون قـريبـاً .

تمهيد

أخى القارىء العزيز - إن كنت لاتعرف عبرية التوراة أو يونانية الأناجيل ، لا أريد لك أن يفوتك شىء من حلاوة بحث أريد أن أُحبِّره لك تحبيراً ، أريد منك أن تشترط على توثيق مـا أحدثك به ، فلا أكيل لك القـول جزافاً آمناً ألا تكشف زيفى لأنك لاتعلم شـيئـاً من أمر تلـك اللغات التى ذكـرت لك ، ليس هذا من العلم فى شىء ، وإنما هـو من التـدليس ، أريد منك أن تشـتـرط على توثيق أن البشارة بخاتم النبيين محمد ﷺ مذكورة بالتوراة والإنجيل ، وأن تفسير أو معنى كلمة «يسـوع» هى «المخَلِّص الناجى » أو «الله خلاص ونجاء» أى أن الله مُـخَلِّصُهُ ومُنَجيِّه ، وأن معنى كلمة «مريم» هى «أمةُ الرْبِّ» وأن الذى صُلِبَ ليس المسيح بل «يهوذا» أو أحد الحـواريين ، أريد أيضاً أن أدلك على الفترة التى تعـرف بالثمانى عشـرة سنة الصامتة أو المجـهولة من حيـاة المسيح ، والتى تمتد منذ أن بلغ الثـانية عشرة إلى أن صار عـمره ثلاثون عاماً ، إلى آخر مادبَّجتّهُ لك فـيما سوف يلى ، لاتقبله منى إلا إذا وثقته لك ، ورجعت بك معى إلى مراجعى فيه ،فأنا لا أرضى لك متابعتى متابعة صماء فيـما أحدثك به، فتُسلِّم لى بكل ما أقول، تاركاً العهدة علىّ فيما أقـصه عليك ، ولا أرضى لك أيضاً أن تقفز على التفـاصيل سريعاً إلى نتيجة تشبعُ لديك فضولاً، ربما استـثاره عنوان هذا الكتاب، أى إلى معرفة مجمله غيـر مبالٍ بالاشـتقـاق والتأصيل وكـأن هذا أو ذاك لايعنيك ، إن فعلت فـسوف يفوتك الكثير، لأن هذه التفاصيل لاتخلو من أسرار أريد أن أدلك عليها .

فأنا أريد منك أن تقرأ المقدمة ، وتقرأ المدخل «البحث اللغوى» سطراً بسطر، صفحة بصفحة وبعد ذلك تقرأ بقيـة الفصول بتُؤدة ، ولاتترك متناً أو حاشية لأنها لاتخلو من فوائد جمة ، وثق إننى لن أشق عليك بعون الله ، فقط عليك بالتُّؤدة والأناة ، وأنا ضامن لك بإذن الله ألا تمل .

فإن تَكُ مسلماً فسبح، وإن تَكُ غير مسلمٍ فتأمل. والله يهدى إليه من ينيب.

مقدمــة

ليس هذا بحثاً فى علم مقارنة الأديان ولكن يعتبر هذا الكتاب واحداً من بين الكتب التى تشرفت بالكتابة عن المسيح ، سبقه الآلاف والآلاف ولسوف يتبعه ماشاء الله من آلاف ، وأن الدين الإسلامى وخاصة القرآن معجز بذاته وكل مقارنة بينه وبين الكتب التى سبقته ظلم ظلوم ، وجهل مبين .

والمسلم - عربياً وغير عربى - يُسَلِّمُ بإعجاز القرآن تصديقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾ [الإسراء :٨٨]

وليس القرآن معجزاً بلغته فقط ، أى بمحض لفظه وعبارته ، وإن كان قمة الإعجاز اللغوى لأهل العربية فى كل العصور ، مسلمهم وغير مسلمهم على السواء ، ولكنه معجز للناطقين بكل اللغات ، لأنه معجز بموضوعه ، معجز بمعانيه ، معجز بهيمنته على ماسبقه من الكتب ، وكلها غير عربى ، يُصَدِّقُها فَتَصدقُ ، ويخالفها فيصدق هُوَ .

والقرآن معجز أيضاً بقائله ، أى بصدوره مباشرة عن الله تبارك وتعالى ، فهو سبحانه فى كل القرآن القائلُ المخَاطِبُ المحَدِّثُ الراوى ، وليس لهذا نظير فى الكتب التى سبقت ، فيها من قول الله ، وفيها من غير قول الله ، فيها من قول النبى أو الرسول وأكثرها حديث الرواة عن النبى أو الرسول ، يستبين لك هذا مباشرة من مجرد القراءة فى تلك الكتب ، غير محتاج فى إثباته إلى دليل من خارجها ، بل إن أصحاب تلك الكتب لايجادلونك فى هذا ، وإنما يُسلمونه : التوراة كتابة الربانيين والأحبار بعد قرون من وفاة موسى عليه السلام ، والأناجيل منسوبة إلى الحواريين والآخذين عنهم بعد رفع المسيح عليه السلام ، وهم يُسلمونه أيضاً لأنه بَيِّنٌ من عبارة الكاتب الذى يقول لك فى التوراة (كتاب موسى) : وقال الله لموسى . . وذهب موسى . . ومات موسى . . الخ ، كما يقول لك فى الإنجيل (كتاب عيسى): وتهلل يسوع بالروح . . وانطلق يسوع . . وعلمهم أن

يقـولوا فى صلواتهم . . الخ ، وهذا أشـبه بالسـيرة النبـوية وكتب الحـديث ، لاتُسلّم إلا بعـد تمحيص وتدقيق ، وأنـت لاتجد فى القرآن عـبارات مـثل : جاء محـمد . . ذهب محـمد ﷺ ، تجد مـثل هذا فى السيرة النبـوية ولاتجده فى القرآن ، ولكن أصـحاب الكتب السابقـة يؤمنون بأن كتبـة التوراة والإنجيل كتـبوا ماكتبوه بإلهـام من الله وبوحى من الروح القدس ، وأنت قد تسلم بالوحى للنبى ولكنك لاتسلمه قط للرواة ، فـهم لم يدعوه ، بل أنت تقرأ فى «إنجـيل لوقا» أن الكاتب يقول لك إنه لم يكتب ماكتب إلا بعد جمع وتمحيص وتدقيق .

وليس من مقـاصدنا المباشـرة فى هذا الكتاب الذى نكتب نَقْـدُ المسيحـية فى صورتها التى نَقَـضَها القرآن من قـبل ، أعنى عقيدة التثليـث والخلاص بالمسيح ، فادى البشر بدمه المسفوح على الصليب ، فـقد تكفل القرآن بالنقد والنقض معاً ، وليس بعد القرآن مـزيدٌ لُمستزيد ، الذى جاء بها ناصعـةً بَيِّنَة فى جواب المسيح ربه يوم يجـمع الله الرسل فـيقـول ماذا أجـبتم قـالوا لا علم لنا ، إنك أنت عـلام الغيوب : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة : ١١٦ - ١١٧] وقولـه عز وجل المتـفرد بالألوهية والملك : ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء : ١٧٢] .

ويدخل فى الملائكة المقـربين جبـريلُ روحُ القُدُس صلوات الله عليـه ، ثالث الثلاثة فى عقيدة التثليث . من هنا تستظهر أن المسيحية يوم رُفِعَ المسيحُ ليست هى تلك المسيحية التى جادل بها أساقفـة نجران خاتم النبيين ، التى صيغت أصولها فى المجامع ، بدءاً بمجمع نيقية عام ٣٢٥م ، بعد رفع المسيح بنحو ثلاثة قرون ، الذى ألهَ المسيحَ على البنوة لله ، ثم أعقـبه بنحو خمسين سنة مجـمع آخر فَصَّلَ القول فى ألوهية روح القـدس جبريل فـاكتمل الثـالوث الأقدس ؛ الآب والابن والروح القدس ، ثلاثة فى واحد .

ولكن مقولة المسيحيين فى المسيح هى التى تفرض نفسها على كل بحث لغوى صِرْف يريد تحليل معنى عَلَم المسيحية الأكبر ، عيسى بن مريم صلوات الله عليه ، كما سنرى ، وأيضاً لفظة « إنجيل» لأن مقولة المسيحيين فى المسيح هى التى صنعت التفسير اللغوى الشائع لهاتين اللفظتين : «عيسى» - «يسوع» عبرياً ، «إنجيل» المقول بيونانيتها ترتيباً على يونانية الأناجيل .

والذى ينبغى التنبيه إليه فيما يلى من مباحث الكتاب أننا حين يُلجئُنا موضوع البحث إلى النقد ، فهو النقدُ الرصين ، نريدُ به وجه الحق تبارك وتعالى ، فنختصم المقولة ولا نَشْجُبُ القائل ، فالهدى هدى الله عز وجل ، ولوشاء لهدى الناس أجمعين ، ولله وحده الفضل والمَنّ : **﴿قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** [الحجرات : ١٧] .

ومن فضل الله على المسلم أنه معصوم بعصمة الله عز وجل من الخوض فى مقام أنبيائه : **﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾** [البقرة : ٢٨٥] ولاتستقيم لغير المسلم مع المسلم حُجَّة إلا بالخوض فى نُبُوة خاتم المرسلين .

ومن فرائد إعجازات القرآن فى غيوب القرآن قوله عز وجل فى الآية التى تلوت تواً : **﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾** [الحج : ١٧] ، أى سيظل من هؤلاء وهؤلاء فرق يفصل بينهم الله يوم القيامة ، يوم يجىءُ كُلُّ أناس بإمامهم .

أما أنبياء الله ورسله ، لانفرق بين أحد من رسله ، فسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

فإن المسلم الحقيقى يجد فى نفسه دافعاً إلى نصيحة البشرية جميعاً امتثالاً لما أمر به الله ورسوله فى وجوب إبلاغ دين الإسلام للبشرية جميعاً ، ومن هذا المنطلق يحدث كثيراً أن نقوم بهذا الواجب لجيراننا من أهل الكتاب فيوجهون لنا هذا السؤال «أنت الآن تدعونا إلى الإسلام وترك ديننا ، فهل أنت ترضى أن تترك دينك ؟» والجواب سهل فلانترك نحن ديننا ولاتترك أنت دينك الأصلى ، ولو

كنت تعلم أنت حقيقة دينك !! إذ نحن مقرون ومؤمنون أن دين الأنبياء كله واحد، ولو أن مسلماً واحداً أنكر نبوة أى رسول من الرسل السابقين - مثل موسى وعيسى لصار كافراً تاركاً لدينهم ، إذ أن كتبهم ورسلهم مصرحة بضرورة الإيمان بالنبى محمد ﷺ ، فعدم انقيادهم لهذه الوصايا التى فى كتبهم هو ترك الدين الذى يخافون منه ، ونحن لوكانت عندنا وصايا بالإيمان بنبى آخر لما ترددنا فى ذلك طرفة عين ، فَلُب المشكلة أن الإيمان بالنبى محمد ﷺ عندهم يعتبر ترك لدينهم !! والحقيقة أننا لانطلب منهم ترك شىء من دينهم الذى جاء به الأنبياء ، إنما نطلب منهم ترك ماشرعه لهم القساوسة والملوك فى العصر الرومانى وأن يؤمنوا بكل الرسل والرسالات ، وماعدا ذلك فديننا ودينهم واحد هو دين الأنبياء جميعاً .

ويتوقف الإيمان بصدق الرسالة - أى رسالة - على سبق الإيمان بصدق الرسول ، فأنت لاتستطيع مثلاً تكذيب التوراة (كتاب موسى عليه السلام) ، إلا وقد كذبت موسى من قبل شأن فرعون وقومه فى دعواه الوحى من الله تبارك وتعالى ، ولا تستطيع تكذيب الإنجيل (كتاب عيسى عليه السلام) إلا وقد كذبت عيسى من قبل فى دعواه البلاغ عن ربه عز وجل ، شأن آباء اليهود فى عصر المسيح ، وأنت لاتستطيع إنكار الوحى على القرآن (الكتاب المنزل على محمد ﷺ) إلا وقد كذبت محمداً من قبل فى دعواه النبوة والرسالة .

المكذب بالرسالة مكذب أصلاً بالرسول ، والمكذب بالرسول مكذب ضمناً بالرسالة عكس هذا - المصدق بالرسول المُسَلِّمُ بأن هذا الوحى من الله فهو لايستدرك على رسل الله ، وإنما يأخذ بما يلقون إليه من رسالات ربه أخذ المذعن المتبع ، المنصت الواعى ، يستمع القول فيتبع أحسنه ، شاكراً أنعم الله أن حباه بالمنة الكبرى فأسفر إليه يدعوه .

أما أهل الكتاب - أصحاب التوراة والإنجيل - فقد صَدَّق اليهود بموسى فآمنوا بالتوراة ، وصدق النصارى بعيسى وموسى فآمنوا بالتوراة والإنجيل - أما المسلمون فقد صدقوا بمحمد خاتم النبيين المصدق لما بين يديه من كتاب ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى رسله أجمعين ، فآمنوا بالتوراة والإنجيل والقرآن .

والتصديق والتكذيب هنا أو هناك يدوران على التسلم بالوحى للرسول أو إنكار الوحى على الرسول : سَلّمَ اليهود بالوحى لموسى وأنكروه على عيسى ومحمد ، وسَلّمَ النصارى بالوحى لعيسى وموسى وأنكروه على محمد ، صلوات الله عليهم أجمعين ، وسَلّمَ المسلمون بالوحى لرسل الله جميعاً لايفرقون بين أحد من رسله .

لماذا آمنت طائفة ببعض وكفرت ببعض ؟ لماذا يكذب السابق اللاحق والموحى واحد جل جلاله ؟ هل يرون أن رسالات الله خُتمت بنبيهم ؟ فأين النصُ على مثل هذا فى كتبهم كما تجده فى القرآن على من خُتمت به النبوة والرسالة ؟ ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [الأحزاب : ٤٠] أم اكتفوا بكلمة الله على رسولهم فلم تعد بهم حاجة إلى من يليه؟ فهل أمروا بذلك أم أمروا بعكسه ؟ إذن كيف توالت النبوات تَتْرَى على بنى إسرائيل من بعد موسى ؟ لماذا آمن اليهود لموسى وقد آمنوا من قبل لكل من سبقوه، من نوح إلى إبراهيم وإسحق ويعقوب وبنيه ؟ وكيف آمن النصارى لعيسى وقد سبقه موسى بالتوراة فيها هدى ونور ؟ فالدين خط مستقيم ممتد من آدم حتى محمد ﷺ لانؤمن ببعض وننكر بعض ، بل بكله نؤمن ولانفرق ولانفرط فيه، وكل من حَرّفَ أو وضع كذباً أو تحريفاً فعليه إثم مافعل ، وعلى كل من يتلقى عنه هذا الإثم فعليه إثمه .

أم أن التسليم بالوحى يحتاج إلى معجزة بينة يجريها الله على يد الرسول ، ويذعن لها المكابر والمعاند ؟

فهل أكبر من انشقاق البحر لموسى يمشى فيه يَبَساً ومن ورائه فرعون لايزعن للآية الكبرى حتى ينطبق البحر عليه ؟

وهل أبين من انشقاق القبر عن «لِعَازَر» قد أحياه الله لعيسى إذ يناديه : «لِعَازَر! هَلُمّ خارجاً » فيخرج على أعين الناس يدب على قدميه مدرجاً فى أكفانه؟ كلتا المعجزتين أعظم من أختها ولايستطيعهما إلا ربُ الكون ومحيى الموتى. . لم يُحْىِ عيسى الميت ، كما لم يشق موسى البحر ، وإنما صنع هذا رب موسى وعيسى ، ورب البحر ورب لِعَازَر .

فإن من خصوم القرآن - هؤلاء ملحدون - يدعون اصطناع المنهج العلمى فى مقارنة الأديان ، يستوى عندهم - فى بطلان دعوى الوحى - التوراة والإنجيل والقرآن جميعاً ، فتندهش كيف استباحوا مجادلة القرآن - ثابت الأصل والسند باعترافهم هم أنفسهم - بتوراة مقطوعة السند عندهم ، قالوا إنها كتبت من الذاكرة بعد صاحبها بعدة قرون ، أو بأناجيل أو ترجمات أناجيل يقولون إن أصلها العبرانى المفترض مفقوداً ، لاتدرى أين أخطأ المترجم أو أصاب ، إلا أن تسلم بالوحى لكتبة الأناجيل اليونانية - كما ارتأت الكنيسة من قبل - والمنكر المتعالم ينكر الوحى على كائن من كان .

ولكن تعلم أن هؤلاء ليسوا بعلماء ، وإنما هم خدام سياسة ، والهوى والغرض كما تعلم داء عضال لايرجى منه بُرْء .

أما علماء الملتين فما أنصفوا وماسددوا : القرآن هو السند الأوحد لرأب ما انقطع سنده فى التوراة والإنجيل ، وهو سند أى سند !!

بل ماذا ينكرون من القرآن وقد جاءهم القرآن بالخلق والبعث ، وبالتوحيد الخالص غير ملبوس وغير مهموس ؟

ألأنه وقد أله الواحد ، أثبت لعيسى وجبريل عليهما السلام الربانية والملأكة ونزهما عن دعوى الربوبية والتأليه ؟ وهل يؤمن فى قراره قلبه حقاً بتعدد الآلهة أحد ؟

أليس أبلغ فى تكريم المسيح عليه السلام - وقد شرفه الله برفعة إياه إليه أن يستجيب الله لابتهالات نبيه فيخلصه من كيد الذين كفروا ويُجِيزُ عنه «الكأس» فلايوقع الصلب عليه ؟

أيهما أبين فى الإعجاز ، وأيهما أنبل وأشرف ، أن يولد «ابن الانسان» بشراً من عذراء أم يتأنس الإله ويتأله الإنسان ؟

ماضرهم لو آمنوا بالقرآن مصدقاً لما معهم ، محققاً ، مصوباً ، مهيمناً ؟

ولكن . . لا أحد يلزمه فى عقيدته أحد . بل يهدى الله لنوره من يشاء .

إن الله عز وجل يصطفى لرسالته الرسول ، ويصطفى لرسوله الجيل الذى

يحمل الرسالة ، ويصطفى لخاتم رسله البقعة التى تنطلق منها الرسالة إلى أقاصى الأرض .

أليس تُبْعثُ الرسل كل بلسان قومه ؟ فكيف يفهمون عنه ؟ كيف يتم البلاغ ؟ كيف يصح التكليف ؟ أيمشى الرسول غريباً فى قومه يتوكأ على مترجم يفسر مايقوله للناس ؟

والذى يجب التنبيه إليه ، أياً كان الدين الذى به تدين ، أن كلمة الرسول فى لب العقيدة وجوهرها لاتؤخذ من فم الشراح ، تلاميذ وغير تلاميذ ، كهنوتاً وغير كهنوت ، وإنما تؤخذ من فم صاحب الرسالة نفسه ، يقولها جلية بينة فيفهم عنه سامعوه مباشرة ، دون وسيط ، عالمهم وجاهلهم سواء ، ثم يتناقلونها من بعده خلفاً عن سلف ، اللفظة باللفظة ، والحرف بالحرف ، لأن النبى لم يقل لهم هذا الكلام من عنده ، وإنما من عند الذى أرسله ، أى من الله عز وجل ، لايجوزُ فيه التبديل ، ولاتجوز فيه الإضافة ولو بقصد التفسير والتوضيح .

النبى الذى يحتاج فهم مقولته إلى تفاسير شراح يجيئون بعده بقرون ، يتفقون ويختلفون ، ويتجادلون ويتناظرون ، ثم يقترعون بأغلبية الأصوات فى المجامع أيهم المخطىء وأيهم المصيب ، ليس بنبى ، لأنه لم يحسن تبليغ الرسالة كما أنزلت إليه .

لم يكن هذا بالطبع حالُ المسيح عليه السلام ، حاشاه أن يكون ، الذى أبلغ فأدى . يكفيك فى محكم قوله فى تأصيل عقيدة التوحيد الخالص «لا إله إلا الله» قوله المحفوظ فى الأناجيل حين سُئِل عن أعظم الوصايا فى توراة موسى فأجاب : «أولى الوصايا جميعاً هى : اسمع يا إسرائيل ، الرب إلهنا رب واحد ، فأحب الرب إلهك بكل قلبك وبكل نفسك وبكل فكرك ، وبكل قوتك . هذه هى الوصية الأولى ، وهناك ثانية مثلها ، وهى أن تحب قريبك كنفسك ، فما من وصية أخرى أعظم من هاتين . فقال السائل : صحيح يا معلم حسب الحق تكلمت ، فإن الله واحد وليس آخر سواه ، فلما رأى يسوع أنه أجاب بحكمة قال له : لست بعيداً عن ملكوت الله ولم يجرؤ أحد بعد ذلك أن يوجه إليه أى سؤال» (مرقس : ١٢ / ٢٨ - ٣٢) فقد جاء المسيح على دين موسى .

قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم : ٤] ، أى كما أنزلنا التوراة عبرانية على موسى العبرانى فكذلك القرآن ، عربياً على عربى .

وكأن من أهل الكتاب من تعاظمه أن يخاطب الله الخلق بغير العبرية لغة التوراة ، فقال جل شأنه : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ [فصلت : ٤٤] .

أراد أهل الكتاب أن يخاطب الله أهل الأرض جميعاً باللغة العبرية ويقولون أنها لغة آدم فى الجنة وعلى الأرض !!

أفكان آدم رجلاً عبرانياً أو آرامياً ؟ كيف ، وهو أبو كل البشر ؟

أفكانت العبرية أو الآرامية هى اللغة التى عُلِّمَ بها آدم «الأسماء» كلها ؟

أفكانت هذه أو تلك هى لغة الملأ الأعلى ؟ أكانت هذه أو تلك هى اللغة الأولى التى هبط بها آدم من الجنة ؟ ليس لك أن تخوض فى لغة الملأ الأعلى ، هذا من غيب الله ليس لك أن تفترض ضرورة وجود «لغة» لفظية - صوتية ما ، أياً كانت أداةً للتلقى والفهم والخطاب فيما بين الملأ الأعلى ، ليس لك أن تخوض فيما لم يُعَلِّمك الله .

أما لغة آدم التى تكلم بها على الأرض مَهْبِطةُ من الجنة ، فالراجح عندى - ولا أُلْزِمُك إياه - أنها هى نفسها اللغة التى عُلِّمَ بها آدم الأسماء فى الملأ الأعلى ، لاسيما اسمه هو نفسه الذى خاطبه به الله فى الجنة ، وثبت له عَلَماً فى الأرض بين زوجته وبنيه ، والذى أقطع به - ويلزمك المنطق الصرف إياه - أن لغة أبى البشر آدم كانت لغة سامية ما ، بل قد كانت هى أم اللغات السامية جميعاً ، وأن اللغات السامية - دون سائر اللغات - هى الأحفظ لما بقى من لغة آدم بعدما تفرقت فى لغات البشر ؟ لا أقول لك - وإن كان الأرجح - أن العربية الأولى قبل أن تتطور إلى اللغة التى نزل بها القرآن قد كانت هى لغة آدم . يكفى العربية فخراً أن قد كان بها ختام كلام الله إلى أهل الأرض جميعاً ، يكفى العربية فخراً قرآنها .

فكيف وَسِعَت العربية هذا القرآن ؟ كيف حملت ،قره ؟ ما تلك الحضارة التى أنضجت تلك اللغة ، واللغة كما تعلم هى نضاج ا- ـمارة ؟ وهل كانت للعرب قبل القرآن حضارة ؟ فمتى اكتمل لها نحوها وصرفها وإعرابها ؟ متى تهيأ لها شعراؤها وخطباؤها وفصحاؤها ؟ بل كيف فهم العرب عنه ؟ كيف تذوقوا حلاوته؟ كيف سلموا بإعجازه ؟»

ولكن الذى يتوقف عنده كثيرون ، وربما قل من يفطنون إليه ، هو أن اللغة العربية - عصر بدء نزول القرآن فى مطلع القرن السابع للميلاد ، على قلة الناطقين بها يومذاك - كانت هى دون منازع أرقى لغات العالم القديم ، ليس فحسب أرقاها بلاغة وفصاحة وجمالاً ، وإنما أيضاً بالمقياس اللغوى البحت أرقاها دقة وكمالاً إنها لغة الإيجاز البليغ ، لغة اجتمعت لها كل الحروف ، وصحت المخارج : لا تندغمُ فى الحلق ، ولا تتآكل على أطراف اللسان ، ولاتتحور فى ذبذبات اللهاة ، فيها ما يقرع السمع عنيفاً ، وفيها الدمْثُ اللين ، وما بين بين .

لغة غَنِيَت حروفاً فغنيت جذوراً : لاتعرف اللواصق من رواكب وروادف ، وفى غيرها ينوء جَذْرُ اللفظ بأوزاره ، فيغيم المعنى فى ضباباته .

أما هى فتنحت الألفاظ والأوزان للمعنى وضده ، وللمعنى وقريبه ، وللمعنى والمشتق منه ، وللمعنى والمتداخل معه ؛ ما أن يقع بصرك على اللفظ حتى يَسْتَعِلن لك بكل معناه ودلالاتِه .

لغة تفننت فى أوزانها ، ونوعت فى تراكيبها طرائق شتى . تمد بالإعراب أواخر الكلم ، تهمز وتُسَهِّلُ ، وتصل وتقف ، وتنون وترخم ، فما استعصى عليها نغم ، وتلك كلها خصائص قرآنية .

الحق أن العبرية هُيِّئَت تهيئةً لتلقى هذا القرآن ، وزينت تزييناً لتليق به ، وأنضجت إنضاجاً لتكون وعاءه ، وأحكمت إحكاماً لتعبر عنه ، فما نزل القرآن إلا وقد تهيأ لهذا كله ضد منطق التاريخ ومنطق الحضارة .

كانت العربية وقت نزول القرآن ، بمستواها هذا الفنى المحكم ، لغة الخطاب اليومى ، لا لغة يصطنعها فحسب أهل الفن والفكر والأدب ، ولم تكن بمستواها

هذا الفنى المحكم لغة الخطاب لدى الصفوة من سادة قريش فحسب ، بل كانت هى لغة الخاصة والعامة .

وهذا هو أصلاً معنى اللغة : لاتلتمس فى المدونات وبطون الكتب ، ولاتهمهم بها الأقلام وتحبر الصحف ، وإنما اللغة هى التى ينطلق بها اللسان سجية فتبصر بها العين وتسمع الأذن .

لم يكن ينقص العربية عصر بدء نزول القرآن لتصبح اللغة العالمية الأولى يومذاك إلا أن تتجاوز حدودها الجغرافية السياسية الضيقة ، فتشيع بين الناس فى المشارق والمغارب . وقد تكفل القرآن بذلك .

أخى القارىء العزيز - أنت تعلم بالطبع أن علم التفسير يحتاج ممن يَتَصَدَّى له إلى جملة علوم ، أولها بإطلاق علوم اللغة العربية وعلمُ الحديث ، وثانيها التاريخ ، وثالثها العلوم الطبيعية والاجتماعية . ولكنه يحتاج أيضاً ممن يتصدى له إلى القدرة على تحقيق النصوص التى يُسْتَشْهَدُ بها من خارج القرآن والحديث الصحيح عن الصادق المصدوق ﷺ ، فى مصادرها المدونة بلغة الأصل الذى كتبت به ، فلا يسمعُ لِرُواةِ أهل الكتاب - الذين لايعلمون الكتاب إلا أمانِيَّ كما وصفهم الحق تبارك وتعالى - دون تمحيص ، وإنما يُحَقِّقُ ما يُرْوى له فى مصادره الأصلية ، أى فى التوراة والإنجيل . ولم تكن على عصر تفاسير القرآن ثمة ترجمة عربية للتوراة والإنجيل كما تجدُ لهما اليوم ترجمات بكل اللغات . ولم يكن من أهل التفسير من يستطيع قراءة التوراة والإنجيل فى نَصِّهما الأصلى ، العبرانى واليونانى ، فَيُمَحِّصُ ما يلقيهِ إليه رواة أهل الكتاب ليعلمَ أن قد صَدَقَ الرُّواةُ أم كذبوا ودلَّسوا ، أو اخترعوا بغية لهو الحديث . ومن هذه تلك الإسرائيليات التى دسها صغارُ رواة أهل الكتاب من يهود على أهل التفسير وانخدع بها لفيفُ منهم ، لايخلو منها كتاب من كتب التفسير مهما جَلّ قَدْرُ صاحبه ، فيضلُ بها القارئ العام غير المتخصص ، إلا من عصم ربُّك . وقد جرنى هذا إلى تدارُس «الكتاب المقدس» بشطريه - التوراة والإنجيل - فى ترجماتها العربية ، ثم إلى مراجعة هذه الترجمة حين يعضل فهمُ وجه الصواب فيها على الأصل العبرانى للتوراة ، والأصل اليونانى للأناجيل .

وموضوع البحث (الجوانب الخفية من حياة المسيح) يتناول معظم هذه الموضوعات ومعظم هذه الأحداث . . . وهى - ولاشك - أحداث غامضة تحتاج إلى عناء ، والبحث فيها شائك يحتاج إلى المزيد من التأمل والتروى قبل إصدار الحكم على أن الموضوع تناولته الأقلام من شتى المشارب ، فالمستشرقون لم يزهدوا فى البحث فيه بل كان مغنماً تسابقوا إلى اقتسامه ، فاستغل بعضهم تلك الأحداث للطعن فى الإسلام أو النيل منه ، وتبع أولئك تلامذتهم من المستغربين الذين أبعدوا النجعة فى تحليلاتهم لتلك الأحداث ، ويضاف إلى هؤلاء وأولئك طائفة لبسوا لبوس البحث العلمى حتى يقنعوا الناس بنتائج أبحاثهم !

إزاء هذا - ونظراً لقلة الكتابة الإسلامية والمسيحية أيضاً عن تلك الفترة المفقودة من حياة المسيح ، أحسست بالحاجة إلى الكتابة فى هذا الموضوع - على الرغم من صعوبته .

ولكى تتضح الصورة ، وحتى يعلم طرف من الصعوبة فى الموضوع أشير إلى النقاط الآتية :

١ - الموضوع الأساسى للبحث (المسيح بن مريم) شخصيته أسطورة عند بعض الباحثين ! وما أصعب البحث عن شخصية تعتبر من نسج الخيال لدى بعض الباحثين ، وأسطورة فى عداد الأساطير عند آخرين .

٢ - وحتى لو تجاوزنا هذه العقبة واجهتنا عقبة أخرى ، ألا وهى صعوبة البحث عن فترات صامتة من حياة المسيح .

٣ - يضاف إلى ذلك حاجة البحث إلى نقد النصوص ، وخاصة عن طريق (الجرح والتعديل) وهو علم غزير الفائدة فعن طريقه نتبين صحيح الأخبار من سقيمها ، ولكنه صعب المنال لغير المتخصصين فيه .

ولأن مقولة هذا الكتاب مقولة جديدة غيرُ مسبوقة ، لا أعلم أحداً لمح إليها من قبل ناهيك بأن كتب فيها ، فلن تجد بالطبع مراجع لهذا البحث فى كتب سبقت ، وإنما الأسانيد الأساسية لهذا البحث هى المراجع اللغوية فحسب ، أى المعاجم المتخصصة . وقد عنيت فى انتقاء هذه المراجع بما هو متاح منها فى

الأسواق ، تيسيراً على القارئ والناقد والخَصْم ، ممن يودون التثبت من مقولات هذا الكتاب أو التصدى لها .

وقد اجتزأتُ من تفاسير القرآن بأوسعها فى هذا العصر انتشاراً ، وهو أيضاً أحكمها وأشملها ، أعنى تفسير الإمام القرطبى رحمه الله «الجامع لأحكام القرآن» الذى تتمنى ألا يخلو منه بيتُ مسلم . وفى هذا التفسير أيضاً فضيلة . هى اهتمامه بالتأصيل اللغوى ، الذى يكمل النقص فى معاجم اللغة العربية الحديثة المنتشرة فى الأسواق ، وأهمها بالطبع «المعجم الوسيط» الصادر عن مجمع اللغة العربية بمصر .

أما القرآن كتاب الله عز وجل ، فلديك مصحفُكَ والحمد لله . وإنى لأعُوذُ بوجهه الكريم أن يُجَنِّبَ هذا البحث هناتِ الطباعة فى لفظٍ أو حرفٍ من كلام الله عز وجل . وقد عُنِيتُ فى إيراد الآيَاتِ بذكر اسم السورة ورقم الآية ، كى تراجعها معى على مصحفك فلا تتصحف عليك .

وهناك أيضاً - على الجانب الآخر - التوراة والإنجيل ، ولديك فى المكتبات ترجماتُها العربية المعتمدة من السلطة الدينية المختصة. وتستطيع أيضاً - إن أردت- الرجوع إلى نَصّهـا الأصلى العبرانى واليونانى ، وقد أثْبَتُّ لك فى قائمة المراجع اسم الناشر واسم المكتبة .

وقد عُنيت فى كل نص استشهدتُ به من «الكتاب المقدس» بشطريه - أعنى التوراة والإنجيل - بذكر رقم الإصحاح ورقم «الآية» . والإصحاح من التوراة والإنجيل يعنى فى مصطلح أهل الكتاب ما تعنيه «السورة» عند أهل القرآن ، وهو أيضاً من معناها قريب . فهو مصدر من «الصحة» لابمعنى السلامة من المرض والآفة ، وإنما هو بمعنى الكمال والبراءة من النقص ، فهو المكتملُ غير مزيدٍ فيه أو منقوص منه . أما «الآية» فقد استعاروها من مصطلحات أهل القرآن ، وليست هى أصلاً بآية ، وإنما هى السطر أو البيت فى القصيد ونحوه Verse أو هى العبارة أو الجملة المتكاملة . ولكنه تشبيه لا بأس به ، يُقَربُ المعنى إليك ، كما يقربه إلى أهل الملة القارئين بالعربية لايعرفون غيرها .

وقد عرجنا أيضاً فى سياق البحث على موضوعات وقضايا ربما يظنها القارئ المتعجل دخيلة على مباحث الكتاب ، وهى منه فى الصميم ، ومن ذلك على سبيل المثال شرح عقيدة المسيحيين فى المسيح ، تعريف بالتوراة والإنجيل ، البت فى مسألة الصلب ، والبت فى مسألة القتل والرفع ، المجامع ، وقد أفضتُ فى هذا شرحاً وتعقيباً ، كما أفضت فى غيره من مباحث الكتاب ، لأنى أحببت أن أوفر على من يتصدون لانتقاد مقولات هذا الكتاب مؤونة الكرِّ والفرِّ ، فحرصت على أن أسُدَّ عليهم مقدماً منافذ القول : بذلت فى هذا قصاراى ، وما أدعى الكمال، فالكمال لله وحده ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

مدخل لغوى لابد منه

بدأ نزول القرآن على خاتم النبيين ﷺ عام ١٣ قبل الهجرة (٦٠٩م) مطلع القرن السابع للميلاد قبيل انقضاء ستة قرون على رفع المسيح عليه السلام ليس بينهما نبى .

كانت حضارات العالم القديم كلها آنذاك قد تهاوت ، وآذنت الدنيا بميلاد جديد ، وهى قد تهاوت لأن العمالقة أكل بعضهم بعضاً ، وكانت ساحة الصراع هى هذا الشرق الأدنى القديم .

لم يكن الصراع يدور على فكر أو على خطة لحياة ، فقد تداخلت الأفكار والمذاهب ، وتشاكلت الضلالات هنا وهناك ، وإنما كان الصراع يدور على الأسلاب والغنائم ، وكان الأسلاب والغنائم هم أهل هذا الشرق الأدنى القديم .

لم يكن لدى الغزاة شىء يفتحون به على أهل الأقطار المغلوبة ، ولم يكن لدى المغلوبين شىء يقدمونه للغزاة .

ولكن الصراع بين العمالقة الآريين الثلاثة - الفرس والإغريق والرومان - أو اختصاراً بين الفرس والروم ، لاينفك يدور ، لاتضع الحرب أوزارها إلا لالتقاط الأنفاس بضع سنين ، وهى حرب عبث ، سواء على التاريخ قامت أم لم تقم ، فالغالب اليوم مغلوب غداً .

احتدم الصراع بين الفرس والروم على ما بقى من أطلال الشرق الأدنى القديم قروناً بين كر وفرحتى أجهز عليهم المسلمون فى أواسط القرن السابع ، ومن قبل أثخن الروم - إغريقاً ورومان - بعضهم فى بعض ، وأتى القوط والجرمان على القياطرة فى روما ، فارتحلوا شرقاً إلى بيزنطة قبل قرنين اثنين من ظهور الإسلام .

اختلط الحابل بالنابل فى هذه المنطقة من العالم التى شهدت مولد حضارات البشر ، ولم يكن هناك فكر جامع تستند إليه حضارة جامعة جديرة بالبقاء ، لم

تعد ثم - رغم ما قد تسمعه من شهيق وزفير - إلا حضارة ماتت أو أوشكت أن تموت، ولم يعد ثم - رغم ما قد تسمعه بين الفينة و الفينة من هدير وزئير - إلا أسد هرم تسلخ جلده وتثرمت أسنانه وعشى بصره يرجو رحمة ربه فى ضربة إجهاز تريحه من عذابه . وكان أن أتى أمر الله .

أخى القارئ - أنت تعرف بالطبع العلاقة بين موات الحضارة وموات اللغة . فما بادت حضارة قوم إلا بادت لغتهم ، أو ذابت فى لغة السادة لتعيش بعضاً من حياة أو تحورت إلى رطانة شائهة هجينة لاتكاد تبين .

إلى هذا آلت اللغات فى هذه المنطقة من العالم : تهاوت الحضارة فتهاوت اللغة ولم يكن فى أى من تلك اللغات جميعاً كتاب فى عظمة القرآن يعصمها أن تزول .

فى مطلع القرن السابع للميلاد كانت اليونانية الفصحى التى تغنى بها من قبل شعراء الإلياذة وكتب بها أمثال أفلاطون وسوفوكل ، وخطب بها أمثال بريكليس وديموستين قد آذنت من قبل بالأفول حوالى مطلع القرن الثالث ولم يأت القرن السابع إلا وقد آلت إلى يونانية دارجة هجينة ، لا على ألسنة العامة فحسب وإنما أيضاً فى الفن والفكر والأدب .

أما اللاتينية الفصحى التى كتبت بها مدونات الفقه الرومانى ، ونظمت بها إنيادة فرجيل ، وخطب بها أمثال شيشرون وقيصر فقد حذت حذو أختها اليونانية بنفس الترتيب الزمنى أو تكاد ، فلم يأت القرن السابع إلا وقد تحورت إلى لاتينية دارجة هجينة ، بل قل إلى لاتينيات دارجة هجينة ، يَلّدْن من بعد لغات أوربية تقرأ لها الآن لم يكتمل لها نموها إلا فى نحو تسعمائة سنة من نزول القرآن .

لم يبق من اليونانية واللاتينية مطلع القرن السابع للميلاد إلا آثاراً من مجد قديم تليق بحضارة ذوت ، ولاتتسع لحضارة باذخة توشك أن تولد ، لتعيش .

تلك الحضارة الباذخة الوليدة كان القرآن شهادة ميلادها ، وهو إلى الآن عمود حياتها ، وما أوشكت أن تتصدع فى مراحل من عمرها إلا لأن أصحاب القرآن أنسوه ، فالحذر الحذر ممن يرفضونه اليوم دستور حياة .

أما فى الشرق الأدنى القديم ما بين مصر وفارس ، مهبط الرسالات ، وموئل الحضارات التى سبقت الفرس والروم ، فقد اختلط الحابل بالنابل :

فى مصر ، تصدعت - بانهيار دولة الرعامسة [١] حوالى القرن الثانى عشر قبل الميلاد - حضارة شامخة زهت نحو ألفى سنة (٣٢٠٠ ق م - ١٢٠٠ ق م) وآذنت بأفول لا رجعة منه ، حتى غدت مصر ولاية فارسية منذ (٥٢٥ ق م) على يد قمبيز وخلفائه ، ثم إقطاعة يونانية لخلفاء الإسكندر (٣٣٣ ق م) ثم ولاية رومانية (٣٠م) للقياصرة فى روما ، ارتحلت تبعيتها معهم إلى بيزنطة (٣٩٥م) ولم يبق من المصريين إلا الحجر ، ومياه النيل تجرى تهمهم بما كان : ﴿**كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ**﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٦] .

ترى هل بقيت للمصريين فى مطلع القرن السابع للميلاد أثارة من لغة حضارتهم الأولى التى دَرَسَت ؟ هل بقى لديهم شىء من تلك اللغة الفصحى التى ترنم بها إخناتون من قبل ابتهالات وتسابيح ؟ هل بقى لديهم شىء من تلك اللغة الفصحى التى حاور بها فرعون موسى وهارون ؟ [٢] .

أنت بالطبع تعرف الجواب : باندثار الحضارة تندثر اللغة ، لم يبق من المصريين فى مطلع القرن السابع من يتكلم المصرية الفصحى ، وإنما آلت المصرية الفصحى إلى قبطية دارجة هجينة ، تكتب كلها أو تكاد بأحرف يونانية ابتدع رسومها الفينيقيون من قبل وتَنْضَحُ برطانة تعرف فيها آثار ألسنة الغزاة ، الإغريق فالرومان ومسحة من آرامية [٣] فارسية انتقلت إليها مع جيوش قمبيز .

---

(١) الرعامسة : جمع رَعْمسِ ، أو رمسيس كما نكتبها نحن الآن .

(٢) كانت الفصاحة شرطاً فى هذا الحوار البليغ ، يدلك على هذا استنصار موسى بأخيه هارون ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص : ٣٤] .

(٣) الآرامية : هى لغة أهل آرام (إرم فى القرآن) كانت تطلق على مانسميه نحن (سورية) بالمعنى العام ، سماها أهلها كذلك تحناناً إلى موطنهم القديم (آرام نهريم) أى آرام مابين النهرين ، وهناك كانت (إرم ذات العماد) التى عناها القرآن .

كانت الآرامية هى اللغة الغالبة فى ربوع الشرق الأدنى القديم ، فاستبقاها الفرس لغة رسمية فى إمبراطوريتهم وبها اكتشف فى مصر مخطوطات ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد=

أما فارس التى بلغت أقصى اتساعها على عهد الأخمينيين (القرن السادس ق م) - (القرن الرابع ق م) ، كر عليهم الإسكندر فقوض ملكهم من تخوم الهند إلى مصر (٣٣٣ ق م) وورث إمبراطوريتهم الشاسعة جميعاً ليتوزعها خلفاؤه من بعده ، وليبدأ فى الشرق الأدنى كله العصر «الهلِّينى» .

ولكننا لانخوض بك فى تاريخ ما قبل التاريخ ، فلا علاقة لموضوعنا بهذا الفن ، ولسنا أيضاً من رجاله . ولكنى أريد أن أبين لك الخطأ اللغوى الذى وقع فيه النصارى فى تأليه المسيح عليه السلام ، فلم يبق من الحديث عن لغات الشرق الأدنى القديم إلا الآرامية والعبرية ، ولكن الحديث عنها يقتضى الحديث أولاً عن اللغات المسماه بالسامية - وأمها جميعاً «العربية» - تقريراً لأصالة العربية عليها قبل نزول القرآن .

فأنت تستطيع أن تصنف لغات البشر إلى سلالات عرقية أو جغرافية - تاريخية ، تنسبها إلى موطن أقدم من يُظن أنهم تكلموا بها قبل أن ينساحوا فى الأرض ، فتنشعب ألسنتهم لهجاتٍ فلغات ، فتقول مثلاً : اللغات الآرية ومنها السنسكريتية فى الهند والفارسية فى إيران ، واليونانية واللاتينية والجرمانية فى أوربا، وما تفرع عن هذه وتلك من لغات تقرأ لها الآن .

أو تقول مثلاً : اللغات السامية والحامية والكوشية ، ومنها العربية والعبرية والمصرية والحبشية ، بقى منها ما بقى وباد ما باد ، والسامية والحامية نسبة إلى سام وحام ابنى نوح والكوشية نسبة إلى كوش بن حام ، وهذه أسماء قبائل وشعوب تفرقوا فى البلاد فتفارقت الألسنة .

أما إن ترجح إليك وحدة الأصل الإنسانى ، فلا مفر لك من أن ترد لغات

= مجىء قمبيز تستند إليها الدراسات الحديثة فى محاول فهم الآرامية البائدة وتقعيد نحوها وصرفها ، وللآرامية أيضاً اسمان آخران هما : «الكلدانية» و«السريانية» ، أما الكلدانية فهى تسمية خطأ ، عدل عنها اليوم علماء اللغات المحققون ، وأما السريانية فهى الآرامية نفسها أو ما آلت إليه الآرامية منذ القرن الثالث الميلادى ، ومازالت السريانية تعيش إلى اليوم على بعض الألسنة ، وبهذه الآرامية نفسها كان يتحدث المسيح إلى عشيرته وحوارييه وبها كان إنجيله الذى لاتجد له اليوم إلا أصولاً كتبها أصحابها بيونانية متأخرة تعرف باليونانية الكنسية .

أهل الأرض جميعاً إلى أصل واحد ، وهو تلك اللغة الأولى التى تكلم بها أبو البشر آدم عليه السلام .

على أن افتراض لغة أولى تفرعت عنها كل اللغات ، وهو فرض علمى لاغبار عليه - إن لم يكن الفرض المنطقى الراجح - ربما يغريك ببحث عقيم عن أى اللغات كان الأول ، ولكنك مهما بذلت من جهد - وأيضاً من افتعال - فقصاراك أن تقنع بغرض واحد مؤكد ، وهو أن اللغة التى تكلمها آدم لم يعد يتكلمها اليوم أحد من أهل الأرض ، وإنما تفرقت فى لغات البشر جميعاً : لكل منهم فيها نصيب ، قل أو كثر .

لهذا عدل اللغويون عن ذلك الآن ، وأصبحوا ينسبون الأسر اللغوية التى يتكلمها البشر اليوم إلى الأرض التى يعيش عليها فى عصرنا هذا من يتكلمونها اليوم أو عاش عليها أسلاف لهم سبقوا .

أما الخصائص التى يستند إليها اللغويون فى تقسيم لغات البشر إلى مجموعات لغوية ، أو أسر لغوية فهى تنقسم بدورها إلى فصائل لغوية داخل الأسرة الواحدة، فأهم هذه الخصائص ما يلى :

١ - مخارج الأصوات .

٢ - دلالات الألفاظ .

٣ - بناء الألفاظ .

وأما الفوارق بين لغة ولغة من نفس الفصيلة ، كفوارق ما بين العربية والعبرية من الفصيلة السامية ، والتى تجعل منهما لغتين مختلفتين بحيث تعتجم العبرية على السامع العربى - كما تعتجم العربية على السامع العبرى - فلا يفهم أحدهما شيئاً من لغة الآخر حتى يترجم له . فمن الفوارق بين العربية و العبرية على سبيل المثال :

١ - القلب والإبدال .

٢ - المغايرة بين العربية والعبرية فى النحو والصرف .

أما القلب فهو تغير ترتيب أحرف الكلمة مع اتحاد المعنى مثل :

«جَذَب» و«جَبَذ» بمعنى شد فى كليهما وغيرهما كثير .

أما الإبدال فهو تغيير حرف بحرف آخر قريب من مخرجه مع بقاء المعنى مثل: «سِراط » و«صِراط» بمعنى الطريق فى كليهما .

ومن الإبدال أيضاً المبادلة بين أحرف المد كإبدال المد بالواو مداً بالياء مثل : «ساع / يسوع» و«ساع / يسيع» وكلتاهما بمعنى ضاع وهلك . وأما أخطر وجوه التغاير بين العربية والعبرية ، وأولها أيضاً على أصالة العربية وسبقها للعبرية (وللآرامية أيضاً) فى الزمان والمكان ، فمنها تفوق العربية تفوقاً ساحقاً بوفرة المادة اللفظية (الجذر الثلاثى) بما لايقاس على العبرية والآرامية ، ليس فقط بسبب زيادة الأبجدية العربية بستة أحرف أصلية (ث- خ - ذ - ض - ظ - غ) وإنما أيضاً لكون العربية أوفر أوزاناً وأضبط وأقيس ، تستطيع الإتيان بالطريف المعجب دون زيادة فى أحرف الجذر .

ومن وجوه الأصالة والتفوق أيضاً أن العربية تستنفد من الجذر الأصلى كل معانيه - الرئيسى والمترتب عليه - حين تقتصر العبرية والآرامية غالباً على وجه واحد تجمدان عليه .

من ذلك الفعل «حَمَد» فهو فى العربية بمعان يتسلسل بعضها من بعض : «حَمَدْتُه» يعنى رضيته وأعجبت به ، وحمدته أيضاً يعنى ذكرت محاسنه فمدحته بما هو أهله ، وحمدت له أمراً يعنى استحسنت له ، وحمدته أيضاً يعنى ذكرت له نعمة فشكرتها وأثنيت عليه لجوده بها .

أما العبرية فتقتصر من «الحمد» على وجه واحد ، وهو الرضا والإعجاب: «حمدته» العبرية تعنى أعجبنى وحلا لى .

وهذا هو الوجه المنعوت به ﷺ بمقتضى تسميته «مُحَمَّداً» ، أى الحميد الخَلْق والخُلُق الحميد الأفعال والصفات و هو أيضاً الذى جاء فى العهد القديم نبوءة بمبعثه ﷺ على لسان حجاى النبى : (وبا حِمْدَت كل هَجويم) (سفر حجاى : ٢ / ٧) يعنى : (ويجىء حِمْدةُ كل الأمم) أى الذى تحمده كل الأمم ،

يعنى يحمده كل من نطق باسمه ، وإن جحده وأنكر نبوته .

والنصارى يسقطون هذه النبوءة على المسيح عليه السلام ، وليس بشىء ، لأن المسيح لايحمده من جحده وأنكره ، ومنهم اليهود على الأقل .

وهذا أيضاً بعض معنى قوله عز وجل : ﴿النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ [الأعراف : ١٥٧] أى نبى كل الأمم الموصوف بنعته فى التوراة والإنجيل اللذين بين أيديهم عصر نزول القرآن وإلى الآن .

ومن أسف أن تراجمة العهد القديم يترجمون عبارة «حمدة كل الأمم» بعبارة «مُشْتَهى كل الأمم» ربما لطمس معنى «الحمد» فى النبوءة ، ولو أنصفوا لاستبقوا لفظ «الحمد» فى النص العربى على الأقل - بصورته المشتركة بين العربية والعبرية.

ربما اعتذرت لهم بأنهم لو سلموا بهذه النبوءة لسلموا بنبوة محمد ﷺ وربما ظننت أيضاً أنهم لايسلمون بالاشتراك بين «حمد» العربى و«حمد» العبرانى ، ولكن آباءهم فى الأندلس كانوا يسلمون بهذا الاشتراك ، بدليل نطقهم اسم النبى لنصارى الأسبان والفرنسيس لا على زنة مُفَعَّل العربى - أى مُحَمد - وإنما على زنة نظيره العبرى مِفُعَّل - أى مِحُمدَّ - بنفس المعنى عبرياً ، ومن هنا قال الأسبان Mahoma وقال الفرنسيون Mahomet اللتين تحار فى تعليل تحريفهما ، وربما أسأت الظن فحسبت أنها «حُمِدّ» نفياً للحمد عنه ﷺ (وهذا جديد نفيس لم تقرأه من قبل) .

أما أكثر أوجه المغايرة دلالة على أصالة العربية وسبقها ، فهو أن العربية لايوجد فيها لفظ مشتق إلا وهى تستخدم ثلاثيه المجرد فى أصل المعنى الموضوع له، أما العبرية فيكثر فيها المشتق الذى لاجذر له ، معنى ذلك أن العبرية تأخذ اللفظ المشتق على صورته عند أصحابه دون فهم أصل معناه فى جذره الثلاثى ، والجذر بالطبع أسبق وجوداً من اللفظ المشتق منه ، العبرية إذن ناقلة عن العربية ، ولايتصور العكس .

هذا يفسر لك لماذا يلجأ اللغويون إلى المعجم العربى لمحاولة فهم غوامض العبرية والآرامية وبوائدها ، مثلما يفعلون لمحاولة فهم غوامض غيرهما من بوائد الساميات .

لهذا صح عند اللغويين الأثبات أن العربية هى أم الساميات جميعاً ، لأنها الخزانة اللغوية التى تغترف منها سائر لغات الفصيلة ولا تنضب هى ، بل لديها دائماً المزيد .

ولكنك فى أقل من القليل تستطيع أن تؤكد - مصيباً غير مخطئ - أن اللغة العربية - أياً كان الشكل الذى تطورت منه إلى الشكل الذى نزل به القرآن فى مطلع المائة السابعة لميلاد المسيح - كانت هى نفسها فى عصر ما بالغ القدم اللغة السائدة بين سكان شبه الجزيرة من أقصى اليمن إلى أقصى الشام ، وأن الآرامية التى ارتحل بها آباء إبراهيم من العراق إلى سورية ، والعبرية التى ارتحل بها إلى مصر يعقوب وبنوه ، وعاد بها بنو إسرائيل إلى جنوبىّ فلسطين بغير الوجه الذى ذهبت به فتعاجموا بها على إخوانهم الموآبيين (١) - هذه وتلك وسائر ما تكلم به أهل الشرق الأدنى القديم فى شبه الجزيرة - ليست إلا لهجات قبلية متحورة عن هذه العربية نفسها ، تهجنت بها ألسنتهم بتأثير الغزو اللغوى الحضارى الذى توالى على أطراف شبه الجزيرة شرقيها وشماليها ، وسلم منها قلبُها فى الحجاز ، وإلى حد بعيد جنوبيها فى اليمن .

على أنك إزاء هذا المستوى الفنى الرائع الذى ارتقت إليه تلك اللغة الفذة نحواً وصرفاً وإعراباً - ضد منطق التاريخ ومنطق الحضارة - والذى تلمسه قبيل نزول القرآن - فيما صحت نسبته إلى الجاهلين من شعر - لابد أن يخايلك إحساس مبهم بأن تلك اللغة لاريب سليلة حضارة موغلة فى القدم سبقت عصر الطوفان وسبقت عصر التصحر والجفاف فى شبه الجزيرة ، ثم ضاعت فى ضباب التاريخ .

---

(١) الموآبية : هى أقرب اللهجات إلى العبرية ، والتسمية عبرانية(مو + آب) أى ماء أبينا ، أى الذى يجمعنا بهم أب واحد وتفرقت بنا العلات .

ومن أشنع أباطيل سفر التكوين قولهم : إن الموآبيين هم أبناء لوط من ابنتيه ، خلتا به بعد أن أسكرتاه الواحدة بعد الأخرى ليكون له منهما نسل ، وكأنما عدمت الأرض رجالها ونساءها بعد خراب سدوم ، وكأنما لوط فى فراره بابنتيه من القرية التى كانت تعمل الخبائث ، كان يفر من الرمضاء إلى النار ، بل النار مثوى الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله ، كان هذا تشنيعاً على قبائل الموآبيين بعد أن قهروا بنى إسرائيل ، رغم أن الموآبيين أسبق وجوداً على الأرض من لوط وابنتيه .

تحدثنا فيما سبق عن أوجه التقابل والتغاير بين العربية والعبرية داخل الفصيلة السامية ، وما ذكرناه بشأن العربية والعبرية ينطبق فى جملته مع بعض تفاوت ، على ما بين العربية والآرامية ، وعلى ما بين الآرامية والعبرية تلك اللغات السامية الثلاث .

ما أردناه هو التمثيل لوجوه التقابل والتغاير بين أفراد الفصيلة اللغوية الواحدة التى تجعل إحداهما كلاماً أعجمياً فى سمع أهل اللغة الأخرى من نفس الفصيلة ذلك أن اللغات ، بغض النظر عن الغزو اللغوى - الحضارى ، لاتثبت قط على حال ، بل تنمو وتتحور أيضاً ، لا بفعل المؤثرات الخارجية وحدها ، وإنما أيضاً بفعل ارتقاء الحضارة الذاتية لأبناء اللغة : تنتعش الحضارة فتغنى اللغة . والحضارة التى يصيبها العقم فلا تتطور ولا تُبدع ولاتبتكر ، تعقم لغة أهلها أيضاً فلا تولد فيها ألفاظاً جديدة لمعان ومسميات جديدة مثل (العولمة) سبقهم إلى الوقوع عليها أبناء الحضارة الغالبة ، أصحاب الحق الأول فى تسمية ما يكتشفونه ويبتدعونه .

أما اللغة التى تستعير من غيرها معانى الأفعال وأسماء الأفعال ، فهى لغة قد عقم تفكير أهلها وضحل ، ينتظرون من غيرهم أن يفكر لهم ، ثم يأخذون عنه أخذ الببغاء والقردة ، فيزدادون تبعية ويمعنون ارتكاساً .

ولأن الألفاظ هى أوعية المعانى ، تماماً كما أن الجسد وعاء الروح ، تستطيع أن تقول إن المعانى يتوالد بعضها من بعض بقدر ما تتوالد الألفاظ بعضها من بعض ، أى بقدر ما تكون اللغة قادرة على نحت الألفاظ واشتقاق اللفظ من اللفظ ، هى اللغة الأقدر على توليد المعانى ، وأنها اللغة الأدق عبارة ، الأوضح فكرة ، الأطوع لتشقيق المعانى ، الأقوى على التخيل والإبداع ، الأملك لعنان الفكر ، الأثبت فى وجه الغزو اللغوى الحضارى .

واللغة العربية فى هذا كله - دون سائر اللغات - فرس لايدانى ، لأنها الأكثر حروفاً ، الأغزر جذوراً ، الأوفر أوزاناً ، الأضبط نحواً وموازين صرف .

مربك أن اللغات يلقح بعضها بعضاً ، ويستعير بعضها من بعض ، وهو تلاقح محمود فوق أنه محتوم ، وهو محتوم لامناصْ منه لأنه ناشىء عن احتكاك القبائل والشعوب بعضها ببعض سلماً وحرباً ، يموج بعضهم فى بعض ، ويجوس

بعضهم فى ديار بعض ، أما السقيم المقبوح ، فهو استعارة أهل اللغة من أصحاب الحضارة الغالبة لفظاً أعجمياً لايحتاجون إليه ، وعندهم مثله ، كمن أراد العدول عن تحية الإسلام إلى تحية الجاهلية ، فقال : (بُنْجُور) Bonjour الفرنسية ، ولديه فى لغته (عم صباحاً) وأصلها : (نعمت صباحاً) ، وهى طبق الأصل من تلك ، وهو فى هذه الحالة - الرطانة والترجمة - ببغاء يهرف بما لايعرف .

كان هذا بحثاً لغوياً مجرداً ، أردناه مثالاً لكيفية التدليل على عجمة لفظ ما أو أصالته فى لغة بعينها ، وإذا كنا نعيبُ هذا التخبط وهذا الإسراف ، فنحن لانقصد إلى تنزيه العربية عن الاقتباس من غيرها ، وقد مر بك أن التلاقح بين اللغات أمر محتوم ، فوق أنه محمود مقبول حين تدعو إليه الحاجة ، بل لاتخلو معاجم أى لغة من ألفاظ أعجمية الأصل ، وليست العربية بدعاً بين اللغات ، فلا غضاضة فى هذا على العربية أو على غيرها .


الفصل الأول

الأناجيل

اليهود والنصارى هم وحدهم « أهل الكتاب » لايندرج تحت هذا الاسم غيرهم من الملل ، فهذا هو صريح القرآن ، لايصح غيره ، وشواهده القاطعة من القرآن عديدة ، ومنها هذا الشاهد الحاسم الذى يقطع كل جدل : ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾[المائدة: ٦٨] أى هم أهل التوراة والإنجيل فليستقيموا عليهما ، وعلى ما أنزل إليهم من ربهم ، أى القرآن ، الذى جاء به محمد ﷺ ودعاهم إليه ، بدليل قوله عقب هذا مباشرة : ﴿**وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾ [المائدة : ٦٨] ، فما أنزل إليهم من ربهم بخلاف التوراة والإنجيل هو هذا القرآن الذى دُعُوا إليه . لايصحُّ أن يؤمر بإقامة التوراة والإنجيل إلا أهلها كما جاء فى قوله عز وجل : ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ**﴾ [المائدة : ٦٥ - ٦٦] .

والراجح عندى أنهم سُمُّوا «أهل الكتاب» بمعنى «أهل التوراة» ، فالتوراة لا الإنجيل هى الكتاب المعنى . وهى مشتركة بين الطائفتين : يدين اليهود بالتوراة ويكفرون بالإنجيل ، ويدين النصارى بالتوراة وبالإنجيل ، وقد قال المسيح عليه السلام ماجئت لأهدم الناموس (أى التوراة) وإنما جئت لأكمل ، أى بالإنجيل ، فالمسيح عليه السلام يكمل التوراة ولاينتقص منها ، وقد ظل المسيحيون الأوائل يُعَدُّون فرقة من فرق اليهود لا أكثر ولا أقل . ولم تكتب الأناجيل إلا بعد زمان من رفع المسيح ، وهى قد كتبت إنشاءً لا استنساخاً من أصل يرد إليه .

ولاتزال المسيحية إلى اليوم تتعبَّدُ فى كنائسها بتلاوة فقرات من هذه التوراة توراة اليهود ، بل إن « الكتاب المقدس » ، كتاب المسيحيين مجلد يضم «التوراة والإنجيل » معاً : إنه هو «الكتاب» The Bible (La bible بالفرنسية) ، وأصلها Biblion اليونانية - لغة الكنيسة الأولى - وقد أصبحت Bible هذه

عَلَماً على التوراة والإنجيل معاً ، لايجـوز إطلاقها إلا والمرادُ منها التوراة والإنجيل لامجرد أى كتاب .

ومن إعجاز الـقرآن أن يفطن وحده - مطلع القرن السـابع الميلادى - إلى هذا، فيـجمع بين الطائفـتين تحت مسـمى واحد : أهل الكتـاب على معنى أهـل التوراة والإنجيل ، يعنى: People of The Bible بالإنجليزية لا People of The Book كما تخطىء فيـها بعض ترجمات القرآن الإنجليزية ، بل إن القـرآن المعجز يأبى على أى من الطائفتين أن تنكر إحداهما على الأخرى وكتابهم واحد ، أى التوراة . (١)

ولقد ضَمَّ المسيحيون أسفارهم إلى أسفار اليهود (على خلاف بينهم فى إنكار بعض وإضافة بعض) فى مجلد واحد من جـزأين هما « العهد القديم » (التوراة) و«العهد الجديد» (٢) (الإنجيل) ، تحت اسم «الكتاب المقدس » ، لذا خص القرآن

---

(١) التوراة : كلمة مسـتعربة أصلها العبرى تورا : بمعنى العلم والإبانة والهدى والتـبصرة . فقد فسر القرآن التـوراة بمعنى العلم فى مثل قوله : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ [محمد : ١٦] وبمعنى البـيان والإبانة فى مثل قوله : ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ [طه : ١٣٣] ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة : ٤٠] وبمعنى الهدى والهداية فى مثل قوله : ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الإسراء : ٢] وبمعنى البصيرة والتـبصرة فى قوله عز وجل : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصص : ٤٣] .
وهى الكتاب المنزل على موسى عليه السلام وهو خمسة أسفار : سفر التكوين (سفر الخليقة) وسفر الخروج وسـفر الأحبار (سفر اللاويين) وسـفر العدد وسفر التثنيـة ، وقد وردت كلمة التوراة فى القرآن ١٨ مرة وقد تسمى فى كتب العهدين باسم الناموس ، وتطلق التوراة مجازاً على العهد القديم المشتمل على أسفار موسى الخـمسة السابقة وعلى كتب الأنبياء التى ألحقت بالتوراة خلال تسعة قرون . وقد اسـتخدمت كلمة العهد فى التوراة بمعنى الوعد الصادق من الله للإنسان ، وفى عهد الرشيد قام أحمد بن عـبدالله بن سلام بترجمة التوراة إلى العربية . (القاموس الإسـلامى ١ / ٥٠٨ - دائرة وجدى ٢ / ٧٠٢ - الموسوعـة الميسرة ص ٥٦٦ - كشف الظنون ١ / ٥٠٤) .
(٢) العهد الجديد : ويضم الأناجيل وملحقاتها ، أى جميع الأسفار والرسائل المكتوبة بعد عيسى عليه السـلام ، وأولها إنجيل متى وآخرها رؤيا يـوحنا ، وفى قبولهـا اختلافـات كبـيرة بين الكنائس ، وهذه التسميـة اجتهادية أخذها النصارى من قول سـفر إرمياً : ٣١ / ٣١ - ٣٣ (ها أيام تأتى يقول الرب وأقطع مع بيـت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهـداً جديداً (٣٢) ليس=

أهل الملتين باسم « أهل الكتاب» لايدخل فيه غيرهم ، وقد سَلّموا للأسفار جميعاً بالوحى من الله ، ليس فقط لأن اللاحق يبنى على السابق فحسب كما مر بك ، وإنما أيضاً وبالأخص اتباعاً لقول المسيح عليه السلام فى الأناجيل : ماجِئْتُ لأهدُمَ الناموس (أى التوراة) ، وإنما جئت لأكمل (أى بالإنجيل) .

أما اليهود فهم بالطبع لايُسَلِّمون بالوحى لكتابات «العهد الجديد» ، وإلا لما بقوا على يهوديتهم . وهم لايسلمون بالوحى أيضاً لأسفار أضافتها الكنائس المسيحية إلى أسفارهم المعتبرة عندهم (على خلافٍ فى هذا بين الكنائس المسيحية).(١)

وقد توقفت «النبوات» فى بنى إسرائيل قبل قرون من مولد عيسى عليه السلام. ومن هنا يفهم خُلُوُّ أسفار التوراة من النص على أعلام المسيحية الأربعة : زكريا ، يحيى (يوحنا) ، مريم ، عيسى ، عليهم السلام ، ولم تذكر عمران جَدَّ عيسى .

ويلاحظ أن أسفار « العهد القديم مكتوبة كلها بالعبرية ، ماعدا أجزاء قليلة كتبت بالآرامية رأساً أو متأثرة بها ، منها عبارات فى سفر التكوين نفسه ، أول أسفار العهد القديم ، ومنها بعض إصحاحات متفرقة فى أسفار ثلاثة هى أسفار إرميا ، دانيال ، عزرا (عُزير فى القرآن) . وإذا علمت أن عزرا كاتب «شريعة الله» بعد سبى بابل - كان من أعلام القرن الخامس قبل الميلاد ، فقد علمت مدى طغيان هذه الآرامية على ألسنة الناس ، حتى حلت تماماً أو تكاد محل العبرية فى ربوع فلسطين منذ ثلاثمائة سنة على الأقل سبقت مولد المسيح ، فكان بها جُلُّ كلامه عليه السلام .

= كالعهد الذى قطعته مع آبائهم يوم أمسكتهم بيدهم لأخرجهم من أرض مصر حين نقضوا عهدى فرفضتهم يقول الرب (٣٣) بل هذا هو العهد الذى أقطعه مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب). فمن هذه الفقرات أخذت كلمة العهد القديم والجديد،وساعد على رسوخ هذا الإطلاق ما فى الرسالة العبرانية: ٨ / ٧ - ١٣ وهذه آخر فقراتها : « فإذا قال جديداً عُتقَ الأول ». ومجموع العهدين هو الكتاب المقدس عند النصارى أو «البايبل» The bible .
(قاموس الكتاب المقدس ص ٦٤٤ -ميزان الحق ط٣ ص ٧٠ - الموسوعة الميسرة ص ١٢٤٥).

(١) ومثاله سفر «يشوع بن سيراخ » الذى ينكره اليهود وتعتبره الكنيسة الكاثوليكية ولاتعتبره الكنيسة القبطية الأرثوذكسية ويسمى كتاب «إيكليزيا ستيكس» .

ولكن أسفار « العهد الجديد » لم تكتب بالآرامية أو العبرية أو بمزيج من هذه وتلك ، وإنما الموجود منها بين يديك الآن مكتوب كله - عدا بضع كلمات آرامية أو عبرية - بلغة «يونانية» متأخرة ، تعرف باليونانية « الكنسية» لاصطناعها ألفاظاً وتراكيب لم تسمع فى اليونانية قبل عصر المسيح ، ومهما قيل من أن إنجيل « متى» وبعض رسائل الحواريين والآخذين عنهم كان لها أصل عبرانى ترجمت منه إلى تلك «الأصول» اليونانية التى بين يديك ، فهذا الأصل «العبرانى» مفقود ، لاسبيل لك إليه لتطابقها عليه ، ليس لديك من «العهد الجديد» سوى هذه الأصول اليونانية ، وترجمات منها مباشرة إلى مختلف اللغات ، والذى يجب أن تعرفه أيضاً أن النص العبرانى للتوراة مستنسخ من الذاكرة إثر عودة بنى إسرائيل من سبى بابل بعد حوالى ثمانية قرون من وفاة موسى عليه السلام ، ظل أيضاً نصاً غير معجم ، أى غير مقيد بالشكل والنقط ، يلحن فيه قارئه ، مثقفاً وغير مثقف ، لاسيما بعد تراجع العبرية على الألسنة وحلول الآرامية محلها فى ربوع فلسطين منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، وقد تصدى لتحقيق النص بالنقط والشكل والتعليق على صحة النطق ، فى مدى ثمانية قرون من القرن الثانى الميلادى إلى القرن العاشر طائفة يدعون « بعلى ماسورا» أى « أهل الأثر» ، حُفّاظ المأثور المتلقن .

ولك أن تتصور ماذا يمكن أن يحدث لنص أعيدت كتابته من الذاكرة بعد وفاة موسى عليه السلام بحوالى ثمانية قرون ، غير مضبوط بالشكل والنقط ، وظل كذلك إلى القرن الثانى لميلاد المسيح، واستغرق «تحقيقه» بالشكل والنقط والتعقيب ثمانية قرون أخرى فما اكتمل إلا فى القرن العاشر الميلادى .

هذا وذاك يقوى لديك شبهة وقوع الإضافة والحذف فى النص الذى بين يديك. أما الحذف ، فهذا مالا سبيل لك اليوم إلى إثباته . وأما الإضافة فإثباتها هين بين ، تحفظ المسيحيون من قبل على بعضها بالنسبة إلى أسفار برمتها سموها «أبوكريفا» أى المنحولة ، وتستطيع أنت التحفظ على كثير مما تَضَمَّنَه صلب أسفار موسى الخمسة نفسها من سفاسف وشناعات لايقبل ورودها فى نص إلهى مقدس، ليس أشنعها زنى ابنتى لوط بأبيهما ليكون له منهما « نسل» ، وهو يقوى

لديك أيضاً شبهة صرف النص فى بعض مواضعه - بمجرد النقط والشكل - عن أصل معناه .

وتستطيع أن تقول الشىء نفسه - أو قريباً منه - فى الأناجيل الأربعة المتداولة، التى لم يخطها عيسى عليه السلام بيده ، كما خط موسى عليه السلام بإزميله فى الألواح ، لولا أن أصحاب هذه الأناجيل لاينسبونها ابتداء إليه ، أى إلى عيسى عليه السلام : لم يملها عليهم ، ولم يراجعوها عليه ، وإنما هم ينسبونها إلى ذات أنفسهم ، كتبوها من الذاكرة أيضاً بعدما تمادت بهم السن ، أو كتبها آخذون عنهم لم يروا المسيح ولم يسمعوا منه ، وهؤلاء وأولئك لم يكتبوا مانطق به المسيح بلغته «الآرامية- العبرية» وإنما ترجموا ماوعوه إلى لغة ليسوا من أهلها (اليونانية) ، لاتستثنى «لوقا» الطبيب اليونانى ، لأنه بنى إنجيله على ماسمعه منهم مترجماً إلى اليونانية من قبل، وهذا يفسر لك بعض أخطائهم فى الترجمة، سواء فى ترجمة ما استشهدوا به من التوراة العبرية فى الأناجيل اليونانية.

ويضم العهد الجديد الذى يتبعد به المسيحيون قُبيل نزول القرآن وإلى اليوم سبعة وعشرين سفراً ، وهى إنجيل متى وإنجيل مرقس وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا ، وهى تحكى سيرة المسيح وأقواله وأفعاله ووصاياه منذ أن ولد حتى رفع ، فهى أشبه بالسيرة النبوية عند المسلمين . بالإضافة إلى ثلاثة وعشرين سفراً أخرى أولها «أعمال الرسل» أى أعمال الحواريين ومن دخلوا فى عدادهم بعد رفع المسيح ، وينسب هذا السفر إلى لوقا أيضاً صاحب الإنجيل الثالث المسمى باسمه ، تجىء بعد ذلك أربع عشرة رسالة تنسب إلى بولس [1] (وهو من غير الحواريين بل لم

---

(١) بولس الرسول : كان يهودياً ثم أسلم وهو مخادع وصار نصرانياً . أ هـ (وقصة إيمان بولس مذكورة فى سفر أعمال الرسل ٩ / ١٠ - ٣٠ ، و ٢٢ / ١ -١٦ ، ٢٦ / ١٢ - ١٨) واسمه العبرى شاؤول ، كان يهودياً فريسياً من سبط بنيامين ، ولد فى طرطوس بآسيا الصغرى ، وتعلم فى القدس ودرس الفلسفة اليونانية ، وكان كافراً بعيسى عليه السلام شديد التعصب ضد أتباعه مبغضاً لهم ، ويسلك مسالك عدة فى محاربتهم وإيذائهم وتعذيبهم ، لكنه لم يفلح فى ذلك ، فزعم أنه بينما كان سائراً إلى دمشق رأى نوراً أسقطه على الأرض، وظهر له المسيح ووبخه على معاداته لأتباعه ، فآمن شاؤول بألوهية المسيح الذى أرسله رسولاً إلى الناس ، فغير اسمه وتسمى بولس ، وبدأ بكتابة الرسائل الكثيرة إلى المدن يدعو الناس=

يشهد المسيح ولم يسمع منه) ، ثم رسالة تنسب إلى يعقوب الحوارى ، واثنتان منسوبتان إلى بطرس رئيس الحواريين ، وثلاث منسوبة إلى يوحنا الحوارى ، (التلميذ الذى كان المسيح يحبه وهو أصغر الحواريين سناً) ، وليس هو صاحب الإنجيل الرابع المسمى بهذا الاسم ، بل هو سَمِيٌّ له ، ثم رسالة منسوبة إلى يهوذا الحوارى (وهو غير يهوذا المتهم بخيانة المسيح) .

وأخيراً «رؤيا يوحنا اللاهوتى » ، وليس هو يوحنا الحوارى على التحقيق .

والأسفار الأربعة الأولى ، أعنى الأناجيل الأربعة ، هى المعنية بلفظة الإنجيل على الإجمال ، يكمل بعضها بعضاً وينقل بعضها عن بعض ، متساوية فى الحجية عند المسيحيين ، فلم تحفظ لك الكنيسة إنجيلاً آخر للمسيح غير هذه الأربعة .

ويقول مؤرخو المسيحية إن الأناجيل لم تكن فى الصدر الأول أربعة فقط ، وإنما كانت بالمئات ، نحو ثلاثمائة إنجيل ، يروى كُلٌّ ماشهد أو سمع ، أو ينقل عمن شهد أو سمع ، أو يقص مايحتجُّ به لمقولته فى المسيح . ولكن الكنيسة - بعد استقرار عقيدة التثليث فى القرن الرابع - استقبت من هذه الأناجيل أربعة

= للدين الجديد - مسيحية بولس التى تؤله عيسى وتحلل الحرام - وكان فى رسائله يمزج الوثنية الرومانية والفلسفة اليونانية بالعقائد الدينية الجديدة لتناسب ما ألفه الوثنيون فى الإمبراطورية الرومانية ، فلما رأى الروم يختتنون حرم الختان ، ولما رآهم يأكلون الخنزير وسائر المحرمات أباحها لهم ، ولما رآهم يقولون بتعدد الآلهة وبنوة أحدها لله قال بألوهية المسيح وبنوته لله ، وبهذا عمل على تقريب النصرانية من الوثنية الرومانية مع المزج بالفلسفة اليونانية ، فالروم لم يتنصروا ولكن النصارى تروَّموا ، ويعتقد كثيرون من مفكرى النصارى ومؤرخيهم أن بولس دخل النصرانية ليفسدها بدهائه ، سُجن بولس فى سجن رومية وأعدم ضرباً بالسيف خارج روما بثلاثة أميال سنة ٦٧ أو ٦٨م ، وجميع فرق النصارى يعدونه رسول الأمم العظيم والقديس الأول وأنه أول تلاميذ المسيح ورئيسهم ، وأنه رأس الكنيسة المنظور والباباوات خلفاؤه ، فهو وإن لم ير المسيح إطلاقاً لكنه عندهم حوارى باعتبار الصحبة الروحانية ، وهو نفسه يدّعى المساواة بأعظم الحواريين - بطرس - وعند البروتستانت لارجحان لبطرس عليه ، وترى جميع طوائف النصارى أن رسائل بولس مكتوبة بالإلهام ، وأن لها القداسة كما للإنجيل بل أزيد . (قاموس الكتاب المقدس ص ١٩٦ ، ودراسة الكتب المقدسة لموريس بوكاى ص ٧١ - ٧٣ ، والموسوعة العربية الميسرة ص ٤٤٠ ، وسوسنة سليمان فى أصول العقائد والأديان ص ١٥٤ ، ومعجم الأعلام الملحق بالمورد ص ٦٧ ، والمناظرة الكبرى ص ٢٣١ ، وتاريخ كنيسة المسيح على وجه الاختصار ص ٢٢ - ٢٣) .

فقط، هى تلك التى بين يديك الآن ، وحظرت ماعداها ، الذى طورد وأعدم لمخالفته بلاشك لمقولة الكنيسة فى المسيح .

والمشهور أن مكتبة الفاتيكان احتفظت فى خزائنها ببعض هذه الأناجيل المُنكرة، المحظور تداولها بين الناس ، ومن هذه الأناجيل المُنْكَرة عند الكنيسة الإنجيل المنسوب إلى برنابا [(١)] الحوارى كما يروى مكتشف هذا الإنجيل الذى أنكرته الكنيسة غداة ظهوره فى القرن الثامن عشر ، ورمته بالزيف والانتحال ، مكيدة كادها للكنيسة بعض خصومها وشانئيها ، وليس لك أن تأخذ على الكنيسة إنكارها إنجيل برنابا ، فهو يقول بمقالة القرآن فى المسيح .

ولسنا من القائلين بحجية إنجيل برنابا فى مواجهة الكنيسة ، إذ ليس لك حِجاجُ الكنيسة بما تنكره ، بل كُلاًّ يولى الله ماتولَّى . فحسبك هذه الأناجيل الأربعة التى بين يديك ، وفيها رغم كل شىء كل الكفاية .

وبعد ، فليس برنابا الحوارى إلا راوية بين رُواة ، كلهم كتب بغير لغة المسيح، لاتدرى عن أى أصل نقل ، ولاتدرى هل أخطأ فى الترجمة أم أصاب .

والذى يجب التنبيه إليه أيضاً أن هذه الأناجيل الأربعة لم يكتب أى منها بلغة المسيح العبرية - الآرامية ، وإنما كتبت كلها ابتداء بلغة يونانية متأخرة عرفت باليونانية الكنسية لاحتوائها ألفاظاً وتراكيب لم تُسمع من اليونان قبل عصر المسيح مثل : إيفنجليون Euaggelion يعنى الإنجيل ، وفارقليط Parakletos التى تترجم فى الأناجيل العربية بلفظة «المُعزِّى» ، وليس كذلك ، وإنما هى «أحمد» أو «محمد» ، ولايصح ماقيل من أنه قد كان لهذه الأناجيل اليونانية كلها أو بعضها أصلُ عبرانى نقلت عنه ، وبالذات إنجيل « متى» الذى كتبه كما يقال لليهود فى

(١) برنابا : أحد الحواريين الاثنى عشر ، وهو لاوى قبرصى الجنس ، ويظن أن اسمه يوسف ، ثم لأنه كان مجتهداً فى الوعظ ونشر الدين سمى (برنبا) : أى ابن الوعظ ، وكان زميلاً لبولس فى أثناء رحلاته ثم اختلف معه وفارقه ، ويظن أنه قتل فى قبرص ، وله إنجيل باسمه يشهد بوحدانية الله وبشرية المسيح ويبشر بمحمد ﷺ وبعض العلماء ينسب إليه الرسالة العبرانية ، كما تنسب إليه رسالة معنونة باسمه (رسالة برنبا) . (الموسوعة الميسرة ص ٣٥٤ ، وقاموس الكتاب المقدس ص ١٧٢) .

فلسطين ، ولكن هذا الأصل فُقِدَ . لايصح هذا القول ، ليس فقط لأنه لاعبرة بأصل مظنون قد فُقِدَ ، وإنما أولاً وبالأخص لأن مَتَّى بالذات ، بل ومرقس أيضاً الناقل عن بطرس ، ذكر فى إنجيليهما كما تعلم عبارات بلغة المسيح العبرية - الآرامية حَرَصاً كلاهما على ترجمتها إلى اليونانية ، ولوكانا يكتبان أصلاً بلغة المسيح لقارىء بلغة المسيح لما احتاجا إلى هذه الترجمة لأن قارئهما لايحتاجُ إليها.

ولعلك تعلم أيضاً أن أسفار «العهد القديم» ، أى أسفار التوراة ، قد كانت لها قبل عصر المسيح ترجمات إلى اليونانية أشهرُها قاطبةً الترجمة السبعينية [(١)] ، التى سبقت مولد المسيح بنحو ثلاثة قرون موجهة إلى يهود الإسكندرية ومتهوديها وإلى من «تأغرق» منهم فى غيرها ، الذين أنسُوا عبرية التوراة ، وقد تضمنت الترجمة بالطبع تحويل صورة العَلَم التوراتى من أصله العبرى - الآرامى إلى صورة يونانية ، جرت بالتأكيد على ألسنة «متأغرقى» اليهود لا فى أوربا فقط بل وفى مصر والشام أيضاً .

وتستطيع أن تقول - مصيباً غير مخطىء - أن كتبة الأناجيل اليونانية استفادوا من هذا الرسم اليونانى «الجاهز» فى الترجمة السبعينية فنسجوا على منواله فى

---

(١) الترجمة السبعينية : نسخة التوراة اليونانية (سبتوجنت) هى التى يقال لها (التوراة السبعينية) سميت بالسبعينية لأنه اشترك فى ترجمتها ٧٢ حَبْراً من يهود فلسطين وقيل أنها كتبت فى ٧٠، أو ٧٢ يوماً ، وهى ترجمة للعهد القديم من اللغة العبرانية إلى اللغة اليونانية الإسكندرانية وقد تمت فى الإسكندرية بمصر بناء على طلب بطليموس الثانى الملقب فيلادلفوس (٣٠٩-٢٤٦ق م) أو (٢٨٥-٢٤٧ق م) ويظن البعض أنها ترجمت فيما بين سنتى ٢٥٠-٢٠٠ ق م.

وهذه هى النسخة التى ترجمت إلى اللاتينية ، وترجع أهميتها إلى أنها نقلت عن نصوص فقدت فيما بعد ، وقد عوّل عليها اليهود الهلينستيون والنصارى الذين كانوا يتكلمون اللغة اليونانية، ولاتزال الكنيسة اليونانية وأتباعها وبعض الكنائس المشرقية يعوّلون عليها حتى اليوم، رغم أن مخطوطة الترجمة الأولى مفقودة ، ويعترف بها كذلك نصارى الكاثوليك والأرثوذكس ، وتشمل التوراة اليونانية (السبعينية) على ٤٦ سفراً أى أسفار موسى الخمسة + ٣٤ سفراً + أسفار الأبوكريفا التى يعتقد العبرانيون ونصارى البروتستانت أنها محرفة وغير قانونية وهذه هى النسخة التى كانت سائدة فى أيام المسيح وبقى الإجماع على صحتها منعقداً إلى ظهور البروتستانت فى القرن السادس عشر . (الموسوعة الميسرة ص ٩٥٩ ، وقاموس الكتاب المقدس ص ٧٦٨ و ٩٠٣ و ١١٢٩ ، وميزان الحق ط٣ ص ١٠٤-١٠٥) .

العهد الجديد ، وتستطيع أن تقول أيضاً أن كتبة الإنجيل حين اقتبسوا من التوراة نصوصاً يستشهدون بها فى العهد الجديد ، لم يرجعوا إلى أصل التوراة العبرانى ، وإنما رجعوا رأساً إلى تلك «السبعينية» يستقون منها ترجماتهم اليونانية لما أرادوا اقتباسه من التوراة ، وهذا يفسر لك سبباً من أسباب عدم تطابق بعض تلك الاقتباسات مع أصلها فى التوراة ، لأن فى «السبعينية» أخطاء استدركت بعد عصر المسيح بقرون .

ولأنك - مسيحياً كنت أو مسلماً - تُحيل على المسيح صلواتُ الله عليه أن يخطىء فى الاقتباس من التوراة فى عبارات نَسَبت الأناجيلُ اقتباسها إليه ، فليس أمامك إلا التسليم بأن كتبة الأناجيل اليونانية كتبوا ماكتبوه بوحى من ذاكرة تُسعِفُ وتخون ، أو رجعوا إلى الأصل العبرانى ولكنهم لم يحسنوا الفهم أو الترجمة ، أو تعجلوا فاستخدموا ترجمات يونانية جاهزة شاعت من قبل ، أو أنهم كتبوا لجمهور يونانى اللسان ، جادلوه بما يقرأ من ترجمات يونانية للتوراة فى السبعينية أو فى غيرها .

وربما اشتطت بك الغُلَوَاءُ فقلت إن كتبة الأناجيل اليونانية الأربعة أو معظمهم، وبالذات لوقا ويوحنا ، ماكانوا يتقنون العبرية شأنهم شأن يهود مصر والشام على عصر المسيح ، وماكانوا بالتالى يقرأون من توراة عبرية ، بل من ترجمات لها . هذا وذاك أبرأ لدينك أن تقول أصاب كتبة الأناجيل وأخطأ المسيح، معاذ الله .

ليس فى هذه الأناجيل الأربعة إنجيل منسوب إلى حوارى شهد وعاين ، إلا إنجيل متى وحده ، الأول فى ترتيب أسفار العهد الجديد ، إن قلت أنه « متى العشار » واسمه فى الأصل «لاوى » المعدود بين الاثنى عشر على ماتجده فى إنجيله (متى : ١٠ / ٣) أما كاتب الإنجيل الثانى ، مرقس ، فهو من تلاميذ بطرس الحوارى ، سمع منه ولم يشهد أو يعاين شأن التابع والصحابى عند أهل الإسلام، وأما الإنجيل الثالث ، لوقا ، فهو يُفصحُ لك فى مفتتح إنجيله عن أنه لم يشهد ولم يعاين : « إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة فى الأمور المتيقنة عندنا كما

سلمها إلينا الذين كانوا فى البدء معاينين وخداماً للكلمة ، رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقق ، أن أكتب إليك على التوالى أيها العزيز ثاوفيلُس [(١)] لتعرف صحة الكلام الذى عُلِّمت به » (لوقا : ١ / ١-٤) فهو يونانى يكتب إلى يونانى ، والمشهور أنه سمع من بولس الذى تَعْلَمُ بشهادته هو أنه لم يسمع ولم يعاين ، فلوقا إذن ناقلُ عن ناقل ، وأما الإنجيل الرابع ، يوحنا، فقد قالت الكنيسة إنه يوحنا الحوارى (التلميذ الذى كان المسيح يحبه) ، كتبه وقد أسنَّ قرب ختام المائة الأولى لميلاد المسيح ، سألوه فى كتابته ليرد على «بدع ظهرت» تجحدُ لاهوت المسيح ، أو تنكر أن قد كان للمسيح وجودُ قبل مريم أمه ، أو تلاميذ ليحيى بن زكريا يغالون به تلاميذ المسيح ، فاستجاب لهم وكتب هذا الإنجيل إثباتاً للاهوت المسيح خاصة .

وهذا يعنى أن قد كان قبل كتابة هذا الإنجيل مسيحيون ماتوا مؤمنين بالمسيح رسولاً نبياً ليس إلهاً أو ابن إله ، وقد أصرت الكنيسة على نسبة هذا الإنجيل إلى يوحنا الحوارى دعماً لشهادته التى تجهر بتأليه المسيح ، وليس هذا بصحيح ، لا لأنك شَهِدت الكاتب الذى كتب هذا الإنجيل ، وإنما ببساطة لأن الكاتب ينهى إنجيله بما تفهم منه صريحاً أنه ليس هو يوحنا الحوارى ، وإنما هو ناقل عن يوحنا: « هذا هو التلميذ (أى يوحنا) الذى شهد بهذا وكتب هذا ونعلم أن شهادته حق ، وأشياء أخرى كثيرة صنعها يسوع إن كتبت واحدة فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة » (يوحنا : ٢١ / ٢٤ - ٢٥) ، إنه يُؤمِّن على أستاذه لا أكثر ولا أقل ، لأن الضمير فى «نعلم» ، «لست أظن » قاطع الدلالة على المغايرة بين هذا المتكلم الشاهد ليوحنا وبين يوحنا المشهود له .

فى هذه الأناجيل الأربعة إذن عناصر ثلاثة تَحْتَرِزْ منها كل الاحتراز كى

---

(١) ثاوفيلُس : اسم شخص يونانى أو رومانى وجه إليه لوقا إنجيله وسفر الأعمال ، ولعله كان صاحب منصب كبير ، ولذلك خاطبه بصفة (العزيز) ، وهو تعبير لم يتبعه المسيحيون عادة مع بعضهم البعض ، وربما كان محامياً تدخل للدفاع عن بولس فى روما . (قاموس الكتاب المقدس ص ٢٣٣) .وفى سفر أعمال الرسل ١ / ١ «الكلام الأول أنشأته يا ثاوفيلُس عن جميع ما ابتدأ يسوع يفعله ويعلم به » .

لاتسىء فهم مانطق به المسيح الذى خاطب ربه فى القرآن بقوله : ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة : ١١٧] وهذه العناصر الثلاثة هى :

١ - عنصر الرواية : أعنى صدق الراوى فيما روى ، فلا تأخذُ إلا بما أجمع عليه الرواة الأربعة ، أو بما لايتناقض مع ما أجمع عليه الرواة الأربعة .

٢ - عنصر الترجمة : أعنى صحة الترجمة من لغة المسيح إلى لغة الأناجيل اليونانية ، فتفهم «الآب» بمعنى «الرب» كما قالها موسى عليه السلام ، وتفهم «الابن» بمعنى البار المبرور المتبرر أى «مختار الرب » لا ابن الرب .

٣ - عنصر الرأى : أى القول الذى زاده الكاتب من عنده يفسر برأيه شيئاً من قول المسيح وفعله .

تفعل هذا كمسلم يقرأ فى هذه الأناجيل ، أما الكنيسة فقد احتاطت لحُجِّية المكتوب فى هذه الأناجيل بالكلمة والحرف ، فقالت بأنه وحى الله على كاتبيه بذات اللغة التى كتبوا بها . تَنَزَّلَ عليهم به الروح القدس ثالث الثلاثة فى عقيدة التثليث ، يعنى جبريل صلوات الله عليه ، وقالت أيضاً أن ما اختلفوا فيه يكمل بعضه بعضاً ، كل إنجيل يقص ماوعى مما سمع .

أما حين يصعب التوفيق بين النقيض ونقيضه من مثل « ابن الإنسان» ، «ابن الله» ، وهى «بار أنشا» ، «بار - أبَّا»الآراميتين ، فعندئذ يقال لك : فى المسيح ناسوت ولاهوت ، أو «الكلمة صار جسداً وحل بيننا » أو يقال لك أخيراً « عظيم هو سر التقوى » يعنى أن هذا فوق العقل ، تؤمن به كما عُلِّمت . وتؤمن أيضاً بأن آباء الكنيسة الذين صاغوا لك « قانون الإيمان » القائل بأن الله ثالث ثلاثة ، وبأن الثلاثة واحد أحد ، إنما قالوا ماقالوه هم أيضاً بوحى من الروح القدس بعد رفع المسيح ، فهم معصمون بعصمة الله عز وجل من الوقوع فى الخطأ ، هنا يمتنع الجدل ويمتنع الحوار .

ومن طريف القول أن بعض كاتبيهم يذهبون كل مذهب لايخلو من تعسف ، يلتمسون به التفسير والتعليل لتسمية الثالوث بالآب والابن والروح القدس ، يقول القس إبراهيم إبراهيم فى كتابه التثليث والتوحيد : « إن الذات والد النطق ،فيقال

له الآب ، والنطق مولود من الآب فيقال له الابن ، والحياة منبثقة من الذات ، فيقال لها الروح القدس ، فالله الآب قائم بذاته ، ناطق بخاصية الابن الذى هو النطق ، حى بخاصية الحياة التى هى الروح القدس ، والله الابن قائم بخاصية الحياة التى هى الروح القدس ، والله الابن قائم بخاصية الذات الذى هو الآب ، ناطق بخاصيته هو ، حى بخاصية الحياة التى هى الروح القدس ، والله الروح القدس ، قائم بخاصية الذات الذى هو الآب ناطق بخاصية النطق الذى هو الابن، حى بخاصيته هو الذى هو الحياة ، هذا هو القول بالآب والابن والروح القدس الإله الواحد . . . » هذا هو شرحهم لعقيدة التثليث وعلاقة كل واحد من الثالوث بالآخرين ، وهو كما نرى كلام يستعصى على الفهم ويغوص بنا فى أعماق الميتافيزيقا ، ثم ينتهى إلى اللامعقول .

وقد قال نقاد أناجيل مسلمون أن الإنجيل المعنى فى القرآن ليس هو تلك الأناجيل الأربعة المعتمدة وحدها عند المسيحيين يوم نزول القرآن ، بل ثمة إنجيل آخر كتبه المسيح أو أملاه ولكن أتباع المسيح أضاعوه .

وليس على هذا القول دليل ، بل لديك من القرآن الدليلُ على عكسه ، أعنى أن القرآن ينظر إلى هذه الأناجيل الأربعة نفسها ، التى فيها من وحى الله ، وفيها من قول الرواة ، وأن الذى فيها من وحى الله على عيسى هو وحده المعنى بلفظة الإنجيل فى القرآن ، وماعداه ليس بإنجيل ، لقوله عز وجل فى هذا القرآن : ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة : ٤٧] ، وماكان الله ليعمى عليهم إنجيلاً غير الذى بين أيديهم ،ولكنه طلب إليهم أن يتحروا ما أنزل الله فيه ، وينبذوا مازاد الرواة .

فكيف تميز أنت كمسلم بين ماقاله الله عز وجل فى هذه الأناجيل الأربعة وبين مازاد فيه الرواة ؟ قد علمت أن الله عز وجل يخاطب الخلق على لسان أنبيائه، لا على لسان صحابة أو تابعين ، ولا على لسان حواريين أو رواة لحواريين، فالذى قاله الله عز وجل فى الأناجيل هو الذى نطق به المسيح نفسه مبلغاً عن ربه .

حيثـما وقعت فى الأناجيل على قول محـكى من المسيح أنه قال ، عليك أن تضعه بين قوسين ، أو تخط تحـته سطراً ودعك من الباقى ، فليس هو من المسيح نفـسه ضـربة لازب وإنما هو من قول الكاتب ، يـحتج به لمقـولته فى المسـيح ، لايُلزِمُك لأنه ليس من وحى الله على رسله.

خذ مثلاً تلك الديباجة الفخمة المُفَخَّمة التى افتتح بها يوحنا إنجيله ، المكتوب بعد رفع المسيح بما لايقل عن ستين سنة فى أقرب التقـديرات ، يحتجُّ بها لعقيدته فى لاهوت المسيح : « فى البدء كان الكلمة . كان عند الله ، وكان الكلمة الله . هذا كان عند الله . كل شىء به كـان ، وبغيره لم يكن شىء مما كان. فـيه كانت الحياة ، والحياة كانت نور الناس . والنور يضىء فى الظلمة ، والظلمة لم تدركه» (يوحنا : ١ / ١-٥) . ويمضى فيقول : « كان النور الحقيقى الذى ينير كل إنسان آتياً إلى العالم .كان فى العالم ، وكُوِّن العـالمُ به ولم يعرفه العالم . إلى خاصته جاء ، وخاصته لم تقبله . وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله ، أى المؤمنين باسمه . الذين لامن دمٍ ولا من مشيئة جسدٍ ولامن مشيئة رجل ولكن من الله ولدوا » (يوحنا : ١١ / ٩ - ١٣) .

هذا الكلام العويص [١] المبهم المُفَخّم الذى قاله يوحنا فى مـفتتح إنجيله - أيًّا كان رأيك فـيه - ليس من وحى الله على رسله ، لأن قائـله ليس المسيح ، وإنما القائل هاهنا هو يوحـنا الكاتب ، يستعلن بعـقيدته فى ألوهيـة المسيح ، وأن الله والمسيح واحد (وكان الكلمة الله) ، ناسياً أنـه سيقول بعد ذلك على لسان المسيح يناجى ربه : « أنت الإله الحـقيقى وحـدك » (يوحنا : ١٧ / ٣) [٢] ، فأتـأخذ بقول يوحنا وتترك قول المسيح ؟

---

(١) لايعتاص هذا الكلام علـى بسطاء مكفوفين - كما يقال لهم - بعُـلُوِهِ على مداركهم ، وهو كما يعلم دارسو الفلسفة ، مُـرَقعاتُ من فلسفات الإسكندرية وبالذات أفلوطين ، هذا يدُلك على أن الكاتب ليس حوارياً ، فقد مات الحواريون وتابعوهم قبل مولد أفلوطين .

(٢) هذا من نقائض يوحنا الكاتب . وقد قيل أن «لاهـوت المسيح» الذى فى إنجيل يوحنا منحول نَحلَهُ إياهُ نيقياويون يحتجون به لعقيدتهم . وهذا إن صح يفسر لك نقائضه .

أما وقد استصفيت أقوال المسيح فى هذه الأناجيل فخذ بأحسنها ، كالذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه ، معيارك فى ذلك ألا تترك محكم القول إلى متشابهه ، بل تُحكمُ المُحكمَ فى المتشابه فتقيده به ، لاتُحكّم المتشابه فى المُحكم وتفسر المُحكم بالمتشابه الذى يضطرك إلى قول المحال على الله عز وجل ، كالذى قيل فى مجمع نيقية وماتلاه من مجامع .

وليس عليك بعد ذلك حرج إن كنت مسلماً يقرأ فى هذه الأناجيل ، فقد وضح لك الطريق ، واستبان المنهج .

ماهو الإنجيل :

لقد جرى التقليد على تعريف الإنجيل بأنه : البشارة أو الأخبار السارة ، وفى أحوال كثيرة فإن هذا التعريف تلحق به تخريجات لغوية تحاول تأكيده كما فى الإنجليزية حيث نجد مايقال من أن كلمة : « الإنجيل = Gospel » وأنها تأتى من Good spell .

لكن حقيقة الأمر ليست على هذه الدرجة من البساطة ، فرغم أن التعريف السابق يعتبر هو الأكثر شيوعاً ، إلا أنه ليس التعريف الوحيد ، ذلك أن علماء المسيحية يحاولون حتى الآن تحديد ماهية الإنجيل ، باعتبارها شيئاً لايزال فى حاجة إلى تحديد .

وفى واحدة من هذه المحاولات ، نجد «جون فنتون» يقول فى مقدمة تفسيره لإنجيل متى : « إن أحد التعاريف الشائعة لكلمة الإنجيل أنه الشىء الذى يمكن تصديقه بثقة ، فإذا كان القارىء يقبل على إنجيل متى وهو يتوقع أن يجد فيه سرداً تاريخياً دقيقاً لحياة يسوع فلسوف يصاب بخيبة الأمل .

لهذا يجب أن نبدأ بتحديد ماهية الإنجيل حتى نفهم كيف نقرؤه ، ونعلم ما الذى نبحث عنه بين طياته لكن سرعان ماتواجهنا هذه الصعوبة ، وهى أننا لانجد وسيلة تعيننا على تحديد ماهية الإنجيل إلا من الأناجيل نفسها .

إن أياً من الكتاب الذين عاشوا فى الزمن الذى كتبت فيه الأناجيل لم يقدم لنا أى معلومات قد تعيننا على الإجابة على هذا السؤال : ماهو الإنجيل ؟

من أجل ذلك فإننا بحثنا فى طبيعة الإنجيل والغرض منه ، صار مقصوراً على دراسة الأناجيل ذاتهـا ، وبعد أن أجرى فنتون دراسته فإنه استطاع أن يحدد ماهو الإنجيل بقوله : « يبـدو أن كلمة إنجيل تعنى ترتيب المادة التى تتـحدث عن أقوال يسوع وأفـعاله بالطريقة الـتى تجعل المؤلف يعبـر خلال مؤلفـه كله عن معتـقدات محددة ألزم نفسه بها »[1] .

وعلى أية حال ، فإن واقع الأمر الذى نجده فـيما بين أيدينا من أناجيل يجعل الاتفاق ممـكناً - بل ولا مفـر منه - بأن الإنجيل يحـوى أخبار المسـيح ، رغم أن الأناجيل جميعاً قصرت على تحقـيق العناصر الرئيسية من هذه الأخبار مما دعا نفراً من العلماء إلى تقرير أن الأناجيل لم تكن سيرة للـمسيح أو مذكرات عن حياته ، أو حتى حوادث تستحق التدوين سطرها أشخـاص لتحكى تعاليمه ، إنما الأناجيل عبارة عن تجـميع لموضوعات متـواترة تتناقلها الكنيسة شـفاهة فى أول الأمر ، ثم كتبت فيما بعد وصنفت لتحقـيق مطالب الكنيسة فى التهذيب والعبادة والدفاع عن معتقداتها . وإن اسم المؤلف أو المصنف إما أنه قد أبقى عليه بمحض الصدفة ، أو أنه أضيف فيما بعد ، كما حدث فى القـرن الثاني عندما جمعت الأناجيل معاً ثم أريد التميز بينها بإضافة أسماء منفصلة لكل منها . فرغم أن عنوان المجموعة كلها كان الإنجيل - فقد حملت الكتب المختلفة منها عنواناً يقول : حسب رواية متى ، أو لوقا ، أو مرقس ، أو يوحنا[2] .

ويقول دنيس نينهام فى مقـدمة تفسيره لإنجيل مرقس : « إنها لحـقيقة تصدمنا أنهم (كتبة الأناجيل) لم يخبرونا بشىء عن هيئة يسـوع وبنيته الجسمية وصحته ، كما لم يخبرونا بشخصيته وعما إذا كـان - على سبيل المثال - سعيداً ، مبتهجاً ، رابط الجأش ، أم أنه كان على العكس من ذلك .

إنهم لم يفكروا حتى أن يخبرونا بطريقة قـاطعة عما إذا كان قد تزوج أم لا ، كذلك فـإنهم لم يعطونا معلومـات محددة عن طول فـترة دعوته ، أوعـمره حين

---

(١) تفسير إنجيل متى - جون فنتون - عميد كلية اللاهوت بليتشفيلد بإنجلترا ص ٩ - ١٧ .

(٢) الأناجيل أصلها وتـطورها ص ٢٦ - د/ فريدرك كلفتن جراند - أستاذ الـدراسات اللاهوتية فى الكتاب المقدس بمعهد اللاهوت الاتحادى بنيويورك .

توفى ، كما أنه لاتوجد أقل نبذة عن تأثيـر بيئته الأولى عليه أو عن أى تطور فى نظرته ومعتقداته ، لقد أمكن حـساب الفترة التى تلزم لإتمام الأحداث التى يرويها مرقس فوجد أنها لاتتعدى ثلاثة أو أربع أسابيع ، عدا الفقرة ١ : ١٣ التى تقول: « وكان هناك فى البرية أربعين يوماً يجرب من الشيطان » ، لقد دفعت هذه الحقيقة ستريتر أن يقرر فى كتـابه «الأناجيل الأربعة» ص٤٢٤ أن المجموع الكلى للأحداث التى سجلهـا الإنجيل صغيـر جداً لدرجة أن الثغـرات الموجودة فى الرواية لابد أن تكون هى الجزء الجدير بالاعتبار .

إن الحقيـقة التى نقرها - لأسباب لابـد أن تكون قد وضحت الآن - هى أن الأناجيل ليست قصة حيـاة يسوع ، ومن النادر أن تمدنا هذه الأناجيل بالأساسيات التى يستطيع بها الناس أن يكتبوا مثل هذه القصة .(١)

الحواريون وكتابة الأناجيل :

الحواريون هم أصحاب المسيح وخاصـته الذين اختارهم ليكونوا تلاميذه وبادروا إلى الإيمان به، وكانوا اثنى عشر رجلاً كما جاء فى إنجيل متى (١٠ / ٢-٤) وهم:

١ - سمعان : الذى يقال له (بطرس) .

٢ - أندراوس : أخو سِمعان (بطرس) .

٣ - يعقوب بن زبْدى ، ويقـال له يعقوب أخو الرب ، وهو الأخ الأكـبر ليوحنا الحوارىّ ، وأبوهما زبْدى ، ويُظن أن أمهما سالومة ، ويظن أنها أخت مريم أم عيسى .(٢)

٤ - يوحنا أخو يعقوب . ٥ - فيلُبس . ٦ - برثلماوس . ٧ - توما.

٨ - متى العشار جابى الضرائب . ٩ - يعقوب بن حلفى .

١٠ - لباوس : الملقب (تداوس) . ١١ - سِمعان القانونى .

١٢ - يهوذا الإسخريوطى المتهم بخيانة المسيح .

---

(١) تفسـير إنجـيل مرقس - دريس إريك نينهام - أسـتاذ اللاهوت بجـامعة لنـدن ورئيس تحرير سلسلة «بليكان» لتفسير الإنجيل .

(٢) قاموس الكتاب المقدس ص ١٠٧٥ .

ولاينقضى القول فى هذا المبحث قبل التصدى لتأصيل معنى لفظة الحواريين التى سَمَّى بها القرآن صحابة عيسى عليه السلام . وخلاصته قول المفسرين فى هذا - ولم يوفقوا فيه - هو اشتقاقها من «الحَوَر» على معنى البياض . (١) واخترعت فى تأييد هذا روايات لاسند لها فى المصادر المسيحية ، فقيل لبياض ثيابهم (وليس بلازم) وقيل كانوا «قصَّارين » صنعتهم تبيض الثياب (وليس بصحيح) وقيل كانوا صيادين (وهذا وإن صح لايوجب التزام الثياب البيض) ، وقيل على المجاز لبياض قلوبهم ، أى نقاء سريرتهم (ولايصح هذا فى حق يهوذا بالذات الذى وشى بالمسيح) . وقيل أيضاً أن الحوارى هو الصاحب الناصر ، لقوله ﷺ : «لكل نَبيٍ حَوارِيٌ وحَوارِيَّ الزُّبير !» (٢) وهذا الحديث وحده كافٍ فى امتناع تأصيل معنى الحوارى على «الحَوَر» بمعنى البياض ، بياض الثياب أو تبييض الثياب أو الاشتغال بصيد السمك ، فلم يكن الزبير بن العوام رضى الله عنه هذا أو ذاك ، ولا على المجاز من بياض القلب ونقاء السريرة ، لا لمغمز (معاذ الله) فى بياض قلب الزبير رضى الله عنه ونقاء سريرته وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وإنما لأنه واحد من كثير من صحابة رسول الله بيض القلوب أنقياء السريرة فلايصح أن ينفرد وحده بلفظ الحوارى على هذا المعنى ، ولايصح أيضاً انفراده وحده بالتسمية على معنى الصاحب والناصر وصحابة رسول الله رضى الله عنهم جميعاً كانوا كلهم هذا الصاحب الناصر ، فضلاً عن أن الصحبة والنصرة لامجال لاشتقاقهما من الحَوَر على معنى البياض .

والصحيح أن « الحوار» مشتقة من حار / يحور ، بمعنى رَجَع ، ومنه فى القرآن : ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الانشقاق : ١٤] ، أى ظن الكافر أنه ليس براجع إلى ربه ، وعلى هذا المعنى قيل لولد الناقة منذ ولادته إلى أن يُفْطم وينفصل : «حُوَار» بضم فَفَتْح ، لأنه يلازم أمه لحاجة الرضاع ، لايبعد عنها قدر رُمحٍ فى لهوه ومراحه حتى يثوب إليها ، أى «يحور » فهو «حُوار» . «الحوارى » إذن منسوب إلى هذا الحُوار» على المماثلة ، لأن صحابة عيسى عليه السلام كانوا فتية

---

(١) راجع تفسير القرطبى للآية ٥٢ من سورة آل عمران .

(٢) عن جابر (رضى الله عنه) البخارى (٣٧١٩) ، ومسلم (٢٤١٥) ، والترمذى .

أيفاعاً ، شأن الزبير رضى الله عنه يوم أسلم ، وكانوا يلازمون «مُعَلِّمِهُم » لايفارقونه ، يرتضعون منه نفحات علم النبوة .

أسباب تأخير الأناجيل :

لقد كتبت الأناجيل الأربعة على مدى فترة زمنية تقدر بأكثر من ٦٠ عاماً ، والأخطر من هذا أن أقدمها لم يكتب فى حياة المسيح ولاعقب رفعه مباشرة أو حتى بعد ذلك ببضع سنين ، لكنه كتب بعد ٣٥ عاماً مضت منذ رفع المسيح ، لهذا جاء العلماء فى البحث عن الأسباب التى أدت إلى تأخير كتابة هذه الأناجيل، وكانت خلاصة ما وصلوا إليه هو : « أن تأخير الكتابة لم يرجع إلى عامل واحد ، لكنه فى الواقع يُرد إلى عدة عوامل مجتمعة هى التى جعلت التأخير أمراً لامفر منه ، وهذه العوامل هى :

١ - نجد فى المقام الأول أن المسيحيين الأوائل لم يكونوا - أو حتى الغالبية العظمى منهم - طائفة مثقفة أو متعلمة ، لكن وضعهم نجده فى قول بولس: «ليس كثيرون حكماء حسب الجسد ، ليس كثيرون شرفاء ، بل اختار الله جهال العالم ليخزى الحكماء . . » (كورنثوس: ١ - ١٦) ، لقد كانوا الحقراء والسذج والفقراء ، ولاشك أن بعضاً منهم كانوا أميين ، وإن أقدم إنجيل - إنجيل مرقس - يرينا أى لغة إغريقية عامية خشنة كتبت بها هذا الإنجيل .

٢ - يضاف إلى هذا ، أنه بالنسبة للفترة الأولى من عملية التبشير بالإنجيل فى فلسطين ، فقد كانت العادة هى نقل التعاليم الدينية شفاهة .

ولقد كان هناك معلمون كثيرون للعقائد الدينية فى العالم الإغريقى الرومانى، وهؤلاء لم تنقل تعاليمهم ألبتة فى شكل مكتوب ، بل بالإسلوب الشفاهى ، وبناء على ذلك فإن مابقى منها فى آخر الأمر لم يزد عن فكرة باهتة لوجهة النظر العامة التى تقول بها تلك العقائد ، بالإضافة إلى بعض الأقوال المبعثرة التى غالباً ماتكون غير المتن الأصلى ، وبذلك يصعب تفسيرها .

٣ - والعامل الثالث كان ثمن التكاليف والمواد اللازمة للكتابة ، إن ذلك قد لايكون عائقاً للشخص العادى ، لكنه ولاشك يعتبر عائقاً بالنسبة للمعدمين الذين كانوا يمثلون الأكثرية الساحقة من المسيحيين الأوائل .

٤ - وثمة عامل آخر كان له أثره الفعال في عملية إنتاج روايات مكتوبة عن حياة المسيح وتعاليمه ، ألا وهى تفشى فكرة المجىء الثانى ، أى عودة المسيح ثانية إلى الأرض فى مجده .

٥ - وأخيراً فقد كانت هناك الصعوبة فى جمع البيانات والمعلومات اللازمة للكتابة، إذا يحق لنا أن نسأل : كيف يجد المسيحى العادى فى الفترة المبكرة من حياة الكنيسة التى اتسمت بالاضطهاد والاضطراب من الوقت مايمكنه من جمع المعلومات عن حياة المسيح ؟

بيد أنه بمرور الوقت ظهرت الحاجة إلى السجلات المكتوبة ، وذلك بعد موت أولئك الذين كانوا معاينين وخداماً للكلمة (كما يقول لوقا) ، وبعد أن انتشرت الكنيسة خارج حدود فلسطين ، بل قد حدث فى داخل فلسطين ذاتها أن تشتت الكنيسة أكثر من مرة نتيجة للاضطهاد الذى لاقته .

ولقد كان الاضطهاد اليهودى للمسيحيين شديداً ، ثم مالبث هؤلاء أن تعرضوا للمذابح على أيدى حكام روما ، وسواء كانت السيد الخفية وراء ذلك الاضطهاد الرومانى هى يد اليهود - كما هو شائع عما حدث فى روما تحت حكم نيرون أم لم تكن ، فالذى يعنينا هو أن تلك السنوات الأولى الهامة والحاسمة فى تشكيل العقيدة المسيحية قد اتسمت من قبل السلطات المسئولة - سواء كانت دينية يهودية أو دنيوية رومانية - باضطهاد دموى ومطاردات وتشريد ، وهو الأمر الذى ساعد على صد الطائفة -المسيحية - الجديدة عن الاهتمام بالكتابة وأعاقها عن التسجيل ، فاكتفت بمعتقداتها فى المجىء الثانى ، وقعدت تنتظر الخلاص الوشيك.

ولكن عندما أوشك الجيل الأول الذى عاصر المسيحيين على الانقراض وتباعد الأمل فى تحقيق المجىء الثانى ، ظهرت الحاجة الماسة إلى تدوين الذكريات ، وكان هذا العمل من نصيب الجيل الثانى فى المسيحية ، وهكذا بدأت كتابة الأناجيل بعد عشرات السنين من رحيل صاحب الدعوة ، وقتل وتشريد أغلب تلاميذه ومريديه وسط أجواء تغلفها الكآبة ويسودها الاضطراب .

كتابة الأناجيل :

إن الباحث فى الأديان يجد أن الكتاب المقدس عند جميع الطوائف والكنائس المسيحية يشتمل على أربعة أناجيل وهى إنجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا ، وحقيقة فنحن نصادف أقوالاً إلهامية عديدة منسوبة إلى عيسى عليه السلام فى هذه الأناجيل.

ونحن نلاحظ أن عدداً كبيراً من الباحثين النصارى وخاصة من بين الأوربيين قد توسعوا في الدراسة النقدية لهذه الأناجيل لمعرفة الصحيح من الدخيل المدسوس فيها ، وهم يقررون أن هذه الأناجيل قد ألفت لمعرفة الصحيح من الدخيل المدسوس فيها ، وهم يقررون أن هذه الأناجيل قد ألفت بعدما يقرب من أربعين وثمانين عاماً من رحيل عيسى عليه السلام ، وعلى أساس من بعض الوثائق القديمة والتى هى مفقودة الآن .

ونجد العلماء المختصين بدراسة التوراة يثبتون بعض المصادر القديمة على أنها أساس وأصل لهذه الأناجيل المعترف بها لدى الكنائس بما يلى :

١ - Q وهو مصدر ألمانى مفقود الآن ، وقد كتب أصلاً باللغة الآرامية ، ووصل هذا المصدر إلى كتاب الأناجيل بترجمة يونانية .

٢ - Urmarcus وهو مسودة أولية لإنجيل مرقس ، وهو مكتوب على أساس من خطب Peter بطرس عن عيسى عليه السلام .

٣ - L وهو مجموعة من التقارير عن عيسى عليه السلام مستعملة فقط عن طريق لوقا.

ويقرر كثير من الباحثين النصارى من الغربيين أن المقارنة بين هذه الأناجيل الأربعة تظهر لنا أن مؤلفيها قد استخدموا تلك الوثائق بحرية واسعة ، حتى أنهم لم يترددوا لحظة فى تغيير أشياء معينة فى تلك الوثائق لكى تتلائم مع هدفهم الخاص .

ومن كتب العهد الجديد كتب جاوزت السبعين منسوبة إلى عيسى ومريم والحواريين وتابعيهم ، والمسيحيون الآن يدّعون أن كلاً من هذه الكتب من الأكاذيب المصنوعة .(١)

---

(١) مثل (إنجيل ميلاد مريم وطفولية المسيح) ، ومنه نسخة مطبوعة سنة ١٨٣٢ م ومحفوظة فى المكتبة الوطنية بباريس ، (وإنجيل توما الإسرائيل) ، وجده العلامة كوتليبه ، وتوجد منه=

إنجيل مرقس Mark :

وهو أول إنجيل كُتب ، وقد كتب فى روما بعدما زعم بصلب عيسى عليه السلام بأربعين عاماً على الأقل ، وهذا الإنجيل كما هو بين أيدينا الآن إنما هو رواية موسعة للمصدر المعروف Urmarcus والذى قال عنه الكاتب المسيحى القديم بابياس : « فى الواقع أن مرقس الذى كان ترجماناً لبطرس ، قد كتب بالقدر الكافى من الدقة التى سمحت بها ذاكرته ماقيل عن أعمال يسوع وأقواله ، ولكن دون مراعاة للنظام ، وقد حدث ذلك ، لأن مرقس لم يكن قد سمع يسوع ولا كان تابعاً شخصياً له ، لكنه فى مرحلة متأخرة كما قلت أنا بابياس من قبل ، قد تبع بطرس الذى اعتاد التوفيق بين تعاليم المسيح والمطالب » .

ولقد كتب هذا الإنجيل بعد استشهاد بطرس (سنة ٦٥ للميلاد) فى وقت - مع العلم بأن مرقس نفسه لم يكن تلميذاً لعيسى - لم يكن فيه مرقس على اتصال شخصى بأحد تلاميذ عيسى ، الذى عن طريق معرفتهم يمكنه (أى مرقس) أن يمحص روايته .

ولمعرفة حقيقة مرقس ، نجد نينهام يقول : « لم يوجد أحد بهذا الاسم عرف أنه كان على صلة وثيقة وعلاقة خاصة بيسوع ، أو كان له شهرة خاصة فى الكنيسة الأولى . .

= نسختان متخالفتان ، واحدة فى باريس وواحدة فى مكتبة فيينا ، (وإنجيل جاك الأصغر) ، وجده غليوم بوستل وطبعه فى بال بسويسرا سنة ١٥٥٢م ، ثم طُبع فى سترا سبورج بألمانيا سنة ١٥٧٠م ، ثم جاء العلامة نياندر فطبعه بصورة تخالف ماعند غليوم ، (وإنجيل نيكوديم) أى نيقوديموس ، وكان مقبولاً ومنتشراً فى أرجاء أوروبا إلى القرن الخامس عشر ، وطبع فى إنجلترا سبع طبعات فى ٢٥ سنة مابين عامى ١٥٠٧-١٥٣٢م ، وترجم للإيطالية والألمانية مراراً ، (وإنجيل الطفولية) ويعتبر الإنجيل الخامس ، وهو إنجيل منسوب لبطرس الحوارى ومكتوب باليونانية ، ووجد هنرى سيك فى القرن السابع عشر نسخة عربية منه طبعها ونشرها فى أوربا ، (وإنجيل مارسيون) الذى تأخذ به الطائفة المارسونية ، وهو قريب الشبه بإنجيل لوقا، (وإنجيل برنابا) الذى وجد فى القرن الثامن فى مكتبة أحد أمراء أوروبا وترجم للإنجليزية والعربية ، وطبع بهما مراراً ، وهو موافق للقرآن الكريم فى النص على وحدانية الله وعدم صلب المسيح ، وأنه نبى مبشر بمحمد ﷺ ، (وإنجيل يعقوب) ويظن أنه كتب فى القرن الثانى ، (وإنجيل الأبيونيين) ، (وإنجيل المصريين) ، (وإنجيل العبرانيين) ، (وإنجيل الناسيين) ، وغيرها كثير . (قاموس الكتاب المقدس ص ١٢٢ ، ودائرة وجدى ١ / ٦٥٥) .

ومن ذلك يتضح أن أحداً لايعرف بالضبط من هو مرقس كاتب الإنجيل ، وإن كان الرأى الشائع أنه كان من تلاميذ بطرس وتابعيه .

وإذا كان الرأى الشائع كذلك أن مرقس كاتب الإنجيل كان هو مبشر الإسكندرية وأول أسقف لكنيستها ، فإن بعض العلماء يعتبر هذا الرأى من المأثورات العجيبة ، تماماً مثل الاستدلال الخاطىء الذى توصل إليه أوغسطين من أن : مرقس كان واحداً من الذين تبعوا متى ، واختصروا إنجيله .[1]

كذلك فإن أحداً لايعرف بالضبط من أين جاء هذا الإنجيل ، فالبعض يقول : أنطاكية أو مصر أو روما - لكن الرأى الشائع أنه جاء من روما .

ويثير هذا الإنجيل كغيره من الأناجيل عدداً من المشاكل ، من أخطرها ولاشك، مشكلة الاختلافات التى تظهر فى النسخ المختلفة للإنجيل الواحد وذلك بالإضافة إلى اختلافه مع غيره من الأناجيل .

يقول نينهام : « سوف يتحقق القراء من أن الإنجيل قد كتب أولاً باليد ، واستمرت هذه الطريقة اليدوية تستخدم لقرون طويلة فى انتاج نسخ منه .

ولقد زحفت تغييرات تعذر اجتنابها وهذه حدثت بقصد أو بدون قصد ، من بين مئات المخطوطات لإنجيل مرقس ، والتى عاشت إلى الآن ، فاننا لانجد أى نسختين تتفقان تماماً .

وثمة مشكلة أخرى هامة ، ألا وهى خاتمة الإنجيل ، وذلك أن هذا الإنجيل كغيره من الأناجيل وخاصة إنجيل متى ، غير متفق عليها فى النسخ المختلفة ، إذ أن الإصحاح السادس عشر - وهو الأخير - من إنجيل مرقس يحتوى على ٢٠ عدداً ، لكن الأعداد من رقم ٩ إلى رقم ٢٠ - وهى آخر الإنجيل تعتبر فى نظر بعض المراجع الهامة مثل النسخة القياسية المراجعة من العهد الجديد كأنها فقرات غير موثوق منها .[2]

---

(١) الأناجيل أصلها وتطورها -د/ فريدرك كفلتن جرانت - أستاذ الدراسات اللاهوتية فى الكتاب المقدس بمعهد اللاهوت الاتحادى بنيويورك . ص٧٤ .

(٢) تفسير إنجيل مرقس - دنيس إريك نينهام - أستاذ اللاهوت بجامعة لندن ورئيس تحرير سلسلة «بليكان» لتفسير الإنجيل ص ١١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ .

فمما سبق يتبين بوضوح أن أحداً من الناس لايدرى حقيقة الخاتمة التى انتهى بها إنجيل مرقس ، وأن الغموض الذى يحيط بالخاتمة لايختلف كثيراً عن الغموض الذى يكتنف شخصية مرقس الذى التصق اسمه بهذا الإنجيل .

إنجيل متى Mattew :

هو الإنجيل الأول فى ترتيب الأناجيل ولكنه الثانى كتابةً ، فقد كتب باللغة اليونانية فى مدينة أنطاكية حوالى ٩٠ بعد الميلاد ، ويقرر الباحثون من النصارى الغربيين أن مؤلف هذا الكتاب قد استفاد على الأقل من مصدرين وهما : Q و Urmarcus ، كما أنه يقررون أنه لايوجد عالم مستقل فى تفكيره يعتبر هذا الإنجيل عملاً لمتى تلميذ عيسى عليه السلام ، ويقررون أنه إذا كان متى قد ألف شيئاً ، فإنه ألف فقط ذلك المصدر وهو Q ، فيما يتعلق بالحرية التى أعطاها لنفسه ذلك المؤلف المجهول لهذا المصدر ، فى تلاعبه بالمادة الأصلية .

ومتى يهودى ولاشك ، وهو يختلف عن مرقس الذى لايفهم اليهود ولايتعاطف معهم إلا قليلاً ، كما أنه يختلف عن لوقا الذى يفهم اليهود جيداً ، ويعرف حسن إيمانهم وقوته .

وأما بالنسبة لتاريخ كتابة هذا الإنجيل فيمكن القول أنه « كتب فى حوالى الفترة من ٨٥ إلى ١٠٥م ، وعن أية حال فيمكن القول بأنه كتب فى الربع الأخير من القرن الأول أو فى السنوات الأولى من القرن الثانى . [١] وفيما يتعلق بمكان تأليف إنجيل متى « فإن شواهد قوية تشير إلى أنطاكية باعتبارها موطنه الأصلى . ولما كان من الصعب ربط الإنجيل بمدينة محددة مثل أنطاكية فمن المناسب إذن أن نقول بأنه يأتى من مكان فى المنطقة المحيطة بها ، أو أى مكان ما يقع فى شمال فلسطين » . [٢] ويوجد فى هذا الإنجيل عدد من المشاكل الخطيرة يمكن تحديدها فى ثلاث نقاط رئيسية هى :

---

(١) تفسير إنجيل متى - چون فنتون - عميد كلية اللاهوت بليتشفليد بإنجلترا ص ١١ .
(٢) الأناجيل أصلها وتطورها - د/ فريدرك كلفتن جرانت ص ١٤٠ .

١ - خطأ الاستشهاد بنبؤات العهد القديم .

٢ - توقع نهاية العالم سريعاً : فهـو قد توقع أن تأتى نهاية العالم فى أيام المسيح قبل أن يكون رسله قد اكملوا التبشير بالإنجيل فى مدن إسرائيل .

٣ - ثم تأتى خاتمة إنجيل متى التى شك فيها العلماء ويعتبرونها دخيلة عليه ، فهى تنسب للمسيح قوله لتلاميذه : « اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس » (متى : ٢٨ / ١٩) . ويرجع السبب فى ذلك الشك كما يقول أدولف هرنك إلى الآتى :

١ - لم يرد إلا فى الأطوار المتأخرة من التعاليم المسـيحية مايتكلم عن المسيح وهو يلقى مواعـظ ويعطى تعليمـات بعد أن أقيم من الأمـوات وأن بولس لايعلم شيئاً عن هذا .

٢ - إن صيغة التـثليث هذه (التى تتكلم عن الآب والابن والروح القدس) غريب ذكرها على لسان المسيح ، ولم يكن لها نفوذ فى عصر الرسل ، وهو الشىء الذى كانت تبقى جديرة به - لو أنها صدرت عن المسيح شخصياً .[1]

وبعد - لقد كـان من تلاميذ المسيح الاثنى عشر جـابى ضرائب يدعى متى ، وإليه نسب هذا الإنجيل الذى اعتبر نسخة مطولة من إنجيل مرقس .

ويرجع كتابة هذا الإنجيل فى الفـترة من ٨٥ إلى ١٠٥ م أى بعد أكثر من ٥٠ عاماً بعد رفع المسيح - ولعله كتب فى أنطاكية أو قريباً منها .

إنجيل لوقا luke :

يؤكد الباحثون أنه كتب فى مكان ما من بلاد اليونان حوالى عام ٨٠ ميلادية، تلبية لطلب موظف مـرموق هو ثاوفيلُس ، ومن المحتمل أنه كان موظفـاً كبيراً فى الإمبـراطورية الرومانية ، كـما يقرر الباحـثون أن هذا الإنجيل فى جـملته خطاب اعتذارى موجه إلى غير اليهود ، وأن لوقـا كان صديقاً ورفيق سفر للقديس بولس

---

(١) تاريخ العقيـدة - د/ أدولف هرنك - أستاذ تاريخ الكنيسة بجـامعة برلين ويعتبر واحـداً من أكبر العلماء فى التاريخ الكنسى - له أبحاث ومؤلفات عديدة من أهمها هذا الكتاب الذى يقع فى سبعة أجزاء - وقد ظهرت طبعته الثالثة الألمانية عام ١٨٩٣م ثم نقل عنها إلى الإنجليزية عام ١٩٠٠م .

الذى أدخل تعاليم كثيرة إلى النصرانية .

وقد كتب الأستاذ كيليت يقول : « إن لوقا كاتب يونانى وهو يكتب كمؤرخ يونانى يوجب الحذر منه ، إذ أنه فى بعض الحالات يضع كلاماً من عنده على لسان أبطاله والقصة الجميلة تبدو حقيقية عنده بسبب أنها جميلة . . والقصة كلها عبارة عن أسطورة مشهورة أخذت وكتبت من جديد بجاذبية خلابة عن طريق رجل له مواهب هيروديتية» .(١)

ويبدأ لوقا إنجيله بمقدمه هامة ألقت كثيراً من الضوء على ماكان يحدث فى صدر المسيحية وخاصة فيما يتعلق بتأليف الأناجيل ، ويتضح من هذه المقدمة جملة أمور لابد من التسليم بها وهى :

١ - أن لوقا يكتب رسالة شخصية إلى ثاوفيلُس ، وأن هذه الرسالة تكتب على التوالى حسبما تتوفر لها إمكانيات الكتابة من وقت ومعلومات .

٢ - وأن لوقا قام بهذا العمل بدافع شخصى بحت بغية أن تصل المعلومات التى عُلّم بها إلى ثاوفيلُس ، ولم يدّع الرجل فى رسالته أنه كتبها بإلهام أو مسوقاً من الروح القدس، أو أنه كتبها لأنها الحق المقدس، بل إنه يقرر صراحة أن معلوماته جاءت نتيجة لاجتهاده الشخصى لأنه قد تتبع كل شيء من الأول بتدقيق .

٣ - كذلك يقرر لوقا أن كثيرين قد أخذوا فى تأليف أناجيل .

٤ - وأخيراً يعترف لوقا بأنه لم ير المسيح ولم يكن من تلاميذه ، لكنه كتب رسالته عن المسيح إلى ثاوفيلُس بناء على المعلومات التى تسلمها من الذى عاينوا المسيح وكانوا فى خدمته .

ولقد حاول العلماء معرفة ثاوفيلُس - ذلك الذى وجه إليه لوقا رسائله ، لكن جهودهم فى هذا السبيل لم تصل إلى نتيجة محققة ، ولم يتعد الأمر تقديم بعض الفروض والتخمينات حول شخصية ثاوفيلُس ، تماماً مثل شخصية لوقا نفسه .

ورغم أن الموضوع لايتعدى مجرد احتمالات غير مؤكدة ، فليس من المتعذر أن يكون مؤلف إنجيل لوقا قد جمع مادته فى فلسطين أو سوريا مبكراً فى الفترة

(1) E.E. Kellett . Ashort History of Religlons , pelican Books P. 173 .

مابين ٧٠ - ٨٠ ميلادية إن لم يكن قبل ذلـك ، ثم ربطه بالجزء الأكبر من إنجيل مرقس فى وقت ما من السبعينات ، ثم أصدر إنجيله حوالى عام ٨٠ أو ٨٥م ، وبعد ذلك بحوالى خمس سنوات فإنه ذيل كتابه الأصلى برسالة ثانية نعرفها الآن باسم أعمال الرسل ، لكى ترد على أسئلة المثقفين وربما كبار موظفى الرومان مثل ثاوفيلُس ثم نشر مصنفه فى حوالى ٩٥ ميلادية .(١)

ويعانى نص إنجيل لوقا من التغييرات التى تعانى منها الكتب الأخرى للعهد الجديد ، إلا أن النص الغربى للإنجيل وسفر أعمال الرسل يعانى من اختلافات كثيرة ومثيرة - بالحذف أو الإضافة - عما فى النصوص الأخرى لذات الإنجيل مثل النص السكندرى والبيزنطى .(٢)

كذلك لاحظ العلماء أن إنجيل لوقا يحتوى على ١١ فقرة ذكرها لوقا مرتين فى موضعين مختلفين من الإنجيل (ولعشرة منها نظيرها فى مرقس) .

ثم هناك المشكلة الحادة التى نتجت عن تسلسل نسب المسيح كما ذكره لوقا ، إذ أنه يختلف عما ذكرته أسفار العهد القديم عن نسب أجداد المسيح ، كما أنه يختلف عن نظيره فى إنجيل متى .

إنجيل يوحنا John :

يقرر الباحثون الغربيون أن إنجيل يوحنا قد كتب فى أوقريباً من أفسُس مابين ١١٠ و ١١٥ للميلاد بواسطة كاتب مجهول ، كانت له ميول معادية للسامية ، إذ أنه قدم اليهود على أنهم أعداء للمسيح عليه السلام ، كما يقررون أيضاً أنه لايوجد عالم مستقل فى تفكيره يعتبر هذا الإنجيل عملاً ليوحنا الزبدى الذى قطعت رقبته عن طريق أجريبا الأول فى عام ٤٤م ، أى بزمن طويل قبل أن يكتب الإنجيل الرابع ، ونجد العلماء الإنجيليين لايتساءلون فقط عن القيمة التاريخية لهذا الإنجيل ، بل أنهم بالإضافة إلى ذلك يرفضون صدق الكلمات الموضوعة عن طريقه على لسان عيسى عليه السلام .

---

(١) الأناجيل أصلها وتطورها ص ١٢١ - ١٢٨ .

(٢) الأناجيل أصلها وتطورها ص ١٨٣ - ١٨٨ .

ويرى العلماء أن إنجيل يوحنا يعتبر تقديماً دراميا لحياة يسوع ورسالته وموته وتمجيده ، وأنه كتب بغرض التعلم والعبادة فى الكنائس ، وكذلك للتبشير والدعاية خارج الكنيسة .

وتقول دائرة المعارف الأمريكية : « إن إنجيل يوحنا الذى انتسب صواباً أو خطأ إلى التلميذ الذى كان يسوع يحبه ، يعتبر الإنجيل المحبوب للكثيرين ، بيد أن العلماء يجادلون فيه باعتباره جزءاً من مشكلة يوحنا ، ولهذا الجدل أسباب قوية منها ، ذلك التضارب الصارخ بينه وبين الأناجيل الثلاثة المتشابهة . . فهذه الأخيرة تسير حسب رواية مرقس للتسلسل التاريخيى للأحداث ، فتجعل منطقة الجليل هى المحل الرئيسى لرسالة يسوع ، بينما يقرر إنجيل يوحنا أن ولاية اليهودية كانت المركز الرئيسى .

إن مشكلة إنجيل يوحنا الذى ينتسب إلى أحد تلاميذ المسيح ، والذى لايعلم بالضبط موضع كتابته وتوقيتها - تتركز أساساً على اختلافه مع بقية الأناجيل ، ذلك الاختلاف البين فى الواقع والتعاليم .

وأخيراً - قد كتبت تلك الأناجيل التى تعكس تماماً التصور للحاجات العملية للمجتمع الذى كتبت من أجله ، وقد استخدمت فى هذه الأناجيل المادة التى تعتمد على النقل ، ولكن لم يكن هناك تردد فى تغييرها أو إجراء إضافات إليها أو حذف مالا يتناسب مع غرض الكاتب .

يبقى لنا شيئاً وهو معنى لفظة إنجيل ، فلقد وردت لفظة «الإنجيل» فى القرآن اثنتى عشرة مرة ، هى : ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ [آل عمران : ٣] ، ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ [آل عمران : ٤٨] ، ﴿وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران : ٦٥] ، ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة : ٤٦]، ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة : ٤٧] ، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ [المائدة : ٦٦] ، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ [المائدة : ٦٨]، ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾[المائدة: ١١٠] ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ [التوبة : ١١١] ،

﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح : ٢٩] ، ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ﴾ [الحديد : ٢٧] .

وأول ماتستظهره من هذه الآيات أن الإنجيل كتاب مُنَزَّل شأنه شأن التوراة والقرآن ، ليس مجرد بشارة أو رسالة ، لاتصح فيه معانى « إنجليون» اليونانية إن حسبتها يونانية ، وإنما المعنى أنها مكتوبة عند ربك فى اللوح المحفوظ ، يتنزل بها ملائكة الله على عباده الذين اصطفى .

ثانى ماتستظهره من هذه الآيات أن « الإنجيل» نُزل على ذات القوم الذين أنزلت فيهم التوراة من قبل ، قلما يجىء إلا على الإلصاق بالتوراة قبله أو على التجاور مع هذه التوراة التى أنزل الله على موسى مقصوداً بها بنو إسرائيل ، فهو «مُلحَقٌ» على الأصل ، تكملة لوحى الله على بنى إسرائيل ، وقد قالها المسيح بالنص فى هذه الأناجيل : «ماجئت لأهدم الناموس والأنبياء ، وإنما جئت لأكمل» فلايصح أن يقال أن الإنجيل ناسخ للتوراة ، وإنما هو وهى واحد ، وإنما الإنجيل جلاء وتبيين ، على أن المسيح عليه السلام جاء رحمة لليهود ، يخفف عنهم بعض الذى شدد الله عليهم ، ريثما يجىءُ الرسول الخاتم ، الرحمة المهداة للخلق أجمعين ، فهو من هذا الوجه «مُوَطِّىء» لخاتم النبيين .

وثالث ماتستظهره من هذه الآيات أن الإنجيل الذى فيه هدى ونور ، فيه أيضاً شريعة أحكام ، لقوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧]، وفى هذا لفتة بليغة إلى خطر الاعتداد بغير مافى الأناجيل من وحيه عز وجل ، فلا عبرة بقول يقال من بعد رفع المسيح ، كالذى قيل بإسقاط الختان واستحلال الخنزير ، فلا وحى يتنزل على تلاميذ .

أما معنى لفظة إنجيل التى وردت فى القرآن ، فقد قال المفسرون أنها عربية من «النَّجْل » بمعنى الأصل [١] ، فالإنجيل على هذا القول أصل لعلوم وأحكام ، وقيل هو من نَجَلتُ الشىء إذ استخرجته ، فالإنجيل مستخرج به علوم وحكم ،

(١) راجع تفسير القرطبى للآية ٣ من سورة آل عمران .

فقد استخرج الله به دارساً من الحق عافياً ، وقيل من التناجل بمعنى التنازع ، لتنازع الناس فيه ، وليس هذا كله بشىء .

فبماذا فَسَّرَ القرآن الإنجيل ؟

فسره بأدق مرادف وأبينه : إنه « البينات» ، أى «الجليات الواضحات » ، وليس أقرب من هذا إلى العبرانية «جليون» الجلى المجلو . جاء بها القرآن بلفظ الجمع لإفادة إنزال الإنجيل على المسيح تباعاً ، شأن القرآن ، لاشأن التوراة المنزلة على موسى دفعة واحدة فى الألواح .

لم يفسر الإنجيل فى القرآن بالترادف على التجاور ، وإنما رفع القرآن لفظة إنجيل من الآية ووضع فى موضعها «البينات» وكأن البينات من أسمائه وهذا أبلغ التفسير فى القرآن بالمرادف .

قال عز وجل يُجانس البينات على إنجيل : **﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾** [البقرة : ٨٧] ، ومثلها بذات نصها فى نفس السورة برقم ٢٥٣ وأما الحاسمة القاطعة فى أن الإنجيل هو المعنى بلفظ البينات فقوله عز وجل: **﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾** [الزخرف : ٦٣] ، يصف فيها عيسى البينات التى جاء بها بأنها الحكمة وبيان الذى اختلفوا فيه ، لايصح فهم البينات فى هذه الآية بالذات بمعنى المعجزات التى أجراها الله على يديه بتأييد من روح القدس ، وإنما هى وحى الله على عيسى الذى فى الإنجيل ، إذاً لايصح وصف المعجزات بأنها «الحكمة» أو بأنها «بيان الذى اختلفوا فيه » . وقد أوتى عيسى أمرين : البينات ، أى الإنجيل ، ثم المعجزات التى أيده فيها الله «بروح القدس» ، لايصح الخلط بين هذا وذاك ، وقد فسر القرطبى فى تفسيره الآية ٨٧ من سورة البقرة لفظ البينات بأنه الحجج والدلائل ، وهذا جيد ، فليس وحى الله على رسله إلا هذا ، ولكنه لم يعلم معنى الإنجيل فى أصله الأعجمى «هَجَلْيون» الجلى المجلو ، ولو علمه لماتردد فى تفسير البينات بالإنجيل نفسه ، كتاب الله على عيسى .

ومن طريف ماذكره « إنجيل برنابا» الذى أنكرته الكنيسة ، قول المسيح لتلاميذه

يصف إنجيله وكأنه يفسر التسمية : « وقال التلاميذ بعد ذلك : لقد تكلمت فأوضحت بشكل لم يوضح رجل قبلك ما أوضحت ، فقال عيسى : صدقونى عندما اختارنى الله لأكون رسولاً لبنى إسرائيل ، أعطانى كتاباً وكأنه المرآة الشفافة، فنزل إلى قلبى فلا أتكلم إلا بما كتب فيه ، وعندما يفرغ ماسطر به ، سأترك العالم .

فأجاب بطرس : يامعلم ، هل ماتتكلم به الآن سطر فى هذا الكتاب ؟ فأجاب عيسى : كل مايتعلق بالله وملكوت الله وخدمة الله، وكل مايتعلق بالإنسان وخلاص الإنسانية هو من هذا الكتاب الذى هو إنجيلى» . (برنابا : ١٦٨ / ١ - ٥)[1] .

ليس بعد هذا بيان فى تفسير معنى إنجيل عبرياً على لسان صاحب الإنجيل : إنه « الكتاب المرآةُ» ، «هَجّلْيُون» المرآة الشفافة الجالية المجْلُوَّة . ولايقدح فى استشهادنا بإنجيل برنابا أنه إنجيل أنكرته الكنيسة ، فلامدخل هاهنا لإقرار الكنيسة أو إنكارها ، لأن خصوم إنجيل برنابا أنفسهم يعترفون لكاتب هذا الإنجيل - أياً كان كاتبُه - بأنه فقيه من فقهاء العبرية ، ضليع متضلع من عبرية التوراة خاصة ، حتى أتهموه بأنه يهودى أسلم ؛ الإنجيل إذن «هجليون» العبرية من الجلاء والتبين، آلت على قلم كتبة الأناجيل إلى «إنجليون» ، وعلى معنى الجلاء والتبيين فسرت لفظة إنجيل فى القرآن .

---

(١) إنجيل برنابا ، ترجمة أحمد طاهر - دار المعارف ص ٣٣١ ، ومطبعة محمد على صبيح وأولاده بالأزهر ١٩٥٨ ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ ترجمة الدكتور خليل سعادة .

مريم والمسيح

إن أحداً من الباحثين المسلمين أو المسيحيين لم يهتم ، وللأسف البالغ ، بالبحث عن تلك الصورة التاريخية المفقودة لكل من مريم والمسيح ، وعن صدى ذلك على دعوته ومواقفه من مواطنيه وبنى قومه ومدى ما انعكس من آثار ذلك فى سياق الأناجيل المعتمدة .

لقد أهمل المسيحيون تماماً منذ القرن الرابع للميلاد أى اهتمام حقيقى بالتناول التاريخى لشخصية مريم الناصرية والدة المسيح ، وكرسوا اهتمامهم الأكبر على الجانب الطقسى والعقائدى بشأنها . فمنذ استقر أمرهم بعد مجمع نيقية سنة ٣٢٥م على تأليه المسيح اندفعوا فى تمجيدها وتقديسها ، حتى تم ذلك على نطاق العقيدة الرسمية فى مجمع أفسُس المنعقد ضد نسطور سنة ٤٣١م حيث تجاوزوا منها وسيط بين الناس وابنها الإله !!

ومن الطبيعى بعد ذلك أن تقل أو تنعدم المصادر المسيحية التى تعين على إدراك تلك الصورة التاريخية التى يتطلبها البحث بشأنهما ، ولايتيسر أى تناول لإحدى الشخصيتين أو كليهما معاً خارج الإطار الطقسى والعقائدى الذى يتعلق بالغيبيات .

وقد تجاهلت الكنيسة تماماً أى تناول تاريخى يستهدف التعريف بصورة مريم كما عرفها أهل زمانها ، فلم تعبأ بذلك ، وعمدت بإصرار إلى تجاهله ، وصرف الأنظار عنه ، كأنما تستشعر فيه خطراً جسيماً يهدد كيان العقيدة التى تدين بها .

لذلك كان من المتعذر علينا أن نتمكن من أى تناول تاريخى لهما ، لأن التاريخ وقائع وأحداث تترابط وتتشكل وتتعاقب فى إطار الزمن والكنيسة للأسف قد حرصت على تدمير هذا الإطار ، وإبادة كل ما يعين على استرجاعه ، وكمحاولة منها للتنبيه على الصورة المفقودة قمنا بهذه الدراسة التى لانعلم أن أحداً سبقنا إليها .

مريم «أمة الرب» :

مريم أم عيسى عليها السلام ، اسم آرامى مَزْجُى مُرَخَّم ، أصله : « مارى + أما » ، المقطع الأول يعنى بالآرامية « الرَّبُّ» ، والمقطع الثانى « أما» يعنى بالآرامية أيضاً نفس ماتعنيه « الأمَةُ » عربياً ، فاسمُها عليها السلام يعنى « أمَةُ الرْبِّ» ، قُدِّم فيه المضافُ إليه على المضاف ، تعظيماً لاسم الرَّبِّ تبارك وتعالى ، وكان حَقُّهُ أن ينُطق : «ماريأما» كاملاً ، ولكن المزجية سَهَّلت الهمزة ، فأصبح : مَاريَما ، ثم رُخِّم بحذف ألف المد الخاتمة ، فأصبح «مَرْيَم » طبق الأصل من نطقه اليونانى Mariam فى الأناجيل اليونانية ، وهو نفس نطقه فى القرآن .

وهل كانت مريمُ «أمَةَ الرب» إلا هذا يوم بشِّرت بالمسيح فحملت به ؟ رضيت بالتهمة والظنة وهى أطهر عذراء لأن المولى هكذا شاء وقدر . قد علمت أنها أمة الرب ، لاتملك من أمر نفسها شيئاً . قالت لجبريل أنا أمة الرب، ليكن لى قولك فلما أجاءها المخاض إلى جذع النخلة توجعت كما يتوجع النساء ، بل أكثر مما يتوجع النساء ، وهى تلد ابنها وحيدةً منزويةً عن أهلها تتكتمُ أمرها خشية ألسنة الناس ، عالمةً أنها ما أن تنتهى أوجاعُ الولادة وتضع حملها حتى تنفجر التُهمةُ الظالمة فتقتحمها أعين الناس وتَقرَعَها ألسنة السوء ، أويرجموها بناموس التوراة ، وإن كانت هى وابنها آية للناس : ﴿**فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا * فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا**﴾ [مريم : ٢٣-٢٦] .

هنا قَرَّت عينُ مريم : هاهو جدول رقراقُ يجرى ماؤه تحت قدميها ولم يَكُ ثمَّة جدول ، وهذا الجزع الأجوف الذى ألجأها المخاضُ إليه ، هاهو يهتز ويربو وقد حيت النخلة ، وما أن تَضُمَّهُ إليها حتى يتساقط جَنَاه . قد علمت مريم من قبل أن الله يأتيها برزقها فى كل حين: ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾

[آل عمران : ٣٧] .

ولكن هل تُدْرِكُ أنت كم هى فرحةُ أم بمولود لها تَضَعُـهُ فيكلِّمها فى قماطه ؟ لايناغيها وتناغيـه فَيُسَرِّى عنها ، ولايناجيها فيـذهب هَمَّها ، ولايبكى كما يبكى الرضيع ، ولكنه ينطق ليطمـئنها أنه هو الذى سيحمل عنها عبءَ مـواجهة الناس يوم تأتى به قومها تحمله : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم : ٢٩ - ٣٣] ، بدأ بأنه عبـدُالله ، يعظ بها من سيغالون فى تعظيمه ، وقال براً بوالدتى ، ولم يقل براً بوالدىَّ كما قيل عن يحيى فى نفس السورة قـبله ، يُخْرِسُ بهـا من سيفـترون عليهـا البهتـان . هنا خرست الألسنة أمام المعجزة الكبرى .

هذه الآيات من سورة مريم إعـجاز فى أنباء القرآن لايعدله إعـجاز ، ولكنها فاتت على كـتبة الأناجـيل فلم يسجلوها ، لأنهم اكتـفوا بشهـادة المجوس الذين جاءوا لسيجـدوا للمسيح فى المذْوَد ، ويقدموا له ولأمه هدايـا ذهباً ولباناً ومُراً ، بين جُوق من الملائكة يُسَبِّحُ ويهلل ، وترانيم يصدح بها رعاةُ تصادفَ وجودهم ، لاتدرى من أين جـاءوا ، ولامن أوحى لهم بأن المولود مسـيحُ من الله ، كل هذا لايفسر لك لماذا سكت قومُ مريم على مريم يوم أتتـهم برضيعها تحمله ، ولماذا لم ينبسوا فى مواجهة هذه الفضيحة ببنْت شَفَة ؟ نعم ، قد قال لوقا فى إنجيله (لوقا: ٢ / ٨ - ١٩) إن مَلَكاً ظهر للرعاة ، كمـا قال متى فى إنجيله (متى : ٢ / ١ - ٢) إن نجماً ظهر للمجوس ، ولكن من سَيصدّقُ الرعاة أو يصدقُ المجوس؟ وقالت الأناجيل أيضاً (متى : ١ / ١٨ - ٢٤) إنه لما بدت أعراضُ الحمل على مريم فكر خطيبُهـا يوسف النجار فى تخليتهـا سراً ، لولا أن تراءى له مَلَكُ الرب فى حُلم فَبَـرَّأ مريم ، وصَدَّقَ يوسف بالرؤيا وضَمَّ مـريم إلى كنفه ، ولكن من سَيُـصدِّقُ يوسف ؟ الأحرى أن يتهموه . بـل هذا هو الذى يقصه عليك لوقا بالنص: « ولما ابتدأ يـسوع كان له نحـو ثلاثين سنة وهو على مـايُظَنُّ ابن يوسف بن هالى . . الخ» (لوقا: ٣ / ٢٢) ، يَدْعمُ بهـا نسبَ المسيحُ من بعد ، ومـاكانت به إلى هذا النسب من حاجة ، فلا أب للمسـيح إلا أمه مريم ابنةُ عمران ، ليس هو من نسل

داود وليس من سبط يهوذا ، بل هو من سبط والدته ، وجدِّه عمران، سبط لاوى، وكذبت نُبوءةُ كاتب سفر التكوين على لسان يعقوب فى اختصاص سبط يهوذا بالنبوة والمُلْك ، فكان أول ملوك بنى إسرائيل شاؤولُ (طالوت) الذى من سبط بنيامين ، وكذبت نُبُوءَتُهُ أيضاً فى ترذيل سبط لاوى ، فكَرَمَ اللهُ هذا السبط الذى جاء منه موسى وهارون ، وخُتِمَ خَيْرَ ختامٍ بالمسيح بن مريم ، صلواتُ الله وسلامه على جميع رُسُله وأنبيائه ، تورط إذن متى ولوقا فى استمساكهما بتأصيل نسب المسيح إلى داود استناداً إلى هذا الخيط الواهى عَبْرَ يوسف النجار خطيب مريم ، وليس فى عبارة لوقا : « وهو - أى المسيح - فيما يُظَنُّ ابن يوسف النجار ابن هالى . . الخ » إلا تفنيدُ هذا النسب فى واقع الأمر ، فما بالك بتكذيبه على لسان المسيح نفسه فى الأناجيل ؟ هذا التعلق بالنسب إلى داود يشوشُ على عُذْرِيَّة مولد المسيح صلوات الله عليه - وإن يكن من متى ولوقا بالطبع غير مقصود - ولكنه يُسجلُ لك ظنَّ السوء بمريم وابنها عليهما السلام منذ مولده وقبل مبعثه صلواتُ الله عليه ، فلماذا سكتوا على مريم ويوسف ؟ والرأى الراجح لايصح غيره أن خطبة مريم ليوسف ماكانت لتحدث قبل حملها الإعجازى بالمسيح لقول القرآن فيها : ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم : ١٢] وإحصانُ الفرج هنا كناية عن التَّبَتُّل والانقطاع لعبادة الله لازوج ولا ولد ، وماكان لبتول أن تقبل خطبة الرجال ، لايوسف النجار ولاغيره. وإنما خطبها يوسف - خلافاً لقول الأناجيل - بعد حملها ، وربما بعد ولادتها ، مصدقاً ومؤمناً بالآية والمعجزة ، لتكون مريم وابنها فى كنفهِ ورعايته لاغير ، فهو أب بالتبنى فحسب إن جاز التعبير .

لماذا خَرِسَت ألسنة السوء عن مريم وابنها يوم أتت به قومها تحمله ، فلم يتعرض لهما الكتبة والفريسيون بسوء ، منذ مولد المسيح وحتى مبعثه ، فلامبرر لهذا من العقل والمنطق وأخلاق اليهود وناموسهم ، إلا هذه المعجزةُ الكبرى التى سجلها القرآن العظيم وفاتت على كتبة الأناجيل فلم يعنوا بتسجيلها ، وإنكار ذلك، وإحالتهم إلى الأناجيل الأبوكريفية ، أعنى كلام المسيح فى المهد ، ينطق وهو الرضيعُ بالبراءة القاطعة لوالدته عليهما السلام ، فتنقلب التهمةُ إلى شرفٍ أىٍّ

شرف ، إعجاز الله فيها وفيه ، وينقلب الغمز واللمز والتجريح إلى تسبيح وتهليل، وتتناقل الألسنةُ حديث الطفل المعجز من سيكون . ولكن الذى نطقت الملائكة بلسانه وهو فى المهد فصيحاً بليغاً ، ويصمت من بعد حتى تأتى سِنِه لينطق كما ينطقُ الطفل . وتمضى به الأيام ويُنْسَى ماكان كما يُنسى كل شىء بعد حين ، إلا منه هو نفسه ومن خاصته وأهل بيته ، وإلا من والدته عليها السلام التى أُنبِئت يوم حملها به أن الله جاعله آيةً لبنى إسرائيل .

لم يكن مولد المسيح الإعجازى سراً بين مريم وابنها ، أو بين مريم ويوسف، أو بين مريم وخاصة بيتها ، أو بين مريم وبين نبى الله زكريا أبى يحيى كافلها وراعيها ، الشاهد لها بالرزق يأتيها به الملائكةُ فى المحراب ، وإنما استعلن اللهُ بهذه الآية لبنى قومها جميعاً ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم : ٢١] على لسان هذا المتكلم فى المهد الذى نطق بنسبه الصحيح : « وبراً بوالدتى » ، ليس له والدُ غيرها .

سمع الناسُ منه هذا وشهدوا وعاينوا ، وماكان لهم بعد هذه الآية إلا أن يؤمنوا بما شهدوا وعاينوا . لكنهم كفروا بها ، ومن يكفر بآيات الله فقد كفر بالله عز وجل .

المسيح «المبارك» :

قد فسر القرآن لفظ «المسيح» على معنى «المُباركَ » على لسان عيسى يوم أنطقه الله فى المهد ليستعلن بنسبه ويتحدث بآلاء الله عليه : ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم : ٣٠ - ٣٣] .

وتسميةُ القرآن عيسى بن مريم بالمسيح يوم البُشْرَى به لمريم ، تُفيد أنه مسيح من الله ، أى مبارك منه جل وعلا ، وإن لم يرسمه كاهن أو نبى ، بل ولُد «مسيحاً» ، تلك التى غلبت عليه ، تَعْرِفُهُ بها وحدها دون أن يُسمَّى لك بالاسم «عيسى» أو عيسى بن مريم ، فهو المسيح بإطلاق . وهى فى المسيح عيسى عليه

السلام لاتجىء إلا مُعرفةً بالألف واللام ، دالة على علميتها فيه وحده ، فهى اللقب الذى اختُصَّ به .

والذى يدُلُّكَ على اختصاص عيسى بن مريم صلوات الله عليه بلقب «المسيح»، اجتزاءُ القرآن فى ثمانية مواضع اجتزاءً مطلقاً عن الاسم «عيسى» بلقبه«المسيح» وهى : ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ [النساء : ١٧٢] ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة : ١٧] ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة : ٧٢] ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة : ٧٥] ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة : ٣٠-٣١] .

والذى يستوقفك هنا أن هذه المواضع الثمانية بالذات هى الآياتُ التى شَدَّدَت النكيرَ على من قالوا إن المسيح إلهُ على البنوة لله ، وقد تَعَمَّد القرآن المعجز الاجتزاءَ فيها عن اسم عيسى بلقبه الملازم له «المسيح» ، ليـنبِّه من لم ينتبه إلى أن «الممسوح» يقتضى «ماسحاً » يمسحهُ ، وأن «المبارك» يقتضى من «يباركه» وأن الذى هو من جوهر الله على قول من قال لايحتاج إلى هذه «المسْحَـةَ » أو هذه البركة من الله بالذات ، ناهيك بأن يحتاجَ إليها من غيره .

يَنُصُّ القرآن على أن الله هو الذى سمَّى المسيح بن مريم ، لا والدتُهُ وذووه : ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران : ٤٥] .

كما سمىَّ اللهُ يحيى من قبلُ لأبيه . والذى تُلاحِظهُ من هذه الآية أن القرآن

لايُسَمِّيه بالاسم عيسى فحسب ، وإنما يلقبه أيضاً بهذا اللقب الذى غلب عليه من بعد : «المسيح» . وهو لايسميه ويلقبه فحسب ، وإنما هو أيضاً ينْسبُه : «ابن مريم»، إن أردت أن تدعوه بأبيه فلا أبَ له غيُرها .

أما اللقب «المسيح» (مَشِيح عبرياً) ، فمعناهُ فى مصطلح اليهود الممسوحُ ، يريدون الذى مُسحَ بدُهن البركة (زيت الزيتون) ، أى الذى صُب الدُّهنُ على رأسه ، ملكاً كان أو كاهناً أو نبياً ، فيصير بهذه المسحة «قديساً » ، يعنى صدّيقاً فى لغة أهل القرآن وإن لغط بعضُ أهله فى هذا العصر بالقديس والقديسين مُتَابعةً لأهل الكتاب الذين يقرءون لهم ولاقداسة ثمّ ، وإنما هى الصديقيةُ لاغير . وقد كانت هذه المسحة طقساً من طقوس اليهود فى كهنوتهم ، يرتْسُمُ بها الكاهنُ كاهناً مثله ، أو يرسم بها نبياً «اعتمد» الكهنوت نبوته ، أو يرسم بها الكاهن أو النبى ملكاً نَصَّبُوهُ على بنى إسرائيل ، أو يرسم النبى نبياً يخلفه فى النبوة ، فهى الرِّسامة ، أى التّنْصيبُ فى الكهانة أو الملك أو النبوة . وقد آل اللفظ فى مجاز العبرية إلى معنى «الصديق» وإن لم يرسمه كاهن أو نبى ، فهو المبارك . ومُسحاء الرب ، يعنى أولياؤه ومُباركوه . «المسيح» إذن عربية بلفظها فقط ، ولكنها أعجمية بمعناها ، رغم التقارب اللفظى الشديد بين «مَسيح » العربية وبين «مَشيح» العبرية – الآرامية ، لغة المسيح ولغة أهله وعشيرته وحوارييه ، لتخصيص معنى «المسح» بما ليس فيه عند أهل الكتاب ، فَيَنْبَهِمُ عليك المعنى المراد من هذا الوصف، إلا إن كنت متضعلاً من مصطلحات اليهود العبرانيين ، ناهيك بأن تكون لغتُك غير ساميَّة ، فلاتدرى ما المراد من Messiah أو Messie والانبهام يؤدى إلى التوهم والتضخيم فتذهب بك التَّوَهُماتُ كلَّ مذهب فى مدلول لقب «المسيح» دون أن تدرى أن قد خلَت من قبله المسحاءُ فى بنى إسرائيل بالألوف : إنه فحسب المُبارَك أو الصدِّيق .

أما الاسم «عيسى» فقد جاء فى القرآن على الإبدال من «يشوع» العبرية التى نطقها نصارى السُريان للعرب على اللفظ «يَسُوع» تَبَرُكاً بسين «يشوع» التى فى الرسم اليونانى فى أصول الأناجيل ، واحتفظت بها الترجماتُ العربية فقالت هى أيضاً «يَسُوع» .

وأنت أيضاً لاتظنُ بالطبع أن الملائكة يوم بُشْرِتَ مريمُ بالمسيح كانوا يخاطبونها بهذا اللفظ العربى الذى فى القرآن : «اسمه المسيح عيسى بن مريم » وإنما خاطب الملائكةُ مريم بلسان مريم ، أى بالعبرية الآرامية ، فيقولون لها بالعبرية مثلاً : «ويقرا شْمُو هَمَّشِيح يشُوع بِنْ - مَرْيَم» ، أو يقولون لها بالآرامية مثلاً : «شْمِيه مشِيحا يِشُوعا بار - مَرْيَم» ، لم ينطقوها عيسى بالقطع ، وإنما قالوها «يِشُوع» .

ولم يتَسمَّ المسيح بالاسم «يشوع» على غير سابقة فى أعلام العبرانيين وإنما تقدمه أكثر من يشوع ، أول وأبرز من تسمى به قبله عَلَمُ سبق مولد المسيح بنحو ثلاثة عشر قرناً ، هو «يشوع بن نون» فتى موسى فى سورة الكهف ، الذى خَلَفَ موسى على رأس بنى إسرائيل . كان اسم يشوع بن نون فى الأصل «هُوشِيع» (عدد : ١٣ / ٨) ، ولكن موسى عليه السلام لم يرتضه له فأبدله منه الاسم «يهُوشوع» (عدد : ١٣ / ١٦) ، ثم تخفَّفَ «يهوشوع» فصار إلى «يشوع» اختصاراً، [١] وهذه الصورة الأخيرة «يشوع» هى المعتمدة فى الترجمة العربية للعهد القديم (سفر يشوع) لاسم فتى موسى يشوع بن نون .

هذه الصور الثلاث : هُوشِيع - يُهوشُوَع - يِشُوع ، منحوته كلها من الجذر العبرى «يَشَعْ» (المُبْدَل من «وسع» العربى) ، ومعناه من الإيساع والسَّعَة ، مقصوراً فى العبرية بالذات على معنى واحد ، وهو الخروج من الضيق إلى السعة، يعنى الخلاص والتخليص ، وبهذه المادة العربية (الخلاص والتخليص) يُتَرجِمُ المترجمُ العربى للعهد القديم كل مشتقات مادة «يَشَعْ» العبرية فى توراة الأنبياء والكتبة .

أما الصورة الأولى «هُوشَيع » (التى لم يرتَضيها موسى اسماً لفتاه فأبدله منها يُهوشُوع) فهى - أى «هوشيع» - تسمية بالمصدر من «يَشَعْ» بعد تعديته عبرياً بالهاء (وهى التعدية بالهمزة فى العربية) فيكون المعنى «إيساع» أى التخليص والإنجاء ، فهو خلاص ونجاء .

وأما الصورة الثانية «يُهوشُوَع» فقد نحتها موسى عليه السلام من مقطعين

---

(١) راجع مادة «يشع» فى المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة .

عبريين هما : يُهو + شُوع ، الأول مختصر يهوا ، اسم الله عز وجل فى العبرية منذ موسى عليه السلام ، والمقطع الثانى «شُوع» مصدر بمعنى السَّعَة ، أى الخلاص والنجاء ، فيكون معنى هذا التركيب المزجى هو « اللهُ خلاصُ ونجاء » . أراد موسى عليه السلام بهذا التعديل الذى أدخله على اسم فتاه يشوع بن نون التنبيه إلى أن الله عز وجل هو «الفاعل» فى هذا الخلاص وهذا النجاء ، أى لست يا «هُوشيع» خلاصاً ونجاء ، وإنما بالله عز وجل الخلاص والنجاء ، فالله هو مُخَلِّصُكَ ومُنجيك .

ولأن الصورة الثالثة لاسم فتى موسى (أعنى صورته بالرسم «يشوع») هى نفسها الاسم «يهُوشُوَع» مختصراً كما يقول علماءُ العبرية وعلماءُ التوراة ، فهى لاتحتاج إلى مزيد بيان : إنها نفسها «يهُوشُوَع» التى نحتها موسى عليه السلام ، «الله خلاص ونجاء » يعنى الله مُخَلِّصُهُ ومُنجِّيه .

هذا هو معنى «يشوع» عبرياً ، اسم المسيح عيسى عليه السلام : «اللهُ مُخَلِّصُهُ ومُنَجِّيهُ» . وهى من الله عز وجل تسمية على النبوءة ، لأنه هكذا كان : ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[آل عمران: ٥٥] ورغم أن علماء المسيحية يعلمون كما تعلم أنت الآن أن «يشوع» المسيح عليه السلام سَمِيٌّ لفتى موسى يشوع بن نون ، وأن معنى يهُوشُوع ، قبل اختصاره إلى يشوع هو « الله خلاص ونجاء» أى أن الله مُخَلِّصُهُ ومُنَجِّيه ، فقد نحَوا مَنْحَى آخر فى تفسير اسم يشوع المسيح من دون كل «يشوع» : قالوا إنه ليس من «يهَوا + شُوَع » ولكنه «يهى - يهى + شُوَع » [1] يعنى «هو - يكون - خلاصاً » أى هو المُخَلِّصُ الذى يكون به الخلاص ، وهو تفسير مُفْتعل ، لأن هذا بالذات هو الذى نعاهُ موسى على اسم فتاه «هُوشِيَع» ، ولو أريد للمسيح أن يكون بذات اسمه «يشوع» هو الخلاص والنجاء ، تسمية بالمصدر ، فهو المُخَلِّصُ المُنَجّى ، تُسمّى «هوشيع» على ماكان عليه اسمُ فتى موسى « هوشيع بن نون » قبل تعديله إلى «يهوشوع» التى آلت إلى «يشوع» كما يقول علماءُ العبرية وعلماء التوراة ، دون الحاجة إلى افتعال إضمار «يهى - يهى» (أى «هو يكون ») قبل المقطع «شُوع» .

---

(١) راجع هذا التخريج فى نفس المرجع السابق ، ص ٣٥٤ مادة «يشوع» .

ثم لماذا ينفردُ «يشوع المسيح » بهذا الإضمار المخصوص «يهى - يهى» من دون كل «يشوع» سبقه أو تلاه ؟ بل وما الدليلُ على هذا من التسمية ؟ ألأنَّ «مَلَكَ الرب » الذى ظهر ليوسف النجار فى الحلم قال له : «فستلد ابناً وتُدعو اسمه يسوع . لأنه يُخَلِّصُ شعبه من خطاياهم » (متى : ١ / ٢١) ؟ فلماذا لم يُسَمِّه جبريلُ لمريم على أصل هذا المعنى «هوشيع» أى الخلاص ، أو يُسَمِّه «المُخَلِّص » مباشرة أى «مُوشيع » زنَة الفاعل ؟ ولكن لم يلتفت أحد لقول المَلَكَ ليوسف النجار عُقَيْبَ هذا مباشرة : «وهذا كُلهُ كان لكى يتم ماقيل من الرب بالنبى القائل هوذا العذراءُ تُحْبلُ وتلدُ ابناً ويدعون اسمهُ عِمَّانُوئيل الذى تفسيره الله معنا » (متى: ١ / ٢٢ - ٢٣) . أفليست «عِمَّانُوئيل» هذه تعنى «الله معنا » كما قال متَّى ؟ فما معنى الله معنا ؟ أليس معناها اللَهُ ناصرُنا ومُؤيدُنا ؟ ألا يقترب هذا كل الاقتراب من معنى «يشوع» التى أصلها «يهوشوع» أى الله خلاصُهُ ونجاؤه ؟ ولكن اللاهوت المسيحى لايرى هذا وإنما يرى أن هذا الطفل المُبشَّرَ به هو نفسه «الله» يُولَدُ من العذراء ويعيشُ معنا زمناً فهو نفسه « الله معنا» .

وهذا هو التفسير بالعقيدة لا التفسيرُ بمحض اللغة . على أن النبوءة لم تقل إن الله سيعيش معنا ، وإنما قالت تحملُ العذراء وتلد مولوداً «يُسَمُّونهُ » اللهُ معنا فحسب ، لا أن الله سيجىء إلينا ليكون معنا . إذا قلت لك : اللهُ معك ! فلايصحُّ أن تفهمَ عنى أن الله معك بذاته ، أو أنك أنت من ذات الله ، وإنما الذى تفهمُهُ ببساطةٍ أنى أدعو لك اللهَ أن تصحَبَكَ عنايتُه ، لا أكثر ولا أقل ، ولكن هكذا كان .

أراد علماءُ المسيحية من المسيح عيسى بن مريم أن يكون بذاته هو الخلاص «هوشيع» الذى يكون به الخلاص ، فهو فادى البشر بدمه المسفوح على الصليب.

الفترة المجهولة

إن اكتشاف وثائق البحر الميت عام ١٩٤٧ بدأ يلقى الضوء على تلك السنوات الصامتة من حياة المسيح ، مما دفع العلماء إلى القول : لقرون عديدة كان دارسو الكتاب المقدس من المسيحيين يتساءلون عن حقيقة المكان الذى عاش فيه المسيح ، وماذا كان يفعل خلال تلك الفترة التى تعرف بالثمانى عشرة سنة الصامتة من حياته ، والتى تمتد منذ أن بلغ الثانية عشر إلى أن صار عمره ثلاثون عاماً .

إن الوثائق التى تثير الدهشة والإشفاق التى تختص بمكتبة طائفة الأسينيين (من اليهود) والتى وجدت فى كهف تلو كهف قرب البحر الميت قد أعطتنا الإجابة أخيراً ، لقد بدأ يتضح للعلماء أن يسوع خلال تلك السنوات المفقودة كان تلميذاً فى المدرسة الأسينية ، كما أنهم بدأوا يقرون تدريجياً بوجود مماثلة مفزعة بين تعاليمه وألفاظه وبين نظيرتها التى قالها الأسينيون وزعيمهم عرف باسم «معلم البر» .

فى مارس ١٩٤٧ م ، بينما كان أحد رعاة الأغنام (محمد الديب التعمرى) من قبيلة التعامرة يرعى غنمه عند الشاطئ الغربى للبحر الميت «وادى قمران» ، وعلى مسافة ثمانية أميال جنوب أريحا ، خلت إحدى غنمه ، فأخذ يبحث عنها بين الكهوف ، وصَوَّب حجراً إلى أحد الكهوف ، فسمع صوت شيء يتحطم ، فأسرع بالفرار واستدعى اثنين آخرين ، وصعد الجميع إلى الكهف ، فرأوا جراراً تحتوى على رقوق ملفوفة بالكتان ، فأتوا بها إلى إسكافى فى بيت لحم (سريانى المذهب) ، فأخذها وعرضها على مطران القدس السريانى «مار إثناسيوس» ، فاشترى منها أربعة رقوق ، ثم بيعت الثلاثة الأخرى للجامعة العبرية بالقدس ، أما مخطوطات المطران فقد وصلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، ثم اشترتها أخيراً الجامعة العبرية بالقدس «اثنى عشر ملفاً من الجلد والرق» ، ولما عرف

العلماء بتلك المخطوطات النادرة، بدأ البحث لاكتشاف كهوف قمران ، وقد قام بالبحث المنظم دائرة الآثار فى المملكة الأردنية الهاشمية تحت إشراف لنكستر هاردن والأب دى فو (Devaux) ، وكذلك اشترك فى هذا التنقيب المعهد الأريكيولوجى الفرنسى، والمدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية ، وقد تجمع فى الفترة من ١٩٤٧ - ١٩٥٢م أكثر من ستمائة مخطوطة ، توجد بالمتحف الأردنى.

ومن المواد التى صُنعت منها الجرار والأقمشة التى لُفت بها المخطوطات ، والنقود التى عثر عليها تأكد أن هذه المخطوطات كتبت فى القرن الأول قبل الميلاد أو على الأقل بعد الاحتلال الرومانى للمنطقة فى عام ٦٩ بعد الميلاد .

والمخطوطات التى عثر عليها هى :

١ - نصوص العهد القديم (كل الكتاب تقريباً عدا سفر إستير) وبعض الشروحات .

٢ - أبوكريفا العهد القديم .

٣ - مخطوطات خاصة بالجماعة مثل كتاب «النظام» «ترانيم الشكر» «الحرب بين أبناء النور وأبناء الظلمة» «التقويم القمرى الذى كانوا يتبعونه» .

وقد كتبت هذه المخطوطات باللغتين العبرية والآرامية ، وقد كتب هؤلاء القمرانيون هذه المخطوطات النفيسة وحرصوا على حفظها فى الكهوف المجاورة لمساكنهم ، فى جرار لها أغطية لتحميها من الرطوبة وتصونها من أيدى الأعداء العابثين بمقدساتهم ممن كانوا يخشون بأسهم .

ويقول العالم الأثرى الفرنسى «أندريه دوبون سومر «Andre Dupont Sommer» وهو من أساتذة السوربون : «إن مخطوطات خربة قمران كانت ولاشك من عمل الأسينيين ، وأن سفر حبقوق النبى وضع فيها عام ٧٠ ق م.

معنى كلمة أسينيون :

اختلف العلماء فى ذلك وقالوا :

١ - أنها كلمة عبرية «حسيديم» بمعنى الأتقياء .

٢ - أنها كلمة يونانية : «أجيوس» بمعنى قدوس أو مقدس .

٣ - أنها كلمة آرامية : «هاسياس» بمعنى الأتقياء .

عقائدهم وتعاليمهم :

١ - الإيمان بالله الواحد (كطائفة يهودية) .

٢ - الإيمان بالناموس والأنبياء .

٣ - التطبيق الحرفى للناموس والتشدد فيه .

٤ - التمسك بالأحكام الأخلاقية التى فى التوراة .

٥ - الإيمان بفناء الجسد وقيامة وخلود الروح .

٦ - انتظار المسيا .

٧ - يؤمنون بأنهم إسرائيل الجديدة أو شعب الموعد (العهد الجديد) .

٨ - محاولة الاستقلال عن عبادات الهيكل فى أورشليم .

٩ - اتباع تقويم خاص بهم .

١٠ - معلم البر أو العدل هو مؤسس ورئيس طائفتهم .

نظامهم وأسلوب معيشتهم :

لقد أوضحت المخطوطات وخاصة كتاب النظام [(١)] وصفاً لسلوكهم وأسلوب معيشتهم .

---

(١) كتاب النظام أو قوانين الجماعة ، قد عثر عليه فى قسمين منفصلين ، ضُما معاً فكونا وثيقة طولها ستة أقدام وعرضها تسع بوصات ونصف البوصة ، وتعتبر هذه الوثيقة أهم مصدر لمعرفتنا لهذه الطائفة الدينية فى وادى قمران وهى تبدأ ببيان الأمور التى يجب توافرها فيمن يشتهون الدخول فى العهد الجديد ، ثم يلى ذلك ذكر الطقوس اللازمة للإنضمام للجماعة ، ويتناول جزء من النص تعليم جماعة قمران عن الإنسان ، ثم بعد ذلك قوانين الجماعة . . . وتختم المخطوطة بمزمور تعبدى . (دائرة المعارف الكتابية جـ٢ ص ٩٣) .

١ - الاشتراكية :

لقد حرموا الملكية الشخصية ، وكان كل شىء فى الجماعة مشتركاً ، فمن ينضم إليهم يأتى بكل ما يملك ليصبح جزء من ممتلكات الجماعة ، وكان يقوم على تدبير شئونهم وكلاء يُعَيَّنون لهذا الغرض ، وبذلك يؤمن للفرد مأكله ومشربه ومسكنه وكانت توزع عليهم الأعمال ، ويقوم كل فرد بعمله على أكمل وجه ، وهنا نرى أن مبدأ امتلاك الثروة أمر مكروه ، وأن هذا النظام أدى إلى اختفاء مظاهر الفقر والغنى بين الجماعة فلا سيد ولا مسود .

٢ - الزواج :

كانوا يمتنعون عن الزواج ، حتى لايكاد النساء والأولاد عائقاً للجماعة عن الوصول إلى الصلاح والحق والاستعداد للحرب المقدسة ، ومن أقوالهم :

* من يتزوج يرتكب خطية النجاسة ، وليس له حق التواجد معهم .
* النساء والأولاد يعملون على تحويل الجماعة عن أهدافها .
* النساء اللواتى لهن أبناء هن خطر شديد ، حيث أنهم يستخدمن أولادهن وسيلة لتنفيذ أغراضهن بصورة تعكر صفو الوحدة الروحية للجماعة .

أى أنه ليس للمرأة مكان فى حياتهم ، ولكنهم كما قال يوسيفوس لم يمنعوا أتباعهم من الزواج بغرض إنجاب النسل .

علاقتهم بالآخرين :

* كانوا يفضلون المعيشة فى القرى عن المدن ، تفادياً للاختلاط حيث أن تأثير المدن فى الإفساد أقوى من القرى .
* التمسك بالأحكام الأخلاقية للتوراة مثل : الطهارة ، الفضيلة ، ضبط النفس ، التواضع . . . إلخ .
* مراعاة يوم السبت ، بعدم العمل والذهاب إلى المجامع لدراسة التوراة .
* كانوا مشهورين بأمانتهم ودقتهم وضميرهم الحى .
* تحريم الرق والعبودية والدعوة إلى المساواة بين الناس .

* احترام الآخرين والمحبة والرحمة .
* يعيشون ويعملون تحت إشراف شيوخهم .
* تبنى الأولاد وتربيتهم على مبادئهم .

عبادتهم اليومية :

يبدأ يومـهم قبل الفـجر بالصلاة ، ثم يذهبـون لأعمالهـم ، وفى منتصف النهار يستحـمون بالماء البارد ، ويعرف هذا الاستحمام الجمـاعى بالاغتسال ، ثم يتناولون الطعام بعد أن يطلب أحدهم البركـة عليه ، وليس للعضو المنضم إليهم الحق فى تناول طعام خارج عن هذا الطعام المعد والمقدم للجماعة لأنه نجس ، ثم يستأنفون أعمالهم ، وفى المساء يكرروا ما فعلوه فى الظهيرة .

وفى يوم السبت ، حـيث لا عمل بالمرة ، يجتمـعون معاً ، ويقـرأ أحدهم جزء من الكتب المقدسة ، ويقوم أحد شيوخهم بتفسير هذا الجزء .

أما من جهة علاقتهم بالهيكل فى أورشلـيم ، فإنهم كانوا يعتبرون شعائرهم الدينيـة أفضل وأطهـر من شـعائر كـهنة الهـيكل ، وأن كهـنوتهم هو الكهنوت الصحـيح بعد أن استـولى المكابيون على الكهنوت ، وكـان من آمالهم أن الرب سوف يأخذ الهيكل من الأيدى النجسة ويعطيه لهم .

ولكن هذا لم يمنعـهم من إرسـال ذبائحهم إلى الهـيكل [١] - دون الذهاب هناك - خوفاً من التنجس عن طريق الاختلاط بالآخرين .

---

(١) المذبح : هو مكان مـرتفع عليه الذبائح تعـبداً لله ، وورد ذكـر المذابح والإشارة إليـها فى العهد القـديم أكثر من أربعمائة مرة ، وكـان القدماء يهتمون بالمذابح لأنهـا من المستلزمات الضرورية للعـبادة ، فكانوا يجعلون بناءها مسـتديراً أو مربعاً ، وقـد يخصصونهـا ببعض الآلهة ويسـمونها بأسـمائها ، ويزينونهـا بالأكاليل وينقشـون على جوانبهـا تماثيل الآلهة ، والمسيـحيون الآن لايقدمـون الذبائح نهائيـاً ؛ لأنهم يعتقدون أن المسيـح رفع على الصليب ذبيحة كاملة طاهرة لأجلهم . (قاموس الكتاب المقدس ص ٣٨٤) .

طريقة الانضمام إليهم :

١ - التبنى :

حيث أن عدم الزواج هو مبدأهم ، كانوا يتبنون أطفالاً (لم يكن شرطاً أن يكونوا يهوداً ، بل من الجائز أن يكونوا من الأمم) ويربونهم على المبادئ الخاصة بهم .

٢ - الانضمام :

* يتقدم طالب الانضمام بطلب يزكيه أحد الأعضاء .
* يقضى المبتدئ سنة تحت الاختبار ، وعندما يثبت أن كل المؤهلات اللازمة تتوافر فيه ، يقضى سنتين أُخريتين تحت الاختبار ، ثم يؤخذ عليه التعهد (قَسَم الانضمام للجماعة) ، وعند ذلك يُقبل رسمياً ويكون له الحق فى طعام الجماعة .

العقوبات :

* كان النظام قاسياً ، فحياتهم تحت إشراف الشيوخ ، ومعلم الصلاح أو البر هو رئيس الجماعة ورأى الأغلبية هو السائد .
* المحاكمة تتكون من مائة قاضى ، ولذلك يكون حكمها نهائياً .
* أكثر الجزاءات من نوع الحرمان من الأكل (الحرمان من الطعام المقدس مع الجماعة ، ولايستطيع العضو التناول من أى طعام آخر حيث أنه نجس) ، الحرمان لجزء من الطعام أو لوقت معين من الزمان .
* الفصل من الجماعة لمدة معينة .
* أقصى عقوبة هى الطرد النهائى من الجماعة .

الأسينيون ويوحنا المعمدان والمسيح :

يرى البعض أن يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا) قد انضم إلى الأسينيين ، أو على الأقل قد تأثر بتعاليمهم ، وكان بذلك الواسطة لانتقال هذه التعاليم إلى المسيح والمسيحية ، وهاك طائفة من هذه الآراء :

* يميل غالبية دارسى الكتاب المقدس إلى الاعتقاد بأن يوحنا المعمدان تربى فى وسطهم وعاش بينهم وأخذ من طباعهم ، مع أنه كان يختلف عنهم فى كثير من العقائد .(١)

* أما يوحنا المعمدان فربما كان أقرب إليهم ، مع أن حياته التى نعرفها لاتتفق كثيراً مع حياة الأسينيين .(٢)

* ولطائفة قمران تأثيرات غير هذه فى عهد الكنيسة الأولى ، عن طريق يوحنا المعمدان الذى يقال أنه كان من جماعة الأسينيين .(٣)

* لقد تأثر المسيح بلاريب بطائفة أخرى من اليهود فى مجتمعه كان لها شأنها، ويقال أن يوحنا المعمدان كان واحداً منها ، وهى الأسينية .(٤)

الأدلة التى يستندون عليها فى علاقة يوحنا بالأسينين :

١ - وجود يوحنا المعمدان فى البرية قرب منطقتهم ، حيث أن مخطوطات قمران قد عثر عليها عند الشاطئ الغربى للبحر الميت ، ويوحنا كان يكرز فى برية اليهود : «فى تلك الفترة من الزمان ظهر يوحنا المعمدان فى برية اليهودية يبشر قائلاً «توبوا فقد اقترب ملكوت السموات . . . » فخرج إليه أهل أورشليم ومنطقة اليهودية كلها وجميع القرى المجاورة للأردن فكانوا يتعمدون على يده فى

---

(١) د . القس فهيم عزيز - المدخل إلى العهد الجديد ص ٤٧ .

(٢) د . چون لوريمر - تاريخ الكنيسة جـ١ ص ٣٧ .

(٣) قيصر صادر «فحوى مخطوطات قمران» مجلة المسرة عدد ٥٩٩ ص ٨٤٦ .

(٤) محمد عطا - عيسى فى الخالدين ص ٣٧ .

نهر الأردن معترفين بخطاياهم » . (متى : ٣ / ١ - ٦ ، مرقس : ١ / ٤ - ٥، لوقا : ٣ / ٣) .

فلماذا اختار يوحنا أن يعمد فى نهر الأردن وليس فى بحيرة طبرية مثلاً - أو غيرها من المياه الحلوة فى فلسطين ؟ . . أما الأردن فقد اختاره يوحنا لأنه أقرب إلى سكن إخوته فى العقيدة ، ورفقائه فى خلال ثمانى عشرة سنة من عمره .

٢ - حياة التقشف : لقد جاء عن يوحنا المعمدان « كان لباسه من وبر الإبل وعلى حقويه منطقة من جلد وكان طعامه جراداً وعسلاً برياً » (متى : ٣ / ٤ ، مرقس : ١ / ٦) .

وعندما قال المسيح : «ماذا خرجتم إلى البرية لتروا ؟ أقصبة تهزها الرياح ؟ بل ماذا خرجتم لتروا : أإنساناً يلبس ثياباً ناعمة ؟ ها إن لابسى الثياب الناعمة هم فى قصور الملوك ! إذن ، ماذا خرجتم لتروا ؟ أنبياً ؟ نعم ، أقول لكم ، وأعظم من نبى . » (متى : ١١ / ٧ - ٩ ، لوقا : ٧ / ٣٣) .

«لأنه جاء يوحنا المعمدان لا يأكل ولا يشرب خمر فتقولون به شيطان » (متى: ١١ / ١٨ ، لوقا : ٧ / ٣٣) .

ولماذا كان يوحنا متطرفاً فى تقشفه إذ كان «يلبس ثوباً من وبر الإبل» وعلى وسطه زنار من جلد ، وكان قوته من الجراد والعسل البرى ، لأن التقشف فى العيش كان من صلب العقيدة الأسينية .

٣ - الدعوة إلى التوبة والمعمودية : لماذا راح يوحنا المعمدان يدعو - أول ما يدعو - إلى التوبة ؟ لأن الأسينيين كانوا يضعون التوبة فى رأس واجبات التواقين إلى الخلاص ، ولماذا اختار يوحنا أن يعمد الناس ؟ لأن معلميه من الأسينيين اتخذوا من المعمودية رمزاً للتطهير من كل شهوة ، أو فكرة أو نية تفسد على طالب الخلاص خلاصه .[1]

وقد يكون لفكرة المعمودية علاقة تاريخية بطقس الاستحمام عند طائفة

---

(١) ميخائيل نعيمة - من وحى المسيح الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤ ص ٢٩ - ٣٥ .

قمران، فيوحنا المعمدان كان يقول : إن الاستحمام لايزيل الذنوب ما لم يسبقه تطهير روحى ، وهذا ما ورد فى كتاب «النظام» كما يفهم من المخطوطات الأسينية .[1]

والرأى الأرجح أن المسيح ويوحنا كانا كلاهما فى فترة من حياتهما من جماعة الأسينيين ، لقد انضم المسيح ويوحنا إلى الأخوية الأسينية وهما فى الثانية عشرة ، ولم ينفصلا عنها حتى بلوغهما الثلاثين .

(١) قيصر صادر «فحوى مخطوطات قمران» مجلة المسرة عدد ٥٩٩ ص ٨٤٦ .

يحيى والمسيح

لقد كان إعجاز مـيلاد يحيى لزكريا وقد بلغ به الكبرُ عتياً شبـيهاً كل الشبه بمولد إسحق لإبراهيم وسارة : كـلتا المرأتين عجوز عاقـر ، وكلا الرجلين شيخ كبير ، ولكن الفاطر المبدع البارى الذى لايُعـجزُهُ شىء يقضى ما يشاء ويفعلُ ما يريد . ولو شاء اللهُ خَلْقَ يحيى على مثال آدم بغير أب أو أمٍ لفعل ، ولكنه أراد النسبـة إلى زكريا ، كما أراد من بعـد فى خلق عيسى النسبـة إلى مريم ، وأراد قبل هذا وذاك النسبة إلى آدم أبى البشر جمـيعاً ، كيلا يضل أحدُ فى دعوة البنوة لله عز وجل ، ولم يغفل عنها لحظة عيـسى عليه السلام فى نفس هذه الأناجيل التى بين يديك ، لا يسأم من تكرارها على سامعيه حتى باتت علماً عليه : إنه « ابن الإنســان » وهى فى العـبـرية «بن أدام» يعـنى آدمى من بنى آدم . والقـرآن لايجىء بذكر مولد يحيى إلا ويعقبه بذكـر مولد عيسى (ولوقا يفعل نفس الشىء فى إنجيله) ، يمهد لإعـجاز بإعـجاز ، فكلتـا الولادتين آية تنقطع دونهـا رقاب البشر، إخـصاب بويضة الأنثى بغير مُـخْصب ، أو خلق هذه البويضة مُخْـصَبَةً ابتداء ، أو إخصابُهـا بكلمة منه عز وجل نفخاً من روح القـدس جبريل كالذى تجد فى القـرآن وفى الإنجيل ، والأخرى شأنهـا شأن الاستحيـاء من عدم ، فى زوج زكريا ، كما تجـد فى قوله عز وجل : ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء : ٩٠] يعنى استحـيينا فيها وهى العـجوز العاقر آلة الحمل والولادة ، وسبـحان الخلاق العليم ، فلما عجب زكريا من هذا ، قيل له : ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم :٩] ، يُذكّرُهُ بخلقه وبالخلق الأول ، وعن هذا يضلُ كثيرون ، يُعَظمون المفعول ولايعظمون الفاعل ، ولم يكن هذا موقف لوقا فى إنجيله ، بل هو يعقب على مولد يحيى وعيـسى عليهما السلام بتسابيح لله العلى القدير .

على أن أخبار زكريا فى القرآن لاتقتـصر على أبوته ليحيى ، وإنما هو أيضاً

كافل مريم عليهما السلام على ما تقرأ فى القرآن ، وليس فى الأناجيل التى بين يديك من هذا شىء ، وهى أيضاً لاتقص عليك شيئاً من أنباء خدمتها فى الهيكل ، وقال عز وجل : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران : ٤٤] وسبحان علام الغيوب .

وفى الأناجيل أن مريم عليها السلام حملت بعيسى عُقَيب حمل خالتها المعجز بيحيى ، فكان يحيى وعيسى ابنى خؤوله متعاصرين ، بُعث يحيى أولاً ثم أعقبه عيسى ، فشهد كل منهما للآخر بالنبوة ، يعنى كان يحيى مصدقاً بعيسى على نحو ما تقرأ فى القرآن : ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران : ٣٩] .

«فالمُصَدِّقُ» هو يحيى عليه السلام ، المصدق بعيسى الذى هو كلمة من الله .

ولكنك لا تقرأ فى الأناجيل التى بين يديك بشارةَ من المسيح باسم خاتم النبيين صريحاً ، مُحَمَّداً أو أحمد ، وإنما تقرأ فى الأصول اليونانية لتلك الأناجيل أن المسيح بَشَّر بإنجيل الله (مرقس : ١ / ١٤) Kerussonto euaggelion toutheou (لا بملكوت الله كما تقول الترجمة العربية فى نفس الموضع) ، لأن euaggleion اليونانية (المُحَلاَّة فى النص اليونانى بالبادئة -eu- ومعناها الخِيرَة) تُفيد معنى «الرسول» ، فتفهم كمسلم أن «إنجيل الله» الذى بشر به عيسى فى هذا النص اليونانى euaggeliontou theou هو «رسول الله» الخِيرةَ أى صفوة الرسل وإمامهم محمد بن عبد الله ، الذى ختمت به النبوة والرسالة ، صلوات الله وسلامه على جميع رسله وأنبيائه ، وعلى كل من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

ولكن الذى نتوقف عنده فى هذا السياق هو إعجاز النبوءة التى تضمنتها البشرى بيحيى عليه السلام ولم يُولد بعدُ عيسى ولم يُحْمل به : إنها بشارة صريحة لزكريا بمولد عيسى عليه السلام ، أسبق من بُشرى جبريل لمريم بمولده،

وأيضاً إنباءُ بأن محـور رسالة يحيى هو التصديق بعيسى ، كالـذى كان وسبحانَ علام الغيوب .

ولا تفوتُك تلك الصياغة المعجزة التى فى قوله عز وجل «مصدقاً بكلمة من الله» فهـو كلمةُ منه سبحـانه ، لا كلمةُ الله ولا «الكلمة» على التـعريف الذى يفيد الحصـر ، ما يخطئ فيها كثـيرون ، مسلمون وغير مـسلمين ، عرب وغير عرب ، والفرق بين المعنيين كما ترى جدٌّ كبير .

لقد كان يحيى صِنْوَ عيسى عليهما السلام : كلاهما بُعِثَ فى ريعان الشباب وَرَئْيِهِ وحُسَيْناه ، ولم يلَبثا فى قومهمـا إلا قليلاً حتى قبضهما الله إليه، لا زوج ولا أبناء ، فـقد شغـلا بقصـر الرسالة عن هذا وذاك ، وربما قلت أن الـله شاء برحمتـه ألا تكون لأيهما ذُرِّيةٌ يفتتن بهـا الناس ، أو كى لايقال إن اللاهوت فى المسيح على قول من يَمنعُ من إتيـان النساء ، فيقال له قد كـان يحيى أيضاً على هذا المثال ، أى كـان يحيى وعيسى كـلاهما حصوراً ، لا يحـيى وحده ، وهذا مقطوعُ به عند المسيحيين جميعاً بلا خوف ، ودعك من تخرُّص المُجَّانِ بأقاصيص يحيـى وسالومى ، وخـوضهم فى المسـيح والمجدليـة ، فهذا مـن عورات هذه الحضارة ، التى تطاولت فاستباحت باسم «حرية القول» الاجتراء على مقام النبوة والنبيين .

ولفظة الحصور فى اللغة لها وجهان : الذى يكُفُ نفسهُ عن شهوة النساء مع وجود القـدرة ، والثانى هو المـكفوفُ عن النسـاء بآفة تقطعُ فـيه هذه الشـهوة. ويحيى بالمـعنى الأول ، لا بالمعنى الثانى ، لأنه الذى يَحْـيَا ، والذى يحـيا إنما يَحْيَا حياءً لا عجزاً ، والعنين المجبوب لا يجدُ الشهوةَ أصلاً حتى يحيا ويعفَّ.

ومـا كان لنبى أن تكون به آفـة ، فمـا بالك بآفـة يسمـيه الله بهـا فضـلاً وتشريفاً، بل تقدمت على صفة «الحضـور» فى يحيى صفةُ «السيد» فى قوله عز وجل : ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران : ٣٩] وما كـانت الناسُ لتُسَـوِّدَ عنيناً أو مجبوباً ، حاشاً لأنبياء الله أن تكون . والذى قلناه بمنطق اللغة فحسب ، أى أن

الذى يحيا إنما يحيى حياءً ، كافٍ بذاته لقطع دابر إسفاف الرواة ولا عليك من إسفافهم .[(١)]

ولعلك تجد معنى الحصور الذى أحصره الله فى قول المسيح عليه السلام : «فقال لهم ليس الجميع يقبلون هذا الكلام الذى أعطى لهم . لأنه يوجد خصيانٌ وُلدوا هكذا من بطون أمهاتهم ، ويوجد خصيانٌ خَصاهم الناس ، ويوجد خصيان خَصَوْا أنفسَهُم لأجل ملكوت السموات ، من استطاع أن يَقْبَل فلْيَقبلَ» (متى : ١٩ / ١١ - ١٢) . وقد اعتل تلاميذُ يحيى من بعد على تلاميذ المسيح باعتماد عيسى منه ، ولم يعتمد يحيى من المسيح فيحيى إذاً أرفع رتبةً من عيسى وإلا لما احتاج إليه المسيح . ولكن الأناجيل ترد على هذا بأن عيسى لم يباشر مهام نبوته ولم يستعلن بها للناس إلا بعد مقتل يحيى[(٢)] : «وبعد ما أسلَمَ يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرِزُ ببشارة ملكوت الله ويقول قد كمل

---

(١) قالوا كان «إحليله» كالقذاة - والإحليل مجرى البول يكنى به عن الفرج للرجل والمرأة - قاسوه على الناقة الحصور لايقربها الفحل لضيق إحليلها خلقة . فأى خفة وأى إسفاف .

(٢) يحيى : هو النبى الرسول يحيى بن زكريا عليهما السلام ، وهو آخر أنبياء بنى إسرائيل بعد أبيه وقبل المسيح عليه السلام ، وأمه الياصابات خالة مريم ، رزق لوالديه فى شيخوختهما ، ويتصل نسبه من جهتهما بهارون بن عمران شقيق موسى عليهما السلام ، وكان يحيى أكبر من عيسى بستة أشهر ، وقيل بثلاث سنين ، وقيل بخمس ، وهو الذى عمد عيسى فى نهر الأردن سنة ٣٠ م ، ولذلك يسميه النصارى (يوحنا المعمدان) ، قتل قبل مقتل أبيه بقليل وقبل رفع المسيح عليهم السلام ، وذلك لأنه نهى الملك هيرودس عن الزواج بهيروديا ابنة أخيه ، فأمرتها أمها أن تطلب مهراً رأس يحيى عليه السلام ، فقتله الملك وقدم رأسه لها على طبق . (إنجيل متى : ١٤ / ١ - ١٢ ، مرقس : ٦ / ١٤ - ٢٩) ، وهيروديا هى ابنة أرسبتولس ، تزوجت عمها هيرودس فيلبس ثم أراد أن يتزوجها عمها الآخر هيرودس أنتيباس فوبخه يحيى فقتله ، ورد اسم يحيى فى القرآن خمس مرات. (الكامل فى التاريخ ١ / ١٧٠ ، البداية والنهاية ٢ / ٥٨ ، قاموس الكتاب المقدس ص ١١٠٦ ، الموسوعة الميسرة ص ١٩٨٩ ، قصص الأنبياء للنجار ص ٣٦٩ ، معجم البلدان الملحق بالمورد ص ٥٠ ، دائرة معارف القرن العشرين ١٠ / ٩٢٦) .

الزمان واقترب ملكوتُ الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل » (مرقس : ١ / ١٤ - ١٥)، وهذا منطقى تماماً، فلا يصح لمن يدعوان بنفس الدعوة أن يُشَوِّش أحدهما على الآخر بنفس المقولة : «وفى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهود قائلاً توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات» (متى : ٣ / ١ - ٢) .

ولكن التاريخ لم يحفظ لك ما كتب تلاميذ يحيى فى سيرة معلمهم مثلما حفظ لك فى تلك الأناجيل ما كتبه تلاميذُ عيسى فى سيرة يحيى والمسيح معاً . وقد حرص كاتبو الأناجيل - وكأنهم يردون على تلاميذ يحيى الذين ضاعت كتابتهم - حرصاً شديداً على إثبات ما يُعْلى رتبة المسيح على ابن زكريا وبالغوا فى هذا إلى حد الإغراق ، من مثل قولهم على لسان يحيى إنه ليس أهلاً لحمل حذاء عيسى (متى : ٣ / ١١) ولايجمل هذا بالأنبياء حتى فى تواضعهم ، بل هو اتضاعُ مقيت لا يليقُ البتة بمن اعتمد منه المسيحُ وشهد له بالنبوة ووصفه فى تلك الأناجيل بأنه لم يَقُمْ فى المولودين من النساء من هو أعظم من يوحنا (متى : ١١ / ٩ - ١٢) ، ولكنه يستدرك فيقول فى نفس الموضع «ولكن الأصغر فى ملكوت السموات أعظمُ منه» ، يعنى نفسه فى قول شراح المسيحية ولكنه يقصد بـ «الأصغر فى ملكوت السموات» أى الأخير بَعْثَةً وهو النبى الخاتم ﷺ .

وأيضاً عندما سعى عند يحيى بن زكريا ليُعَمِّدَهُ [١] من ماء نهر الأردن شأن الساعين إلى هذا العماد ، فلما التقى النبيان امتنع عليه يحيى بتواضع الأنبياء قائلاً له : « أنا محتاجُ أن اعتمد منك وأنت تأتى إلىّ ؟ فأجاب يسوع قال له

(١) التعميد : الاعتماد أو المعمودية أو اغتسال التوبة أو الاصطباغ وهو طقس الغسل بالماء بقصد التوبة ، وكان اليهود يستعملون هذا الطقس ، وقد اختلفت وجهة نظر المسيحيين فيه فجعله بعضهم بالتغطيس الكامل ٣ مرات ، وأغلبهم يكتفى برش الماء على الوجه ، وجعله بعضهم للكبار البالغين ، وأغلبهم يوجب تعميد الأطفال (قاموس الكتاب المقدس ص ٣٦٧) وقد أحسن نصارى مصر بقولهم الغطاس بدلاً من العماد ، لأن الغطاس أدق فى ترجمة Baptizein اليونانية . وقد قيل يحيى المغتسل بدلاً من يحيى المعمدان ، وليس بشىء ، والصحيح يحيى المغطاس .

اسمح الآن ، لأنه هكذا يليقُ بنا أن نُكَمِّل كل برٍ . (متى : ٣ / ١٤ - ١٥) .

وحتى إن سَلَّمْتَ هذا فلا يصح أن ترتب عليه أن يحيى ليس أهلاً لحمل حذاء عيسى ، لأنه تصاغُر يسلبُ يحيى نبوته ، ولأنه لا يصح الاتضاعُ ويكْرمُ إلا لله عز وجل ، فلا يصحّ اتضاع الأنبياء لغيره جل وعلا ، ولا يصح أيضاً تفاخرهم على الناس أنبياء وغير أنبياء ، وقد كان عيسى عليه السلام غاية فى التواضع ، يأبى على أتباعه أن يُعظموه : «وفيما هو خارج إلى الطريق ركض واحد وجثَا له وسأله أيها المُعَلِّمُ الصالح ماذا أعمل لأرثَ الحياةَ الأبدية ؟ فقال له يسوع لماذا تدعونى صالحاً . ليس أحد صالحاً إلا واحدُ وهو الله » (مرقس : ١٠ / ١٧ - ١٨) .

الذى يقول هذا لاتنتظر منه أن يُعظم نفسه .

غالت الأناجيلُ إذن فى تعظيم المسيح حتى أشرفت على المنزلق الخطر . ومن هذا حذر النبى الخاتم : «لا تفضلونى على يُونُس بن متى» فالنبوة من الله عز وجل ، يرفعُ درجات من يشاء ، والموحى واحد ، الفضلُ له والمن ، فلا فاضل ولا مفضول . وقد جرَّت هذه المغالاةُ فى المسيح كما تعلم إلى شرٍ كبير.

الرسول والرسالة

بُعث عيسى عليه السلام ابن ثلاثين عاماً [١] رسولاً إلى بنى إسرائيل حوالى سنة ست وعشرين ميلادية ، وفلسطين يومئذ ولاية رومانية تحكمها روما مباشرة، وروما يومئذ والعالم القديم كله وثنى مشرك ، إلا بنى إسرائيل الشعب الذى يعبد الواحد الأحد منذ إبراهيم ، وقد تندهش كيف يبعثُ اللهُ الرسل إلى شعب مُوَحد ، بل وكيف يخصه بجَم غفير من رسله وأنبيائه ، فلا يكاد يخلو منهم جيل إلا وقد كان معه طبيبُ يطبِّبهُ ويداويه ، ولكنك تستدرك على نفسك فتقول أن داء العارف الجاحد أعتى من ضلالة حائر يتلمسُ من يهديه .

كانت رسالةُ المسيح إذن - شأنه شأن من سبقه - قاصرة على هذا الجيل الضال من «بنى الأنبياء» الذين حار فيهم طب النبوة ، لاتعدوهم إلى غيرهم من أهل الأرض وثنيين ومشركين . نصَّ المسيح على هذا فى الأناجيل بعبارة قاطعة لاتحتمل التأويل : «لم أرسل إلا إلى خراف بنى إسرائيل الضالة» (متى : ١٥ / ٢٤) لهذا ، لم تكن رسالة المسيح إلى قومه رسالة إلى التوحيد ، لأن دعوة التوحيد نداء واقر فى سمع هذا الشعب من قديم ، لايحتاجون إلى من يدلهم عليه ، وإنما كانت دعوته عليه السلام فى قومه دعوة إلى توحيد من نوع آخر دأبوا على مخالفته والخروج عليه : التوحيد بين الظاهر والباطن ، بين القلب والقول ، بين الفكر والجوارح ، بين الإيمان وبين العمل على مقتضى هذا الإيمان.

---

(١) وُلِدَ عيسى عليه السلام سنة ٤ ق م . ورُفِعَ سنة ٢٩ م ، ونجد الكثير من المفسرين يشيرون إلى أن المسيح ولد ما بين ٤ سنوات إلى سبع سنوات قبل الميلاد ، والسبب فى هذا الخطأ التاريخى أن Di onysius قد أرخ عملية صلب المسيح فى عام ٧٥٣ بعد تأسيس روما، ولكن هيرودس التى أشارت الأناجيل إلى أن المسيح ولد فى عهده توفى فى عام ٧٤٩ وفق التاريخ الرومانى ، أى ٤ سنوات قبل الميلاد ، وأشار إنجيل لوقا فى قصة عيد الميلاد أنه ولد فى عام ٧٤٧ بالتاريخ الرومانى ، أى ٦ سنوات قبيل الميلاد ، و بالتالى يمكن القول بأن المسيح ولد ما بين ٤ سنوات وسبع سنوات قبل الميلاد .

كان عليه السلام فى دعوته - كما تنطق بهذا أقواله فى الأناجيل - يبنى على ما جاء به الذين تقدموه ، موسى وإبراهيم ، وما كان لك أن تنتظر غير هذا ممن قال : «ما جئتُ لأهدم الناموس والأنبياء ، وإنما جئتُ لأكمل » ، ناهيك بأن تنتظر منه مقولة غير مسبوقة فى توحيد الله عز وجل تضيفُ إليه عيسى وجبريل، كالتى صيغت من بعده مرحلة بعد مرحلة فى المجامع ، مجمعاً بعد مجمع ، تَثْلُمُ هذا التوحيد الخالص الذى جاء به موسى وإبراهيم ، فتبعض ذات الواحد إلى آب وابن وملك .

لم يكن هذا بالطبع حالُ المسيح عليه السلام ، حاشاه أن يكون ، الذى أبلغ فأدى . يكفيك من محكم قوله فى تأصيل عقيدة التوحيد الخالص «لا إله إلا الله» قوله المحفوظ فى الأناجيل حين سُئل عن أعظم الوصايا فى توراة موسى فأجاب : «إن أول كل الوصايا هى : اسمع يا إسرائيل ، الربُّ إلهُنا ربٌّ واحد ، وتُحِبُ الربَّ إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك . هذه هى الوصية الأولى .

وثانية مثلها هى : «تحب قريبك كنفسك[1] . ليس وصية أخرى أعظم من هاتين » .

فقال السائل : « جيداً يا معلم ، بالحق قلت ، لأنه الله واحد وليس آخر سواه » .

علم المسيح أن قد اطمأن قلب السائل فقال له : «لست بعيداً عن ملكوت الله » ، ولم يجسر أحد بعد ذلك القول الفصل أن يسأله (مرقس : ١٢ / ٢٨ - ٣٤) فقد جاء المسيح على دين موسى .

استحسن السائل قول المسيح ، واستحسن المسيح تعقيب السائل فبشره بأنه

---

(١) «القريب» ترجمة سقيمة للفظة Plesion اليونانية ، صحيحها «الجار» . من ذلك الوصية التى تقول : لاتشته امرأة قريبك ، لايصح أن يفهم منها سريان الحظر على نساء ذوى قرباك فقط ، بل لاتشته امرأة جارك . وقد أحسنت الترجمة الإنجليزية فقالت Neighbour وحبذا لو تفعل الترجمات العربية .

من الجنة قريب وكأنه يزكيه لقومه ، من كان له مثل إيمان هذا السائل فعمل به، فدخل الجنة : توحيد الله عز وجل والإحسان إلى الجار ، ولو أحسن كل جارٍ إلى جاره لكانت الحسنى فى الخلق جميعاً .

بالتوحيد المطلق «لا إله إلا الله» قال المسيحُ كما رأيت من نص كلامه فى هذه الأناجيل ، وبالتثليث قال منتسبون إليه فى المجامع ، فأى الفريقين أولى بالاتباع ؟

ولكن لاتَعْدَمُ من يقول لك أن التثليث أيضاً توحيد ، لأن الآب والابن والروح القدس ثلاثة فى واحد ، إنهم ثلاثة أوجه للذات الإلهية أو ثلاثة أقانيم، تتمايز لنا نحن البشر ، وتجتمع فى الله الواحد ، وليس هذا من وحى الله فى شىء ، وإنما هو من تهافت متفلسفة اللاهوت ، يُرَقِّعُون قولاً بقول ، جَرَّهم إليه القول بأبٍ وابن وملك . وما كان بهم إلى هذا من حاجة لولا أنهم حكموا المتشابه فى المحكم ولم يقيدوه به ، ولولا إساءتهم فهم لفظتى الآب والابن العبرانيتين - الآراميتين .

وهل أحكم من قوله عليه السلام يُرَدِّدُ قول موسى فى التوراة : اسمع يا إسرائيل ، الرب إلهُنا رب واحد ؟ أفيقول هذا لمن سأله عن الوصية الأولى والعظمى ، وهو يُضمرُ فى نفسه أنه وجبريل إلهان إلى جوار الله عز وجل ؟ أليس قد وعد المسيحُ هذا السائل بالجنة إن مات على توحيد الله عز وجل ؟ فماذا لو قيل لهذا السائل من بعد المسيح إن الله ثالثُ ثلاثة ؟ أفيصدقهم هم ويكذب المسيح ؟ فمن يضمن لهم الجنة بقولهم ؟ أفالضمانُ عليهم ؟ فكيف يتركُ ضمان المسيح إلى ضمانهم هم ؟ بل من يضمن لهؤلاء القائلين الجنة وقد خالفوا الوصية الأولى والعظمى التى لقنها المسيح لهذا السائل ؟

بل علام اتكأ القائلون هذه المقولة ؟ أفى الأناجيل الأربعة قول واحد قاله المسيحُ ينصُ على أن الله ثالث ثلاثة ، أو ينصُ على أن الثلاثة فى واحد ؟ وإذا كان الثلاثة واحداً ، فلماذا يقال أصلاً ثلاثة وهو فى النهاية واحد ؟

وإذا كان الله اثنين فقط فى مقولة أصحاب نيقية عام ٣٢٥ م ، فلماذا تثلث

بإضافة جبريل بعد مجمع نيقية بخمسين سنة ؟ وما شأن من قال باثنينية الأب والابن وناضل عنها وجادل بها ومات عليها قبل أن يتأله جبريلُ أيضاً ؟

بل ما شأن موسى والنبيين من قبلُ ومن بعد الذين تقدموا المسيح وقد دَعَوا إلى التوحيد الخالص وماتوا عليه ؟ أليسوا مع المسيح فى الجنة ؟ فلماذا تكتم الله التثليث عليهم وعلى من بعثوا فيهم فاستجابوا لهم وماتوا على ما دُعُوا إليه فدخلوا الجنة ؟

أفقد ارتضى الله التوحيد الخالص من الخلق أجمع قبل عيسى ، ثم أغلظ على الخلق من بعد فاشترط عليهم التثليث لدخول الجنة ؟

وإذا كان القول بالتثليث هو وحده المدخلُ إلى الجنة كما يقول علماءُ المسيحية، فلماذا تكتمهُ المسيحُ على الناس ؟ أفقد جاء ليُضلهم عنه أم ليهديهم إليه ؟

أفقد تكتمها على هذا السائل عن الوصية الأولى والعظمى ، وأسَرَّها فى آذان بعض تلاميذه ليستعلنوا بها للناس من بعده ؟ أفهو النبىُّ أم هم الأنبياء ؟

وَهَبْ أنه أسَرَّها لتلاميذه وحوارييه ليعلنوها للناس من بعده ، فكيف لم يُسجِّلوها هم أو الآخذون عنهم فى هذه الأناجيل وقد كتبت كلها بعد رحيله ، أو يحذفوا منها جواب المسيح على هذا السائل عن الوصية الأولى والعظمى : «اسمع يا إسرائيل : الربُّ إلهُنا ربٌّ واحد» وتعقيب السائل وقد اطمأن قلبُهُ بهذا الجواب : «بالحقِّ قُلتَ ، لأنه اللهُ واحد ، وليس آخر سواه !» ؟ أليست هذه نفسها شهادةُ المسلم : «لا إله إلا الله » ؟ فكيف خفيت على مجمع نيقية وعلى المجامع من بعد نيقية ؟ بل كيف خُفِيت على أساقفة نجران فى حوارهم ثلاث ليالٍ مع خاتم النبيين فى يثرب ؟

هذا الذى أنكر أن يقال لهُ : « أيها المعلمُ الصالح» فقال : « ليس صالحاً إلا واحداً وهو الله » ، الذى أبى أن يكون صالحاً مع الله ، كيف يُظَنُّ به أنه اللهُ أو إلهُ مع الله ؟

الذى قال : «أيها الآب ! كل شيء مستطاع لك ، فأجز عنى هذه الكأس![1] ولكن ليكن لاما أريدُ أنا ، بل ما تُريدُ أنت» (مرقس : ١٤ / ٣٦)، الذى سجلت الأناجيلُ له هذا الكلام ، الذى يبتهل إلى «الآب» (وهو الرب) ويسأله ويدعوه ويستغيثه ، ثم يُفَوِّضُ الأمر إليه ويذعن للمشيئة ، كيف يقال إنهُ «ابن الآب» وإنه والآب واحد ، إلهُ فى الله ، أو إله مع الله ؟

هب أن المسيح صلب بالفعل وقبر ثم قام من قبره فى اليوم الثالث كما يؤمن المسيحيون جميعاً . فلمن معجزة القيامة من بين الأموات ؟ أللمقبور فى قبره ، الذى قال على الصليب : « يا أبتاه (يعنى يا رباه) فى يدك استودعُ روحى» (لوقا: ٢٣ / ٤٦) . ولا فعل لميت ، أم المعجزة لله الذى لا إله إلا هو الحىُ الذى لايموت ؟

ولماذا يُؤلَّه المسيح وحده بهذه المعجزة ؟ أليس يقوم الخلق جميعاً ، برُّهم وفاجرهم يوم القيامة لله الواحد القهار ؟

ولماذا لم يُؤلَّه «لعازرُ» الذى أحياه المسيح بإذن الله فانشق عنه القبر وخرج يدبُّ على قدميه مدرجاً فى أكفانه ؟ ولماذا لم يُؤلَّه أيضاً عيسى يوم «أحيا» لعازر؟

ولماذا أيضاً لم يُؤلَّه نبى الله اليشع (اليسع) والصبى الذى «أحياه» كما تقرأ فى العهد القديم (الملوك الثانى : ٤ / ١٧ - ٣٧) ؟

ألأن المسيح ارتفع جسداً حياً أمام أعينهم إلى السماء ؟ فلماذا لم يؤله أحد نبى الله إيليا [2] (إلياس) الذى تقرأ فى العهد القديم (الملوك الثانى : ٢ / ١١ - ١٢) ، أنه ارتفع إلى السماء جسداً حياً تحت سمع وبصر تلميذه نبى الله اليشع (اليسع) ؟

---

(١) الكأس هنا كناية عن الموتِ على الصليب .

(٢) قصة صعود إيليّا إلى السماء بينما كان يسير مع خليفته اليشع ، واكتفى بنقل الفقرة ١١ كما يلى : «وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نار وخيل من نار ففصلت بينهما ، فصعد إيلياء فى العاصفة إلى السماء» .

نعم ، ثَمَّةَ فرق بين رفع إيليا ورفع المسيح : «أخذ» اللهُ إيليا قبل أن يأخذه أعداؤه ، لم يمسوه بسوء ، أما المسيح فى رواية الأناجيل فقد مكن الله منه أعداءه الذين رفعوه على الصليب حتى الموت ، ثم دفن ليبعثه الله من بعد يُطَمئن تلاميذه ، ثم يأخذه الله إليه ، ولكن أيهما أليق وأكرم ؟ أفى صلب الأنبياء كرامة؟ ناهيك بأن يقال إن المسيح إله أو ابن إله ، فكيف يصلب الإله أو يترك ابنه للصلب على أيدى بشر ممن خلق ؟

لابد لهذا من علَّة ، هكذا قال مؤلهو المسيح على البنوة لله : شاءت محبة الله الفائقةُ للبشر الذين عصوه ويعصونه منذ أبيهم آدم ، أن يكفر عنهم بقربان يعدلُ جسامة هذا العصيان ، فلم يجد قرباناً أكرم من المسيح يبذله فداء للبشر ، فَضحَّى بابنه الوحيد فداءً للخلق ، وتستطيع أن ترد على هذا بقولك : فلماذا خلق اللهُ جهنم للعصاة وهو ينتوى افتداءهم بالمسيح ؟ وإذا كان المسيح قرباناً من ذات الله ، فمن المضحى وهو نفسه الأضحية ؟ وهل يكفر الله المعاصى بالقرابين شأن آلهة الأساطير أم يكفرها بالتوبة والطاعة ؟ وهل كان الذين صلبوا المسيح يُقدمون لله قرباناً ، أم أن الله هو الذابح والذبيح ؟ وإذا كان المسيح لم يضره هذا الصلب ، ولم يفسد له جسد بل انبعث بجسده من قبره لم يَمْسَسْهُ سوء فبم كان الفداء ؟ أليس قد شبَّه الله عليهم ؟ وهل يليق بجلال الله عز وجل الذى وسع كرسية السموات والأرض أن يتحيز فى جسد بشر ، أو تكون له أم تنحو عليه وترضعه وتفطمه وتَغْذُوه ؟ ربما قيل لك إن الله عز وجل إذا ارتضى أمراً فعله ، لا يَحُدُّ من قدرته شيء ، وما جاز لمردة سليمان فى قماقمهم أهونُ على الله عز وجل ، الذى اتخذَ مريم العذراء جسداً تلبسَّ به زمناً على الأرض ، لايُعجزه تصريف مُلكه من محبسه وتدبير ملكوته ، لأنه سبحانه كلىُّ القدرة ، يتعاظم فلا تدركه الأبصار ، ويتضاءل إن شاء فيتلبس بالنملة والهباءة . هذا من تلبيس إبليس ، يزينهُ لأوليائه . أما أن قدرتهُ عزوجل لاتُحَدّ ، ما شاء فعل ، فهذا مُسَلَّمُ مقطوع به فى جنب الله عز وجل بمقتضى ذات ألوهيته ، ولكنك تَحيلُ على الله المحال ، لأن المحال عدم ، والعدم غير مقدور ، يعنى لاتتعلقُ به قدرةُ أو عجز ، والمحُالُ فى حقه جل وعلا أن يكون إلهاً وغير إله ، الخالق والمخلوق،

أن يَحُدَّهُ الزمانُ والمكان وهو خالق الزمان والمكان ، أن يُجْلَدَ ويُصْلَبَ مُريداً بذاته العَلِيَّةَ الذِّلَّةَ والمهانة وهو العزيزُ الجبار ، أن يموت ولو للحظة الحيُّ الذى لايموت، أو يتضع لخلقه الكبيرُ المتعال . ولماذا المحال ؟ لأن محبتُه «الفائقة» للبشر قد غلبته؟ ألا لو ظنَّ هذا البشرُ فَسُحْقاً للبشر أجمع .

ثم من قال أن الله «شاء» افتداء البشر من معاصيهم بقربان من ذاته يقدمه إليهم لا بقربان منهم يقدمونه إليه ثم يقال إن الله ما شاء فعل ؟ من قال إن الله «شاء» هذا ؟ لايصح الخبرُ بمشيئة الله إلا لنبى ، ولا يجوز التزيُّد على الأنبياء، فما بالك بخائضين فى ذات الله يتركون مُحْكَمَ القول إلى متشابهه ؟ قد قال المسيحُ فى هذه الأناجيل أنه يأتى بعده أنبياء كذبة كثيرون تعرفونهم من ثمارهم، أى بما يدعون الناس إليه ، بل وقال بالنص : «ليس كل من يقول لى يارب يارب يدخل ملكوت السموات ، بل الذى يفعل إرادة أبى الذى فى السموات ، كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم يارب ، أليس باسمك تنبأنا ، وباسمك أخرجنا شياطين ، وباسمك صنعنا قُوّات كثيرة ؟ [1] فحينئذ أصَرِّحُ لهم أنىَّ لم أعرفكم قط . اذهبوا عنى يا فاعلى الإثم (متى : ٧ / ٢١ - ٢٣).

ليس من يربب المسيح يدخل ملكوت السموات ، وإنما يدخله «الذى يعمل إرادة أبى الذى فى السموات» يعنى الذى يعمل مشيئة الله ، الذى يأتمر بأمره وينفذُ وصاياه ، فكيف يُنفذُ وصايا الله الذى يُخالفُ أولى وصاياه : «اسمع يا إسرائيل : الربُّ إلهُنا ربُ واحد» ، أى الله واحد وليس آخر سواه ، كما سأل ذلك السائلُ المسيح عن الوصية الأولى والعظمى وأخذها من فم المسيح نفسه ، لا يسألُ عنها أحداً بعده ، فمات عليها ، فدخل الجنة .

كان هذا كله بالطبع مثار جدل عنيف بين المسيحيين من بعد المسيح ، مؤلهين وغير مؤلهين ، وليس لديك شاهدُ على ما قاله غير المؤلهين بلسانهم ، فلم يحفظ لك التاريخ إلا مقولة المؤلهة وحدهم ، الذين استقرت مقولتهم بعد قرون

---

(١) «القوات» فى مصطلح الأناجيل يعنى الخوارق والمعجزات ، وإخراج الشياطين يعنى إبراء المجنون أو المصروع .

من رفع المسيح ، واتُّهِمَ مخـالفوهم بالهرطقة [١] ، أن قالوا ليس الابنُ من ذات جوهر الأب ، وطوردَ قائلو هذه الهرطقـة وحرقت أناجيلهم فلم يعد لديك دليل مقطوع به من كـتابتهم ، كالشـأن فى تلاميذ يحـيى بن زكريا عليهمـا السلام ، ولكن الدليل على مقالتهم المخالفةِ لمقولة مـجمع نيقية المنعقد سنة ٣٢٥ م للفصل فى الخلاف حول طبيعة المسيح بين المسيحيين أنـفسهم هو مجمع نيقية نفسه ، ولو لم يكن على طبيعة المسيح خلاف بين أتباعه لما كانت هناك حاجة أصلاً إلى انعقاد هذا المجمع وما تلاه من مجامع .

(١) «الهرطـقة» hairesis : اليونانـية من hairein أى اتخذ أو تخَـيَّر ، صارت فـى مصطلح الكنيسة إلى معنى ابتدع أو قال فى الدين كفراً .

البشارة

قال علماء المسيحية أن لفظة إنجيل هى لفظة يونانية هى «إيفنجليون» euaggelion[1] معناها الحرفى هو الخبر السار أو البشارة ، ولكن بشارة بمن أو بماذا ؟ أهى بشارة بشىء حدث أو بشىء سيحدث ؟ إن كانت بشارة بشىء حدث فهو المسيح نفسه الذى «تنبأت الكتب» بمجيئه ، فهو البشرى التى تحققت، ولكن علماء المسيحية لايقولون بهذا ، وإنما يقولون أن البشرى هى بشىء سيحدث ، وإن رسالة المسيح هى البشارة بهذا الذى سيحدث . فما الذى جاء المسيح يُبَشِّرُ به؟ أعنى ما هو الخبر السار الذى جاء يعلنه للناس ، فسميت به الأناجيل إنجيلاً ؟

قال علماءُ المسيحية إن الذى جاء المسيح يبشر به فى هذه الأناجيل هو قرب «ملكوت السموات» : «من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا ! لأنه قد اقترب ملكوت السموات» (متى : ٤ / ١٧) . هذه العبارة ملكوت السموات ، وتجىء أيضاً بفلظ «ملكوت الله» ، من العبارات الهائمة المبهمة فى مصطلحات الأناجيل ، استعصى فهمها حتى على الحواريين أنفسهم فما فتئوا يُسائلون عنها المسيح وما فَتِىءِ هو يضرب لهم المثل تلو المثل فى شرحها ، حتى فهموا أخيراً أنه يعنى بها الحياة الآخرة ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، إنها البشارة بقرب قيام الساعة . ولكن لماذا تَسَمىَّ الساعة ملكوتاً ، فيقولون فى صلواتهم : «لتكن مشيئتك ، كما فى السماء فكذلك على الأرض» (متى : ٦ / ٩ - ١٠)؟ الذى يُقربُ لك المعنى إن كنت من أهل القرآن هو قوله عز وجل يوم يرث الأرض ومن عليها ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر : ١٦] .

وربما كنى المسيحُ بلفظ «الملكوت» عن الجنة ، فقال «أبناء الملكوت» ، يعنى

---

(١) لاتنطق اليونانية حرف الجيم مشدداً ، وإنما تحيل الأول فى النطق نوناً . ومن هنا gg ينطقون التى فى euaggelion لاgg بل ng وينطقون eu «إف» .

الأبرار الداخلين فى عفو الله ورحمته ، المنعمين فى رضوانه ، أولئك «هم الوارثون» كما تجد فى القرآن .

ولكن ، كيف تصح البشارة بقرب قيام الساعة ؟ قد كان يُظَنُّ عصر كتابة مَتَّى إنجيله أن الساعة على الأبواب ، لقوله فى مرقس : «متى رأيتم هذه الأشياء صائرة فاعلموا أنه قريبُ على الأبواب . الحق أقول لكم لا يمضى هذا الجيل حتى يكون هذا كله» (مرقس : ١٣ / ٢٩ - ٣٠) ، لا يلبث المسيح أن يرفعه الله إليه حتى يعود فى مجيئه الثانى فتقوم الساعة . ولكن مضت القرون ولم تأت الساعة . وقد قال لهم المسيح فى نفس الموضع : «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين فى السماء ، ولا الابن ، إلا الآب » (مرقس : ١٣ / ٣٢) ، وكفى بهذا إقراراً من المسيح بأنه لايعلم إلا ما علمه الله ، أما الساعة فعلمها عند ربى لا يُجَلّيها لوقتها إلا هو ، كالذى تقرأ فى القرآن . فكيف يبشر المسيح بشىء لايعلم موعده . لم يبشر المسيح باقتراب ملكوت السموات إذن ، فقد مضت إلى اليوم قرون وقرون ولم تقم الساعة . بل لايصح لمؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبشر بقيام الساعة . الأحرى أن يُنذر بها و لايبشر ، فليست هى بالخبر السار إلا لمن ضمن الجنة ، ولايضمن أحد الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته ، وإنما هو يرجو عفو الله ومغفرته ، فكل عمل فى جنب الله قليل ، ولم يقل المسيح : تهللوا ! فالساعة قريب . وإنما قال : توبوا ! فقد اقترب ملكوت السموات . إنه هنا نذير لا بشير .

لم يبشر المسيح إذن بملكوت السموات ، إن فهمت ملكوت السموات بمعنى قرب قيام الساعة ، وإنما تستطيع أن تقول أنه أنذر بها . وقد قالها يوحنا قبله بنفس عبارته : «توبوا ! لأنه قد اقترب ملكوت السموات» (متى : ٣ / ٢) . ومن ثم لايصح اختصاص المسيح وحده بهذه البشارة ، أعنى النذارة ، حتى يُسَمَّى بها وحى اللهِ عليه «الإنجيل» ، فلم يغفل عن قولها من قبلُ ومن بعد نبىٍ .

قيل أيضاً أن بشارة المسيح هى البشارة بمغفرة الخطايا ، يعنى أنه جاء خلاصاً للبشر من خطاياهم ، وليس بشىء ، لقوله فى مرقس : «اذهبوا إلى العالم أجمع

وأكرزوا [١] بالإنجيل للخليقة كلها . من آمن واعتمد خَلَص ، ومن لم يؤمن يُدَنْ» (مـرقس : ١٦ / ١٥ - ١٦) ، فليس هو إذن خـلاصـاً للبشـر أجـمع ، وإنما الخلاص لمن آمن . وهذا صحيحُ فيه وفى سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين . فليست هى إذن بشـارة تتخصص به - وقـد دعا بها يوحنا قـبله : «كان يوحنا يُعَمِّـدُ فى البرية ويكرز بمعموديـة التوبة لمغفرة الخطايا» (مـرقس : ١ / ٤) . فلا مغفرة إلا بالإيمان والتـوبة ، أتباع المسيح وأتباع يحيى فى هذا سـواء . وما العِمادُ على يد يحيى أو عيسى إلا عَهْدُ على إخلاص التوبة .

ها قد استبان لك بالتحليل النقدى وحـده أن محور رسالة المسيح عليه السلام ليس هو البشارة بقيام الساعة - إن فـهمت ملكوت السموات بمعنى يوم الحساب - فلا أحد يبشر بقيام الساعة ولا يطلبها فى صلواته . وليس هو أيضاً «النذارة» بها ، فهـذا عام فى كل نبى لايخـتص به المسيح وحـده . بل حتى إن فهـمت ملكوت السـموات بمعنى الحـيـاة الآخرة «المُلْك يومـئذ للـه» ، فريق فى الجنة وفـريق فى السعيـر ، أو فهمت ملكوت السمـوات بمعنى الجنة فقط ، فلا يستـقيم لك هذا أو ذاك ، لأن التبشـير بالجنة والتنفير من النار هو قـول الأنبياء جميـعاً لم يغفل عن قوله نبى ، ولايختص به نبى دون نبى ، لايصح أن تنفرد به رسالة المسيح فيتسمى به إنجيله ولايصح أيضاً أن تكون رسالة المسيح هى «البشارة» بمغفرة الخطايا ، فهذه بشرى جميع الأنبياء من قديم لكل مـؤمن تاب وأناب فأسلم وجهه لله مخلصاً له الدين .

ولايصح بالذات ما قاله اللاهوتـيون من بعد فى تأصيل نظرية البشـارة بمغفرة الخطايا : قالوا بل من الخطايا مكتسب وأصلى . فأما المكتـسب فهو الذى يجترحه البشر فى هذه الدنيا ويصح تكفيره بالاستغفار والتوبة . وأما الخطيئة الأصلية فهى خطيئة يولدون فيـها ولا حيلة لهم فى دفعها لأنهم ورثوها ولم يجـترحوها . إنها

---

(١) ليست هى «كَـرَزَ» العربية يعنى لجأ واعـتصم ، وإنما هى منحولة من الآراميـة بمعنى صاح وصَوّت ، فهو كاروز يعنى نذير أى Kerald الإنجليزية ، وقد اختارتهـا الترجمات العربية فى مقابل Kerussein اليونانية بمعنى أعلن وبشر toproclaim .

خطيئة أبيهم آدم يوم نسى فأكل من الشجرة المنهى عنها . فباء بإثمها البشرُ جميعاً، الذين يولدون فى دنس هذه الخطيئة منذ أن طُردَ أبوهم من الجنة حتى مجيء المسيح ببشارة افتدائه البشر منها بدمه المسفوح على الصليب ، لأن «الآب» لايقبل قرباناً يعدل معصية آدم إلا دماً زكياً لم يولد فى دنس هذه الخطيئة ، وهو المسيح . ابن الله الوحيد الذى ولد لخلاص العالم . ولايصح هذا ، ليس فقط لأن الله تاب على آدم وزوجه قبل إهباطهم إلى الأرض كما قال القرآن : ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة : ٣٧] ، ليس هذا فحسب، وإنما أولاً وبالذات لأن الخطيئة لاتورث ، بل كل امرئ مُحاسَبُ فحسب بما قدمت يداه ، لا يسأل بما فعل آباؤه ، ولا يؤخذ بفعل ذراريه . وثانياً لأن معنى هذه المقولة هو أن الأبرار قبل المسيح - وفيهم أنبياء الله ورسله وصديقوه - ماتوا كلهم فى خطيئة آدم ، لاحظ لهم فى الآخرة . ولايصح هذا أخيراً وبالذات لأن المسيح لم يَقُلْهُ فى هذا الإنجيل الذى بين يديك ، ولايجوز التزيد على أنبياء الله ورسله ، ولاسيما فى أمر هو عمود الدين عند أصحاب هذا اللاهوت .

وقد جُودلَ أصحابُ هذه المقولة بمعظم هذا الذى قُلناه ، فأحيط بهم ، ولكنهم استدركوا على أنفسهم فقالوا إن الأبرار قبل المسيح - وفيهم أنبياء الله ورسله وصدِّيقوه ومنهم مريم عليها السلام - يُعفيهم الله بسبق الاصطفاء من وزر الخطيئة الأصلية فلا يولدون فى دنس خطيئة آدم ، وإنما تَحْملُ بهم أمهاتهم حملاً بريئاً من هذا الدنس ، يُرقِّعُون كما ترى قولاً بقول . فما صح لهم هذا ولا ذاك، لأنه متى فسدت المقدمات فقد فسدت النتائج .

إذا كان المسيح لم يبشر بالساعة ، ولم يبشر بمغفرة الخطايا مجاناً ، ولم يبشر بنسخ الولادة من دنس خطيئة آدم ، فبماذا بشر المسيحُ إذن فى إنجيله إذا كانت الإنجيل تعنى يونانياً البشارة أو الخبر السار ؟

يقول أهل القرآن إن بشارة المسيح إنما كانت بختام النبوات على يدى الذى يأتى بعده ، لقول المسيح فى القرآن ينص على هذه البشارة : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ

مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[الصف : ٦] .

لاتقرأ هذا أو قريباً منه فى إنجيل متى ومرقس ولوقا ، وإنما انفرد به «يوحنا» الذى جمع بين النقائض : ألَّه المسيح جَهْرَةَ فى مفتتح إنجيله ، وختمه بالنص على أن المسيحُ رفع ولم يقل بعد كل الذى يجب أن يقال ، كما يتبين لك من قول يوحنا على لسان المسيح : « إن لى أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ، ولكن لاتستطيعون أن تحتملوا الآن . وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لايتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية » (يوحنا : ١٦ / ١٢ - ١٣) . لم يُرشد المسيح أتباعه إذن إلى «جميع الحق» بل عليهم أن ينتظروا «الآخر» ، متمم النبوات جميعاً ، الذى يرشدهم إلى «جميع الحق» ، فلا يبقى بعده من رسالات السماء شيء يقال .

هذه فى الأناجيل هى شهادة عيسى للقرآن ولمحمد ﷺ قبل ختام النبوات به بعد رفع المسيح بستة قرون ، وهى بشارته بقائل جميع الحق ، وهى كافية فى ثُبوت بشارة عيسى بخاتم النبيين ، ولو قد تَلَبَّثَ عندها علماء المسلمين لكفتهم، ولكنهم أصروا على التماس أسم خاتم النبيين فى الأناجيل صريحاً على لسان المسيح ، وسيأتى .

على أن علماء المسيحية لم يُسَلِّموا لعلماء المسلمين بالذى قالوا ، وهذا بديهى، وإلا لدخلوا ودخل الخلق جميعاً فى دين الله أفواجاً ، وإنما يقول شراح المسيحية وعلماؤها ولاهوتيوها أن هذا الآخر الذى يأتى بعد المسيح ليرشد الناس إلى جميع الحق ، أى ليقول لهم ما لم يقلْه المسيح ، لأنهم لايستطيعون احتماله، الذى نعتهُ المسيح بروح الحق ، ليس هو بشراً من أنبياء الله ورسله ، وإنما هو «الروح القدس» ، ثالث الثلاثة فى عقيدة التثليث ، يعنون ملك الله جبريل صلوات الله عليه ، وهذا القول - إن تمنعت - مردود بما فى إنجيل يوحنا نفسه الذى تجد فيه بالنص من كلام المسيح لتلاميذه قبل القبض عليه : «وأما الآن فأنا ماضى إلى الذى أرسلنى وليس أحد منكم يسألنى أين تمضى . لكن لأنى قلت

لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم . ولكنى أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق . لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المُعَـزّى وهى (الفارقليط اليونـانية) . ولكن إن ذهبت أرسله إليكم» (يوحنا : ١٦ / ٥ - ٧) ، وهذا صـريح فى أن المسيح وهذا الآتى من بعده لايتعاصران على هذه الأرض ، لابدُ من رفع المسيح أولاً قبل مجىء هذا الآتى ، بينما تقـرأ فى يوحنا أن هذا الروح القدس كان معهـم قبل رفع المسيح ، بل إن المسيح نفخ فيهم هذا الروح القـدس قبل ارتفاع المسيح : «ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقـبلوا الروح القدس» (يوحنا : ٢٠ / ٢٢) . وهو مـردود أيضاً بأن « الروح القدس» عندهم إله (ولم يكن يوحنا يعلم بالطبع يوم كتب إنجيله أن جبريل سيتأله فى الربع الأخيـر من القرن الرابع) ، ولايليق بإله أن يتكلم من نفسه ، بل ينتظر سمـاع ما يقال له ثم يقوله للناس ، وإنما يصحُ هذا فى أنبـياء الله ورسله ، يُلقى إليهم وحيه فيتكلمون به ، شأن محمد ﷺ وهذا القرآن ، بل لايصح فى جبريل بالذات وإن لم يتـأله جبريل، لقول المسيح فى يوحنا : «ومـتى جاء المعزى الذى من عند الآب ينبثق، فهو يشهد لى » (يوحنا : ١٥ / ٣٦) لأن جبريل عليه السلام مَلَكَ الله إلى أنبيائه ورسله وقد سبق «انبثاقُه» ، لاينتظر المسيح حتى يرسله من عند «الآب» ، بل سبق «انبثـاقُه» مولد عيسى نفـسه ، لأنه النافخُ فى مريم ، المؤيدُ للمسيح فى المعجزات التى أجراها الله على يديه ، ولو كان عيسى إلهاً بذاته لما احتاج إلى جبريل ، ولو كان جبريل إلهاً بذاته لما احتاج إلى «السماع» من الآب ليتـعلم بما يقوله له «آب» من ذات جوهره ، ولو بقى جـبريلُ ملكاً على أصله لما جـاز أن يكون هو المبشـر به ، لأن الملائكة لاتتنزل على تـلاميـذ وإنما تتنزل على أنبياء كالشأن فى جبريل ومحمد صلوات الله وسلامة على ملائكته و أنبيائه .

وأخـيراً - وهو الفـاصلُ الحاسم - فـإن هذا الذى تنزل على التـلاميـذ يوم الخمسين (أى بعد خمسين يوماً من رفع المسيح كما تقرأ فى سفر أعمال الرسل) لم يقل لهم شيـئاً . لا من نفسه ولا سـماعاً من الآب . كما قـال المسيح فى الآتى بعده ، وإنما كان دوره هو تأييدهم ونصرتهـم وإجراء العجائب على أيديهم كالذى تَقْرؤهُ فى سفر أعمـال الرسل . ليس هذا إذن هو الآتى بعد المسيح ، الذى «شَهد له» وإنما الشاهدُ للمسيح هو هذا القرآن .

أما لفظة «الفارقليط Parakletos» التى سمى بها المسيح هذا الآتى بعده ، فهى من اليونانيــة الكنسية التى لم تُسمع قط من اليونان قبل عــصر المسيح ، يعنى أنها منحوته نحتاً لتسمية هذا الآتى . وقد قال علمـاء المسيحية أنها يسهل اشتقاقها على المفعـولية من الفـعل اليونانى بمعنى اسـتغاثه واسـتنصرهُ واسـتعانه فـهو إذن المُستغاث ، المستنصر ، المستعان : أخذوا Kalein اليونانية بمعنى ناداه واستدعاه ، وأخذوا المقطع اليونانى Para بمعنى إلىّ ، حوالى ، وكـأنك تقول «هَلُمَّ إلىَّ!» . ولا تزال : Parakalo فى اليونانـية تفيـد معنى الطلب والرجـاء (أرجوك!) هذا التفسير المسيحى للفظة الفارقليط Parakletos بمعنى النصير الشفيع ، تفسير متأثر بالدور الذى اضطلع به «روح القـدس» من بعـد رفع المسيح مـن نصرة التـلاميـذ وتأييدهم بالعجائب التى أجراها على أيديهم على نحـو ما تقرؤه فى سفر «أعمال الرسل» وإن لم يقل لهم شيئاً مما قال المسـيح إنه سيرشدهم إليه ، الذى يقول لهم «جميع الحق» ، ومن ثم لايتفق هذا التفـسير مع دور هذا الآتى من بعد المسيح ، لأنه ليس المعنى بها .

ولاشك أن يوحنا الكاتب لهذا الإنجيل حين نص على أن الفـارقليط هو نفسه روح القـدس جبـريل : «وأما الفـارقليط [1] الروح القدس الذى سـيرسله الآب باسمى فهو يعلمكم كل شىء ويذكركم بكل ما قلته لكم» (يوحنا : ١٤ / ٢٦) . كان مـتأثراً بهذا الذى كـان ، فخلط قلمــه بين «روح الحق» و«روح القدس» التى سمى بها الفارقليط مرة واحدة فقط فى هذا الموضع وهى فى كل المواضع الأخرى «روح الحق» وليست روح الحق هى روح القدس كما ظن يوحنا المتأثر بالذى كان.

والذى ينبـغى التنبيه إليـه أن ترجمـات الإنجيل بكل اللغـات استبـقت لفظة فارقليط على أصلها ، تحاشياً من التورط فى ترجمة معناها إلى اللغة المُترجْم بها، فقالت الترجمـة العربية حتى أوائل هذا القرن «فارقليط» وقالت الترجـمة العبرانية «بِرَقْليط» وقالت الفرنسية Le paraclet ، إلخ . ولكن من اللغات الأوروبية من تصـدت لهـذه التـرجـمـة فـقـالت الألمانيـة «المُـدافِع» أو «الشـفـيع» المتـشـفـع به Fürsprecher وتابعـتـهـا الإنجليـزيـة على هذا المعنى فـقـالـت الناصح

المشير Counsellor وكأنهـا المحامى ، وقالت الإنجليزية أيضـاً «المعزى» المواسى Comfrter وأخذتها عنها الترجمة العربيـة المعاصرة فقالت «المعزى» ، لاتجد اليوم غيرها فى ترجـمات الإنجيل العربية . وليس هذا كله بصحـيح من حيث اللغة ، لاسيـما «المعـزى» ، وإنما هو التفـسيـر بالعقـيدة ، لا التـفسـير باللغـة ، فليس فى Parakalein اليونانية شىء من معانى العزاء والمواساة ، وليس فيها أيضاً شىء من معانى الشفاعة والمدافعة والمـشورة ، وإنما هى - إن اشتققتها من Parakalein كما يقـول علماء المسيحـية - تعنى فقط المستـغاث المستنصر المسـتعان ، أو الذى تتوجه إليه بالرجاء ، على معناها الباقى فى اليونانية المعاصرة .

أما علمـاء المسلمين فقـد دلهم بعض السريان من قديم علـى أن فارقليط هذه تعنى فى اليونانية «أحـمد» التى فى القرآن اسماً لخاتم النبيـين الذى بشر به عيسى قومه فى القرآن فذهب بعض المفسرين إلى أن «الفارقليط من أسمائه ﷺ ، وقد جادل بهـا المسلمون أهل الكتاب إلى هذا العـصر . وانتبـه علماء المسيحـية إلى خطورة هذا حين يقرؤه المسيحيون العرب الذين يعرفون على التحقيق معنى الاسم «أحمد» أو «مـحمد» فى لغتـهم العربية ، ولا علم لهم بتلك اللغة اليـونانية التى كتبت بها أُصولُ الأناجيل وصيغت بها لفظة Parakletos هذه التى استُبْقِت على أصلها «فارقليط» فى الترجمات العربية حتى أوائل القرن العشرين ، فلا يستطيعون لمقولة علماء المسلمين هؤلاء دفعاً .

قال علماء المسيحية [1] إذن أن Parakletos اليونانية لاتعنى قط «أحمد» وإنما تعنى «المعـزى» فـحسب ، مـعـقبين بأنهـا فى الأصل اليـونانى Parakletos ، وليـست Periklitos ، «فليس فى المتن شىء مـن معـانى الحـمـد» ، وتوقـفت ترجمات الإنجـيل العربية عن استخـدام لفظة الفارقليط ، ووضعت فى موضـعها لفظة المعزى قطعاً للجدل حول شـبهة معنى «الحـمد» فى الاسم ، على مثـال ما فعلت الترجمة الإنجليزية Comfrter.

هذا الدفعُ «اللغوى» بأن الفارقليط لاتعنى أحمد ، دفع مـتأخر بطبيعة الحال،

(١) تجد «الفارقليط» هذه بلفظ «المعزى» فى الترجمات العربية المعاصرة .

لم يُعْرف قبل مبعث خاتم النبيين المسمى «محمداً» أو قل إنه لم يعرف قبل اطلاع الغربيين على معنى اسمه ﷺ ، فهبوا لمنع اشتباه اسمه باسم ذلك الآتى بعد المسيح ، الذى إن لم ينطلق هو لا يجىء . لكن هذا الدفع لم يطفئ الشبهة ، بل زادها اشتعالاً : ها قد علم المسلمون أن فى اليونانية «فريقليط Periklitos » بمعنى«أحمد» شبيهةً كل الشبَّه بـ«فارقليط Parakletos» المثبتة فى الأصل اليونانى، فلم لاتكون هذه هى تلك ، تحرّفت على قلم يوحنا الكاتب فى إنجيله ؟

على أن علماء المسيحية أصحاب هذا الدفع اللغوى لم يُوَفَّقُوا ، فليس معنى فارقليط Parakletos اليونانية هو المعزى كما مر بك وكما يعلم دارسو اللغة اليونانية ، ولا معنى للإصرار على أن الفارقليط يعنى المعزى . وليس بصحيح أيضاً أن Parakletos لاتعنى «أحمد» ، وأنها لو كانت أحمد لقيلت بلفظ Periklitos ، بل Parakletos بذاتها ودون افتراض تحريف أو تحوير ، تعنى أحمد أيضاً ، إن اشتققتها لامن Parakalein وإنما من Parakleiein ، المقطع الأول Para بمعنى المبالغة وتجاوز الحد ، والمقطع الثانىKleiein فِعْلُ بمعنى مَجّدَهُ وحَمَّدَهَ فهو المحمود أكثر من غيره ، شأن أحمد التى جاءت فى القرآن ، وفى هذا تعليل لمجيئها على «أحمد» لا «محمد» لأن القرآن ينظر إلى المكتوب فى الأناجيل اليونانية لا ما نطق به المسيح بلغته ، وليس فى اليونانية صيغة «مُفَعَّل» التى فى العربية والعبرية ، وإنما فيها المقطع Para الذى يفيد المبالغة وتجاوز الحد ، والمحقق الذى لايصح فيه جدل أن المسيح لم يقل فارقليط أو فريقليط ، فهو لايتكلم اليونانية ولا يُحَدِّثُ تلاميذه بها ، وإنما هى ترجمة من يوحنا الكاتب ، لاتدرى عما نقل ، فلا تدرى هل أخطأ أو أصاب .

هذا إن قلت أن «فارقليط» يونانية ، ولكنك لاتستطيع أن تقول أيضاً – وهذا هو الأرجح – أن «فارقليط» ليست يونانية ، وإنما هى عبرية – آرامية «بِرَقْ+ليط» على ما نطق به المسيح بلغته ونقلها على حالها يوحنا الكاتب حسبما استقام له

---

(١) راجع الكتاب المقدس طبعة الفاتيكان العربية ، المرجع المذكور ، حواشٍ على مجلد العهد الجديد ، ص ٥٠٠ .

نُطْقُهَا بلسانه اليونانى . الذى يَدُلُّكَ على هذا أن العبرية المعاصرة تستخدم «بِرَقْليط» هذه بمعنى المحامى ، لا اسم عندها للمحامى غيره . وأن لفظة «برقليط» العبرية - الآرامية معناها كاشف الغشاوة أو واضع الإصر ، وهو نعته ﷺ فى القرآن .

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

والإنجيل المعنى فى هذه الآية هو بلاشك هذا الإنجيل اليونانى الذى بين أيديهم، فما كان الله ليُعمِّى عليهم إنجيلاً آخر ، وما كان القرآن ليقول إلا حقاً. لأنه ها هنا يتحدى أهل الكتاب بهذا الحق : إنه عندكم مكتوب فى إنجيلكم فَتَلَمَّسُوهُ فيه ، باسمه أو بنعته ، لقوله عز وجل مباشرة بعد ذكر بشرى المسيح قومه بمحمد فى الآية ٦ من سورة الصف : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف : ٧ - ٨] .

هذا قاطع فى بشارة الإنجيل بخاتم النبيين ﷺ ، سواءُ قلت إنه «الفارقليط» المتنازع عليها صبريحاً فى هذا الإنجيل .

هذه هى «البشارة» إن قلت إن «الإنجيل» يونانياً معناها البشارة .

المسيح ابن الله

إننا نتصدى لبعض تلك الشُّبَه اللغوية ، والتى جرت إلى ما جرت إليه ولم يتوقف عندها أحد ، وأول هذه الشُّبَه ، شُبْهةُ «نحوية» ، على أساسٍ من هذه الشبهة النحوية قال أصحاب مجمع نيقية ، الذين أخطأوا من قبل فهم عبارة «بار» بمعنى«ابن» و«أبَّا» بمعنى «الأب» ، إن المسيح ابن لأب هو الله ، وأسموه من بعد «ابن الله» ، ورتبوا على هذا أن الابن من ذات جوهر الآب ، وأنه والآبُ واحد، وهذا مرفوض بمنطق «النحو» وحَده : من كان ابنا لله فليس هو الله ، ناهيك بأن تلد الآلهةُ أو تولد .

كان عُذْرُ الحواريين الذين كتبوا هذه الأناجيل أو كُتبت عنهم باليونانية ، هو ظنهم أن «الأب» تصح بمعنى «الرب» فى كل اللغات ، لا فى الآرامية والعبرية وحدهما ، ووحدهما فقط ، فكتبوها باليونانية Pater (نظير Father الإنجليزية بمعنى الوالد الذى ولد) ، وعن هذه الأناجيل نقلت كل الترجمات .

على أن الآرامية - شأنها شأنُ العبرية - تستعمل لفظة «آب» (الأب المعروف) فى الإشارة إلى الله عزوجل - تلك التى ضلَّ بها كثيرون ممن لايفقهون مجاز اللغات السامية - ولكن الآرامية - لغةُ المسيح عليه السلام مع عشيرته وحوارييه - تَخْتُمُ اللفظ بألف المد على التعريف ، فتؤول إلى «أبَّا» ، أى الأب بمعنى الرب لا بمعنى الوالد الذى ولد ، وتجوز أيضاً على النداء والمناجاة : ربى ! لا يا أبى .

أما أن «الآب» ، «الأب» معناها «الرب» فى الآرامية والعبرية ، فدليلُكَ الدامغ هو ذلك العَلَمُ العبرانىُّ «أبِيَّاهُو» بن رِحُبْعام بن سليمان بن داود ، الذى سبق مولدُهُ مولدَ المسيح بسبعة قرون على الأقل ، وهو اسم مركب من شقين «أبى + يهوَا» (يهوا هو اسمُ اللهِ فى العبرية من بعد موسى) ، لايصح لك أن تتصور ولو للحظة أن معنى الاسم الذى سماه به رِحُبْعام بن سليمان بن داود هو «الله أبى» أعنى أبى الذى ولدنى ، إذن لذبحه اليهود فور هذه التسمية على مرأى

من أبيه ، إن لم يذبحوا أباه معه ، وإنما فهم اليهود وأراد رحبعام الأبَّ بمعنى الرب فى مصطلحهم ، فالمعنى هو «الـلهُ ربِّى» ، لا «اللهُ والدى» كما يفهمها علماء أهل الكتاب الذين لايفقهون مجاز الساميات [١] .

هناك دليل آخر وهو قولُ المسيح عليه السلام فى الأناجيل : «إنى أصعدُ إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم» (يوحنا : ٢٠ / ١٧) يرادفُ الأولى بالثانية ، أى أن أبى وأباكم هو إلهى وإلهكم ، لايريد بالطبع إنى أصعدُ إلى والدى ووالدكم الذى هو إلهى وإلهكم ، وإنما أراد إنى أصعد إلى ربى وربكم الذى هو إلهى وإلهكم ، كلانا مربوب لله عز وجل ، والمأبُوُّ آراميا وعبرياً يعنى المربوبُ عربياً ، لاتصح . لاتصحَ «الأب» عربياً بمعنى «الرب» وإنما اضطرت الآرامية والعبرية إلى هذا المجاز لاستنفادهما لفظة «راب» فى معانى أخرى ليس منها الرب «الإله» ، وهو معنى الكبير ، الرئيس ، الإمام ، المُعَلم المُربِّى . أما العربية فهى لاتحتاج إلى هذا المجاز المُوذنِ بالخلط والتخليط ، وإنما تقول ربى ، حين تريد «إلهى» وتقول أبى ، تعنى «والدى الذى ولدنى» وقد فهم القرآن المعجز مراد المسيح من قوله بالآرامية «أبى وأبوهم» فلم يقل على لسان المسيح «أبى وأبوكم» على الترجمة الببغائية ، وإنما قال عز وجل على لسان عبده ورسوله عيسى بن مريم فى خطاب قومه : ﴿**وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ**﴾ [مريم : ٣٦] ، أى أن مربوبية المسيح والبشر جميعاً لله عز وجل الواحد الأحد هى الصراط المستقيم، لا صراط غيره .

عليك إذن كلما قرأت فى الأناجيل لفظة «آب» ، «أب» حين تُعرَّفُ بالألف واللام ، أو حين تضاف إلى المسيح :«أبى» - وأنت تعلم مسيحياً كنت أو مسلماً أن المسيحَ غير ذى أبٍ - أن المراد فيها هو «الرَّبُّ» ، «ربى» ، فتفهم منها ما أراده المسيحُ على وجه القطع واليقين ، لا ما فهمه الذين ألَّهُو المسيح على البُنُوَّةِ لله عز وجل فى مجمع نيقية عام ٣٢٥ م فَبَنَوا صرح مقولتهم فى المسيح على خطأ لغوى بيِّن ، لا يصح من عالم فقيه .

---

(١) انظر المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة ص ١ .

ولكن . . يشاءُ ربك لهذه الكلمة اليونانية الأصل Pater (يعنى الأب) ونظائرها فى كل اللغات أن تكتسب بمحض الاستعمال على لسان المسيحى فى بقاع الأرض - أياً كان لغته - كُلَّ معانى القداسة الواجبة لله عز وجل وحده تقرؤها فى وجه هذا المسيحى وهو يقرأ فى صلاته :«أبانا الذى فى السموات»، فتقطع بأنه لايريد بها «أبانا الذى ولدنا» ولا «أبا المسيح الذى فى السموات» ، وإنما هو يمثل أمامك فى صلاته رجلاً آرامياً - عبرانياً يريد بها ما كان يريده الرجل الآرامى - العبرانى فى زمن المسيح : الأبُ = الرّب ، لا إله غيره .

وإذا كانت «الأب» تعنى فى حق الله عز وجل آرامياً وعبرياً - لسان المسيح عليه السلام ولسانَ قومه - الرب الإله فقط لاغير، لا الأب الوالد ، فكيف جاز فهمُها فى المسيح وحده على معنى (أبُوَّةِ) الله إياه ؟ كيف يجىء المسيح بلفظة الأب فيما ترويه الأناجيل من قوله : «وأما أنت فمتى صُمْتَ فادهن رأسك واغسل وجهك ، لكى لاتظهر للناس صائماً بل لأبيك الذى فى الخفاء، فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية» (متى : ٦ / ١٧ - ١٨) فلا يفهم السامع «المأبُوُّ» [١] من لفظة «أبيك» فى هذا الكلام إلا معنى «الرب»، أما إن سمعها من المسيح يناجى بها ربه :« أيها الآب ، نجنى من هذه الساعة!» (يوحنا : ١٢ / ٧) فهذا السامع يفهم منها فى حق المسيح وحده لا الرب ، وإنما الأب الوالد ؟ لم يكن هذا بالطبع هو موقف كتبة الأناجيل اليونانية التى بين يديك ترجماتُها، وإلا لأوقعت كتبتها فى التناقض ، ولكنه كان موقف الذين استعانوا بهذه الأناجيل اليونانية فى تأليه المسيح على «البنوة» لله عز وجل فى مجمع نيقية عام ٣٢٥ م بعد رفع المسيح بنحو ثلاثة قرون .

وكما أله مجمع نيقية المسيح على البنوة لله ، وقع فى نفس الشبهة النحوية المجمع التالى الذى أله جبريل على «الملائكية» لله ، أن كان جبريلُ «ملاك الرب» النافث فى مريم كما قال لوقا فى إنجيله . وقد جَانَبَ هذا المجمع التوفيق جملة

---

(١) أباهُ يأبوهُ يعنى صار له أباً ، والمفعول منه «مَأبُو» . ومن هذا جاءت «الآب» لغة فى «الأب»: إنه «الآبى» الذى يأبو ، رُخمت ياؤه .

فى تأليه جبريل على أساس من الأناجيل التى بين يديك ، فليس فيها قط أيما شبهة فى تأليهه كما وقعت الشبهة فى المسيح بإساءة فهم عبارة «بار - أبًا» كما سترى لأنه إن جاز لمجمع نيقية القول بأن المسيح هو «ابن الله الوحيد» ليُخْرِجَ من البنوة لله «آدم» المسَمَّى ابناً لله فى إنجيل لوقا هو الآخر ، فليس بمستطاع القولُ بأن جبريل هو «ملاك الرب الوحيد» لأن ملائكة الرب أكثر من أن تُحْصَى ، ولايعلم جنودَ ربك إلا هو ، فلماذا يتخصص من دونهم جبريل بالتألُّه ؟ ولماذا أختير جبريلُ وحده من دون الملائكة ليكون هو من ذات جوهر الله ؟ ألأن معنى اسمه هو «جبار الله»أو «رجل الله» ؟ فماذا فى «ميكائيل» الذى يقولون أن معنى اسمه «الذى هو كالله» ؟ أليس ميكائيل بها أولى ؟ ولكن ميكائيل لم يكن هو النافِثَ فى مريم . وقد ظنوا - وقد ألهوا «المنفوث» من قبل على البنوة لله - أن المنطق لايستجيز أن يستعلى المنفوث على النافث ، ولكن هل ألْزمك أحد بتأليه المنفوث حتى تضطر إلى تأليه المنفوث ؟

فى مثل هذه الشبهة أيضاً وقع القائلون بتأليه مريم على المضاف والمضاف إليه، فهى «أمُ الله» - وإن سمعتها منهم «أمُّ الإله» - وكأنهم يخففون عليك من وقعها فى أذنيك وكأن الإله غير الله - ولكنك لاتستطيع أن تقول «اللهُ أم» أو «الإلُه أم» فيمتنع التظنُنُ فى أن مريم هى الله أو الإله بمقتضى النحو وحده ، ناهيك بامتناع الأمومة والبنوة فى حق الله .

وقد كان بالفعل أناس أَلَّهُوا مريم لمجرد أنها «أم عيسى» وقد أَلَّهُو، فلا يصح أن تكون الوالدةُ أدنىِ من المولود . وقد أشار القرآن إلى هذا فى نعيه على ما قيل فى المسيح : **﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾** [المائدة : ١١٦] ، ولكن «عبادة مريم » لم تستقر طويلاً بعد نزول القرآن ، بل نُبِذَت واستُبِقت لمريم كرامة الأمومة لله (mere de Dieu) .

ولو أنصفوا لفعلوا نفس الشىء فى باقى أفراد الثالوث الأقدس ، فاستبقوا لعيسى كرامة النبوة والرسالة ، واستبقوا لجبريل كرامة المَلَكِ المقرب ، وأفردوا الواحد الصمد لا إله غيره بالربوبية لهذين وللبشر أجمع .

ولكنك لاتهدى من أحببت . إن قارعتهم بالمنطق قالوا لك وهل يؤخذ الدين من أفواه المناطقة ؟ هذا هو الوحى الذى توارثناه كابراً عن كابر .

لا يؤخذ الدين من أفواه المناطقة . هذا صحيح . ولكن لايصحُ فى مقابلِهِ أن يُقال ليس فى الدين منطق . لأن الدين هو المنطق . وهل تَعَبَّدَ اللهُ البشر من دونِ الخلق إلا به ؟

والدينُ وحيُ اللهِ على رسله ، نعم . فهَّلا استمسكوا بما قال موسى وعيسى والنبيون من قبلُ ومن بعد ، اللهُ واحدُ ، وليس آخَرُ سِواه ؟

أما الشبـهة الثانية ، فهى شبـهة لغوية : ظنوا بلغتهم اليـونانية (وقد علمت يونانيـة هذه الأناجيل) أن «آب» ، «أبَّا» ، «أبى» لاتـعنى فى لغة المسـيح إلا أبى الذى ولدنى ، وهى فى لغةِ المسيح تعنى «الربُّ» حين يقصدُ بها اللهُ عز وجل.

لن أثقلَ عليك بالرجوع إلى معاجم اللغتين العبرية والآرامية لتستوثق مما أقُولُهُ لك ، أى لتقرأ فيها أن «الأب» فى هاتين اللغتين تعنى أيضاً الفاطر المبدع البارى، ولن أحـيلك إلى قول المسـيح فى هذه الأناجيل اليـونانية يكنـى فيهـا عن الرب بالأب، ولن أستشهـد لك بتسمية حفيد سـليمان بن داود «أبيَّاهُو» أى «الله أبى» على معنى الله ربى التى تسمى بها أيضاً ابنُ لهارون أخى موسى عليهما السلام ، وليس لك أن تتصور قبولَ مـوسى هذا الاسم لابن أخيه ، على معنى اللهُ أبى ، وهارونُ هو أبوه . وإنما هى «الله ربى» لايصح غيرها فى اسم لابن أخى موسى.

ولكنى سأدُلُّك على الشـاهد اليقين الذى لاتصحُّ فيه مماحكة مـن قول موسى عليه السلام نفسه فى هذه التوراة التى بين يديك ترجمتها العربية التى أشرف على ترجمتها مسيحيون لاتشكُ فى مسيحيتهم .

قال موسى فى هذه التوراة التى بين يديك بلغته العبرية : «هَا لِيهوا تِجْملُوا - زُوت عام نَبـال ولو حاخام ؟ هَالوا - هو أبيـخا ، قانيـخا ، هُو عاسخـا ويخُو نِينخا؟» وترجمته العربية المعتمدة : «ألرب تكافئون بهذا يا شعباً غبياً وغير حكيم؟ أليس هو أباك ومُقْتنيك ، هو عَمِلَكَ وأنشأك؟» (تثنية : ٣٢ / ٦) .

ليس بعد هذا دليل ، وموسى نفسه يجانس الأب على الربِّ .

هذه هى الشبهة اللغوية الأولى . أما الشبهة الثانية فهى ظنهم أن «بار» العربية - الآرامية تعنى الابن المولود لأب ، وهى تعنى أيضاً بذات لفظها ورسمها فى الخط العبرى - الآرامى كما تقرأ فى معاجم هاتين اللغتين : البارُّ المبرور على معنى الصفى المختار . لايُفهَمُ أيهما المقصود «البار أو الابن» إلا من السياق وحده . ومتى قد انتفت الأبُ بمعنى الوالد فى حق الله عز وجل ، وإنما هو «الرب» فلا يصح لك أن تفهم من «بار - الرب» أنه ابن الرب وإنما تقول إنه «مختار الرب» حين تسمع بالآرامية «بار - أبَّا» ، لأن «بار» العبرية - الآرامية ، هى من الجذر العبرى - الآرامى «بَرَرْ» يعنى اصطفى وتَخَيَّر ، فهو الصفى المختار .

ومن طريف ما تقرؤه فى الأناجيل عبارة مرقس : «ولما رأى قائد المئة الواقف مقابله أنه (أى المسيح الذى على الصليب) صرخ هكذا وأسلم الروح قال حقاً كان هذا الإنسان ابن الله» (مرقس : ١٥ / ٣٩) ، التى تجدها هى نفسها فى لوقا : «فلما رأى قائد المئة ما كان ، مَجَّدَ اللهَ قائلاً بالحقيقة كان هذا الإنسان باراً» (لوقا: ٢٣ / ٤٧) . هذه المقابلة بين النصين فى مرقس ولوقا تدلك بوضوح - والقائل هو القائل فيهما - على أن «بار» فى مرقس فُهمت بمعنى الابن ، وفُهمت على أصلها فى لوقا بمعنى «البار» .

عليك إذن أن تنحو نحو لوقا فى هذا الفهم كلما قرأت «الابن» أو «ابن الله» فى الأناجيل التى بين يديك حتى لايستشكل عليك مراد المسيح عليه السلام منهما إن قالها أو خوطب بها أو قيلت فيه من بعده ، فلن يستشكل عليك أن يكون المسيحُ عليه السلام صفى الله أو مختار الله ، وهل أنبياء الله ورسُلُه إلا أصفياؤه ومختاروه ؟ فالحمدُ لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

والأطرفُ من هذا فى الدلالة على أن «بار» المعنية ليست هى الابن ، وإنما هى «البار» على معنى الصفى المختار ، هو اسم ذلك الشقى «باراباس» الذى أبى اليهودُ طالبوا دم المسيح افتداء المسيح به حين عَرَضَ عليهم بيلاطس البُنطى أن يطلق لهم المسيح ويصلُب «باراباس» مكانه ، والذى قد لاتعلمه أن أصل هذا الاسم «باراباس» - لاتندهش - هو «ابنُ الله» على قول من قال إن «بار» يعنى

ابن ، «أبَّا» يعنى الرب :«باراباس» فى أصلها الآرامى هى «بار - أبَّا» . وأنت بالطبع مسيحياً كنت أو مسلماً لاتستجيز أن يكون معنى اسم هذا الشقى «باراباس» هو «ابن الرب» أو «ابن الآب» أو «ابنُ الله» عليك إذن أن تفهم معنى الاسم «باراباس» على أنه «مختار الرب» أسماه به أبوه يوم ولد تَيَمُّناً وتفاؤلاً ، ثم خاب فيه فألُه .

المسيح عليه السلام انفرد من دون الخلق جميعاً بمعجزة غير مسبوقة ، هى ولادتُهُ لأمٍ بغير أب ، فشبه لمن شبه له أنها البنوةُ لله ، وجاءت دعوى الألوهية ترتيباً على هذه البنوة المدَّعاه ، ولم يفطنوا إلى أن الله عز وجل يخلق ما يشاء ويختار ، أى يخلقُ ما يشاء على الوجه الذى أراد ، إنما أرادها آية للناس ، وهو على أمثالها قادر فى كل حين ، وقد عجبت مريم عليها السلام حين جاءها جبريلُ بالنبأ ، فذكَّرها جبريلُ بإعجاز الله فى حمل خالتها بيحيى من قبل وقال: «لأنه ليس شىء غير ممكن لدى الله» (لوقا : ١ / ٣٧) . فهمت مريم أن الله هو خالقُ هذا الجنين الذى فى بطنها ، فلم تُؤلِّه المولود الذى ولدته. إنها معجزة من الله عز وجل يضربها آية للناس الذين يمرون على آيات الله عُمياناً ، فما الخلقُ من الأبِ والأم معاً بأهون فى إعجاز الخلق من ولادة عيسى بغير أبٍ ، ولكنه خرق العادة والإلف ، كى يلتفتَ الناسُ إلى إعجاز العادة والإلف . ولا فضل فى هذه المعجزة لجبريلَ أو المسيح ، حتى تتأصل عليها ألوهيَّةُ المسيح وجبريل ، أو حتى يتميز أى منهما بميزةٍ ترفعه عن أصل طبيعته وكينونته : جبريلُ ملك من ملائكة الله ، والمسيح بشر ممن خلق .

والذى لايلتفت إليه كثيرون أن هذه المعجزة قبل أن تكون معجزة فى المسيح، هى معجزة فى مريمَ نفسها الوالدة العذراء التى لم يمسسها بشر ، اجتمع فيها للمسيح الأب والأم معاً ، فهى صنْوُ المسيحِ فى الآية والمعجزة : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون : ٥٠] .

قال المسيح عليه السلام فى القرآن يتشفعُ عند الله عز وجل للذين بَدَّلُوا بعده : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة : ١١٨] .

لن تستطيع مهما حاولت أن تقول أبلغ من هذا القول الذى قاله المسيح فى القرآن : لم يقل إنهم «عبيدك» ، فأنت وما شئت فيمن خلقت ، ولكنه قال «عبادُك» ، وكأنه يومئ إلى أنهم وإن خاضوا فى جلال ذاتك فإنهم يُريدون وجهك . افتتنوا بى حتى سَفِهُوا ، فارتفعوا بى من ذليل مقامى منك إلى عزيزِ مقامِك ، وأنت القاهرُ فوق عبادك ، إن تغفر لهم فأنت عليها قادر .

فماذا كان جواب العزيز الحكيم ؟ قال يمتدح صدق المسيح فى الذى قاله ، ويتكتم على الخلق أجمع بماذا هو مُجيبُه : ﴿**قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [المائدة : ١١٩] ، أى هذا لك يا عيسى ولمن صدق بك على الأصل الذى قلت لهم . وذر القضاء لصاحب الملك : ﴿**لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [المائدة : ١٢٠] .

ألا هل بعد هذا بلاغ ؟

البت فى مسألة الصلب

نحن لانجادل الأناجيل فى كيفية الصلب الذى كان ، فالصلب واقعُ وَقَع لقول القرآن : ﴿وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ ، أى حدث الصلب وحدث القتل ، ولكنهما كانا فى المصلوب الذى شبه لهم ، لا فى عيسى الذى رفع ، ولانجادل الأناجيل أيضاً فى استشهادهم من المزامير على كيفية الصلب وما قاله المصلوب من مثل «ثقبوا يدى ورجلى» ، «على ثيابى اقترعوا» ، هذا كله فى المصلوب ، لا فى شخصه ، ولا يصح قصر «نبوءات المزامير» على المسيح وحده ، بل منها ما هو فى نجاته ، ومنها فى إيقاع الصلب على المشبه به ، الذى أوقع به عند طالبى دمه فوقع إثمه على نفسه : «كراً جبّا ، حَفَرهَ فسقط فى الهُوَّة التى صنَع ، يرجِعُ تَعَبُه على رأسه وعلى هامته يَهْبطُ ظُلْمُه » (مزمور : ٧ / ١٥ - ١٦) .

فإن الله يفتن الناس فى هذه الدنيا بما شاء وكيفما شاء ، وأن الفتنة من الله عز وجل على أصل معناها فى اللغة ، اختبار وتمحيص ، ليُهلِكَ من هلك على بينة ، ويحيى من حَىَّ على بينة ، وهذا يدلك على حكمة الله عز وجل فى فتنة الناس بالمسيح ، أغزر على يديه الآيات منذ أنطقه فى المهد مولوداً بغير أب ، وتتابعت على يديه المعجزات حتى إحياء الميت ، ثم شبه لهم قتله على الصليب حتى لم تبق لأحد شبهة فى أنه الذى مات ، ليتراءى لهم من بعد جسداً حياً يكلمهم ويؤاكلهم ثم يرتفع أمام أعينهم إلى السماء جسداً حياً .

ولأن المسيح عليه السلام هو آخر رسل الله إلى بنى إسرائيل ، فقد شاءت حكمته عز وجل أن تكون الفتنة بالمسيح فى شعب التوحيد منذ إبراهيم فتنة فى هذا التوحيد نفسه الذى تعالوا به على جيرانهم من قديم ، ولو كانت بعثة المسيح فى شعب وثنى يُعَدِّدُ آلهته لما كان لفتنتهم بالمسيح من معنى أن أضافوا ابناً جديداً لكبير آلهة الأولمب وذراريه . بل أراد الله عز وجل التمحيص الأخير لصدق إيمان الذى استتاب موسى آباءهم من عبادة العجل فى التيه ، الذى قال لهم موسى :

«اسمع يا إسرائيل ، الرب إلهُنا رب واحد» (تثنية : ٦ / ٤) فأجاب بها المسيح ذلك السائل عن الوصية الأولى فى الناموس .

كان موت المسيح على الصليب فتنة كبرى لمن شبه لهم وقوع الصلب على ذات المسيح ، أعنى جميع الذين شهدوا هذا الصلب : شانئو المسيح ومبغضوه وطالبو دمه ، وأيضاً أنصاره ومحبوه الذين لو خُيِّروا لافْتدَوهُ بأنفسهم وأبناءهم .

فأما شانئو المسيح ومبغضوه وطالبو دمه فقد أخذتهم العزة بالإثم أن قتلوا بأيديهم المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وتباهوا بها مستهزئين : ﴿**إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ**﴾ [النساء : ١٥٧] . وكم قتل اليهود من أنبياء العهد القديم ، ثم ختموا بيحيى عليه السلام فيما تروى الأناجيل ، فما قامت الدنيا وما قعدت ، ولم يقل أحد فى نبى قُتِل إنه أراد هذا القتل وسعى إليه وكان محور رسالته ، يكفر به عن خطايا البشر أو يفتديهم بدمه كما قيل فى المسيح إنما قال أتباع النبى المقتول إنه مات شهيداً ، دمه على قاتليه .

وأما أنصار المسيح ومحبوه فقد كان موتُهُ على الصليب محنة لهم أى محنة، بل كان فاجعة كبرى لاتعدلها مصيبة : أفقد مات الذى قال لهم أن الله أرجأه إلى قرب انقضاء الدهر ؟ ها هم يرونه بأعينهم يساق إلى الصلب مهاناً ، ثم يرفع على الصليب مثقوب اليدين والقدمين ، ويُسلمُ الروح مطعون الجنب ليدفنوه بأيديهم ، أفقد مات الذى أحيا الميت ؟ فلماذا لم ينقذ هو نفسه من القتل على الصليب ؟ نعم . . . قد قطعوا رأس يحيى قبله ولكن ابن زكريا ما أحيا ميتاً ولا أبرأ أكمه أو أبرص ، ولم يقل لتلاميذه أنه لايموت إلى قرب انقضاء الدهر كما سمعوا هم المسيح يقول . فلماذا تركه الله يموت ؟ لِمَ لمْ يقبل الله ضراعته : «أيها الآب نجنى من هذه الساعة» (يوحنا : ١٢ / ٧) فلم ينجه ؟ لماذا يتركه يموت وهو يناديه : (إلهى إلهى ، لماذا تركتنى؟) (متى : ٢٧ / ٤٦) أفقد مات المسيح لايدرى بأى ذنب يقتل ؟ أو يموت يتساءل لماذا تركه الله يموت ؟

كلهم شَكَّ فيه ، كما قال لهم ليلة القبض عليه : (كلكم تشكون فىّ الليلة) (مرقس : ١٤ / ٢٧) . تُرى لماذا شك التلاميذ فى المسيح ، وفيم كانت

شكوكهم ؟ أفى نبوته وقد علموا أن الأنبياء تقتل وتموت ، وما رأس يحيى على طبق من الفضة ببعيد ؟ أم شكوا فى «ألوهيته» وقد علموا أن الآلهة خالدة لاتموت ، ففيم الفاجعة إذن فى «شُبْهَةِ» إلهٍ يموت ؟

أما الذى لم يشك فيه أحد ، تلاميذ وغير تلاميذ ، فهو أن الذى مات على الصليب هو نفسه المسيح . لم يرتب أحد ولو للحظة فى أن المرفوع على الصليب ليس هو ، وإنما هو يهوذا الذى أسلمه ، شبه لهم .

كان التشبيه غاية فى الإتقان ، لايستطيعه إلا خير الماكرين : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران : ٥٤] .

هذا المائت على الصليب ليس هو المسيح ، يكفيك هذا فى قول القرآن وليس بعده قول لقائل : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء : ١٥٧ - ١٥٨] .

أما إن أردت الدليل من الأناجيل ، فهاك الدليل من قول المائت على الصليب : (إلهى إلهى . . لماذا تركتنى؟) (متى : ٢٧ / ٤٦) ، وقد حرص متّى على إثبات هذه العبارة فى إنجيله بنصها الأصلى : (إيلى إيلى . . لما شبقتنى) كأنه يؤكد للقارئ اليونانى أنها هكذا قيلت ، وحرص أيضاً مرقس فى إنجيله على إثبات نفس العبارة (إلهى إلهى . . لماذا تركتنى؟) (مرقس : ١٥ / ٣٤) بنصيها الأصلى واليونانى ، وإن تحول مرقس بلفظة «إيلى» أى «إلهى» العبرية الآرامية إلى نظيرتها العبرية القُحّ «إلُوهِى» ولكن قلمه اليونانى لم يستطع الهاء فحذفها ، فصارت «إلُوى» التى مازالت تقرؤها فى الترجمات العربية محذوفة الهاء تبركاً بالأصل اليونانى (١) .

وحرص الكاتبان كلاهما ألا يشتبه عليك مقصود المائت على الصليب فتظن أنه أراد «إيليا» (إلياس عليه السلام) ولم يُرِدْ «إيلى» أو «إلُوهِى» (أى إلهى) فقال

---

(١) ليس فى اليونانية حرف مخصوص للهاء ، وإنما هى علامة «نقط» ترسم فوق حرف علة يبدأ الكلمة ، ومن هنا لاتُسمع الهاء من اليونان إلا هاء بادئة للكلمة كما فى «هرطقة» وأمثالها .

كلاهما أن قوماً من الحاضرين لما سمعوا العبارة ظنوا إنه ينادى إيليا (المرفوع حياً قبله فى العهد القديم) كى يأتى ويخلصه ، وكأنهما يقولان لك لا تخطئ الفهم كما أخطأ هؤلاء ، بل كان المصلوب ينادى «إلهه» !!.

فظن لوقا ويوحنا - اللذان كتبا إنجيليهما بعد متى ومرقس - إلى خطورة هذا الذى أثبته متى ومرقس فى إنجيليهما على دعوى ألوهية المصلوب : كيف يستغيثُ إلهه ؟ أفللإله إله ، بل كيف يستغيثُ من الصلب وهو يعلمُ أنه لهذا جاء ويُعلِّمُه؟

أما لوقا فقد حذف هذه العبارة من إنجيله وأثبت فى موضوعها : (يا أبتاه ، فى يديك أستودع روحى) (لوقا : ٢٣ / ٤٦) ، وأما يوحنا فقد أسقط العبارة جملة ولم يُثبت فى موضوعها شيئاً .

أما أنت فتفطن إلى أخطر مما خشيه لوقا ويوحنا . هذا المائت على الصليب، الذى يستغيث الله ولا مغيث ، ليس بنبى ، ولا عليك أن يقال إله أو ابن إله .

على أن المقبوض عليه عَشاءَ فصح اليهود فحوكم وأدين ليس هو المسيح ، دليلُك فى هذا من الأناجيل عبارة نَدَّت عنه وهو يحاكم أثبتها متى فى إنجيله وهو لايدرى مدى خطورتها فى تحديد هوية الذى حوكم فأدين : (وأقول لكم أيضاً أنكم منذ الآن سوف ترون ابن الإنسان (يعنى المسيح) جالساً عن يمين القدرة ثم آتياً على سحب السماء!) (متى : ٢٦ / ٦٤) فكيف يكون الماثل أمامهم هو نفسُهُ فى عين الوقت الجالس عن يمين القدرة الآتى على سحب السماء ؟ أليس قد أفلت الله المسيح قبل أن يحاكم أو يصلب ؟ أفهل تفوتك عبارة «من الآن» ؟ تجد مثل هذا فى لوقا أيضاً أكثر وضوحاً : (إن كنت أنت المسيح فقل لنا : فقال لهم : إن قلت لكم لاتصدقون ، وإن سألتكم لاتجيبونى إلا أن ابن الإنسان من الآن سيكون جالساً عن يمين قدرة الله ! فقالوا كلهم : أأنت إذن ابن الله ؟ قال لهم : أنتم قلتم إنى أنا هو !) (لوقا : ٢٢ / ٦٧ - ٧٠) .

مرقس وحده فطن إلى خطورة ما يخطه قلمهُ فأسقط «من الآن» وزيادة فى الحيطة غَيَّرَ ما قيل فى متى ولوقا فى جواب الذى حوكم حين سئل هل هو المسيح؟ قال متى : (قال له يسوع أنت قلت) (متى : ٢٦ / ٦٤) وقال لوقا :

(أنتم تقولون) (لوقا : ٢٢ / ٧٠) وقال مرقس : (فعاد رئيس الكهنة يسأله ، فقال : أأنت المسيح ابن المبارك فقال يسوع : أناهو) (مرقس : ١٤ / ٦١ - ٦٢) أما يوحنا فقد أسقط هذا وذاك .

ترى هل رفع المسيح لحظة جاءوا يقبضون عليه وشبه لهم يهوذا الإسخريوطى[١] فأخذوه مكانه ؟

هناك رأيين فى هذا الموضوع :

الرأى الأول :

كان بنو إسرائيل ينتظرون مسيحاً مخلصاً ، وقد أشارت إليه تنبؤات بعض أنبياءهم فى بعض الأسفار ، ولكن لما كانوا ينتظرون مخلصاً لهم خاصة ، يعودون بزعامته إلى سيرتهم الأولى ، القائمة على الأثرة والاستعلاء ، وفكرة الاختصاص ، فلما رأوه من جهة يعمم رسالته ودعوته ، حتى تشمل جميع الأمم. ويهاجم من جهة أخرى رؤساهم ويندد بهم ، ويتساهل فى بعض التقاليد الموسوية ، تنكروا له وتألبوا عليه وأخذوا يناوئونه ، لأنه أحرج الكهنة والفريسيين اليهود بتعاليمه وتجريحه إياهم فى طريقتهم ، وفضح رياءهم وخبثهم ، فأخرجهم ذلك إلى الكيد له ، والتدبير لقتله ، فلما اختمر هذا الأمر فى أنفسهم ، شكوا أمره إلى الوالى طبعاً ، وزينوا شكواهم بما يستدعى اهتمام الوالى . بأن أدعوا عليه أنه يقول : أنه ملك اليهود ، وأنهم لايقرون بملك سوى قيصر رومية ، وقالوا أنه يفسد الأمة ، ويمنع الجزية لقيصر ، فأرسل الوالى جنده للقبض على المسيح . (وسوف نتتبع سوياً روايات الأناجيل فى هذا الأمر) .

تم القبض على المسيح وأتوا به إلى بيلاطس البُنطى[٢] من قِبَلِ الملك

---

(١) الإسخريوطى أصلها العبرى «إيش قريوت» يعنى الرجل الذى من «قِريُوت» اسم بلدة فى اليهودية أو فى أرض موآب ، فهو المنسوب إلى هذه البلدة ومعنى اسمها عبرياً «قُرى» جمع قرية ، فهو يهوذا القروى وقد تحرفت إيش قريوت على قلم كتبة الأناجيل اليونانية إلى إسخريوط .

(٢) بيلاطس البُنطى : من جزيرة فى البحر قرب رومية تسمى «بُنطة» وكان صديقاً للملك طيباريوس (تاريخ ابن البطريق : ١ / ٩١) .

طيباريوس قيصر [١] وقال اليهود لبيلاطس : أصلبه فإنه أفسد ديننا وحل ناموسنا ويدّعى أنه ابن الله ، فجزع بيلاطس من هذا الطلب لأنه لم ير فيه شراً ولا أمراً موجباً للقتل فأخذ ماء وغسل يديه قدام الجميع وقال إنى برىء من دم هذا البار ، أبصروا أنتم . (ابن البطريق : ١ / ٩٢ - ٩٣) .

سيق المسيح إلى (قَيَافَا) [٢] رئيس الكهنة الذى جمع مجمعاً من الشيوخ والكتبة ، وهو ما يعرف اليوم باسم (السنهدرين) لمحاكمته مبيتين النية على الحكم عليه بالموت ، وأخذ المجمع يبحث عمن يشهد عليه بشهادة تساعد على قتله ، وأنه تقدم شهود قالوا : إنه قال : إنى أقدر أن أنقض هيكل الله وأبنيه فى ثلاثة أيام ، فسأله رئيس الكهنة عما يقوله فى الشهادة فلم يجب . فأقسم عليه أن يقول : هل هو المسيح ابن الله ؟ فقال له : أنت قلت ، ثم قال: إنكم من الآن ترون ابن البشر جالساً على يمين القدرة وآتياً على سحاب السماء ، فلم يكد الرئيس يسمع هذا الكلام حتى شق ثيابه وقال : لقد جدّف، فما حاجتنا إلى شهود . . وسأل المجمع رأيه . . فقالوا : إنه استوجب القتل.

ثم أخذ عسكر الوالى يسوع إلى عسكر الولاية وجمعوا عليه كل الكتبة وعروه وألبسوه ثياباً قرمزياً وضفروا إكليلاً من شوك ووضعوه على رأسه وقصبة

---

(١) طيباريوس : الإمبراطور الرومانى الثانى ، وخلف أوغسطس سنة ٤٢ ق م .

(٢) قيافا : رئيس كهنة اليهود وحبرهم الأعظم ما بين عامى ٢٧ - ٣٦م ، وكانت هذه الوظيفة فى ابتداء أمرها تدوم مدة حياة متقلدها ، إلا أن الدولة الرومانية آنذاك كانت تتدخل فى تنصيب رئيس الكهنة أو عزله ، ولما قُبض على عيسى عليه السلام (على زعمهم) فى المرة الأولى للمحاكمة أحضره أمام قيافا رئيس مجمع المحاكمة ، فحكموا عليه بصوت واحد بالموت ، غير أنهم لم يكن لهم قوة لتنفيذ هذا الحكم فأخذوه إلى بيلاطس البنطى حاكم أورشليم واليهودية ليأمر بصلبه ، ثم حاكم قيافا بعد ذلك بطرس ويوحنا الحواريين (قاموس الكتاب المقدس ص ٧٥٠ ، والموسوعة الميسرة ص ١٤١٠) ، وكان هناك آنذاك رئيساً للكهنة سابق فى أورشليم ما بين عامى ٦ - ١٥ م وكان حما قيافا ، وعندما قبض على المسيح لم يكن حَنان رئيس الكهنة ، ولكنه كان أكثرهم نفوذاً ، وإليه أخذ المسيح أولاً وهو الذى أرسله مقيداً إلى قيافا (قاموس الكتاب المقدس ص ٣٢٣) .

فى يمينه وكانوا يجثون قدامه ويستهزئون به قائلين : السلام يا ملك اليهود وبصقوا عليه ، وأخذوا القصبة وضربوه على رأسه ، ولطمه بعضهم قائلين : تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك !! وبعدما استهزءوا به ، نزعوا عنه الرداء ، وألبسوه ثيابه ، ومضوا به إلى الصلب [١] .

وكان ذلك فى الساعة السادسة من يوم الجمعة خامس عشر نيسان ، وتاسع عشر شهر برمهات ، وخامس عشر شهر آزار ، وسابع عشر شهر ذى الحجة ، وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة وثلاثة أشهر وثلاثة أيام ، وصلبوا المسيح وصلبوا معه لصين وسمروهم بمسامير الحديد ، وفى هذه الأثناء غشيت الأرض ظلمة دامت ثلاث ساعات حتى صار النهار شبه الليل ورئُيت النجوم وكان مع ذلك هزة وزلزلة (متى : ٢٧ / ٥١) ، (لوقا : ٢٣ / ٤٤) .

وهنا لنا وقفة مع هذا النص الإنجيلى ، يذكر لوقا أنه نحو الساعة السادسة (الثانية عشرة ظهراً) حل الظلام على الأرض كلها حتى الساعة التاسعة (الثالثة بعد الظهر) وأظلمت الشمس وأنشطر ستار الهيكل من الوسط (لوقا : ٢٣ / ٤٤ - ٤٥) ما يدريك أن هذا بالضبط هو الذى حدث بنفس الترتيب وأن حلول الظلام كان قبل رفع المسيح على الصليب وليس بعده ، فقد أظلمت الشمس حتى صار النهار مثل الليل ونزلت الملائكة وقاموا برفع المسيح ووضعوا يهوذا بدلاً منه لينال جزاء خيانته ، تماماً كما حدث لإبرهة الأشرم حينما هم بهدم الكعبة فأرسل الله عليه الطير الأبابيل ، وتماماً كما حدث لرسول الله محمد ﷺ ليلة الهجرة مع مشركى قريش وجعل من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشاهم فهم لايبصرون ، كيف خفيت عليهم هذه الفقرة السابعة من مزمور داود العشرين : «الله مخلِّصُ مسيحه» ، فلماذا لم يفطنوا إليها ، بل قل لماذا أسقطوها ؟ الله أعلم .

---

(١) (إنجيل متى : ٢٦ / ٥٧ - ٦٨) - (ابن البطريق : ١ / ٩٣ - ٩٤) .

الرأى الثانى وهو الأرجح :

وهو ما يقوله لك إنجيل برنابا الذى ينكره المسيحيون ، ولكنك تجد مثله فى إنجيل مرقس ولم يمحصه أحد : (وفى الحال فيما هو يتكلم وصل يهوذا أحد الاثنى عشر ومعه جمع عظيم يحملون السيوف والعصى ، وقد أرسلهم رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ وكان مُسَلِّمُهُ قد أعطاهم علامة قائلاً : الذى أُقَبِّلُهُ فهو هو، فاقبضوا عليه وَسُوقُوه بحذرٍ ، فما إن وصل يهوذا حتى تقدم إليه وقال : سيدى ! وقَبَّلَهُ بحرارة فألقوا القبض عليه . ولكن واحداً من الواقفين هناك استل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه . وكلمهم يسوع قائلاً : أكما على لص خرجتم بالسيوف والعِصِى لتقبضوا علىَّ ؟ كنت كل يوم بينكم أُعلِّم فى الهيكل ولم تقبضوا علىَّ . ولكن هذا يجرى إتماماً للكتاب . عندئذ تركه الجميع وهربوا وتبعه شاب لايلبس غير إزار على عريه فأمسكوه فترك الإزار وهرب منهم عرياناً (مرقس : ١٤ / ٤٣ - ٥٢) .

والذى يتعين التنبيه إليه فى خصوص هذا النص الإنجيلى المعتمد عند المسيحيين كافة ، هو أن التلاميذ هربوا جميعاً لحظة القبض عليه ، فلا تصح لهم شهادةُ على ما قاله المقبوض عليه للجند لحظة القبض عليه ولاعلى ما قيل له منذ لحظة القبض عليه ، وما جرى له وما جرى منه أثناء المحاكمة التى جرت بين جدران مغلقة ولم تجر علناً ، وكذلك ما قاله وقيل له عند هيرودس ملك اليهودية من قبل الرومان أو عند والى روما بيلاطُس البُنطى كالذى تقرأ فى الأناجيل الأربعة المعتمدة - وهو ما يفسر لك اختلاف الكتبة الأربعة لهذه الأناجيل اختلافاً كبيراً فيما بينهم حول ما قيل أو حدث .

لاتقبل شهادتهم لا لأنك تُجَرِّحهُمُ ، وإنما لأنهم كانوا عن هذا غائبين ، والغائب لايُعْتَدُّ بشهادته ، ربما قلت أنهم أو بعضهم على الأقل شهد الجلد والصلب اللذين وقعا علناً ، فتكتفى منهم بما سمعوا أو عاينوا منذ الجلد إلى الموت على الصليب ولكنهم لم يسمعوا كل الذى قيل ، دليلك فى هذا تضاربهم فيما رووه ، فتقطع بأنهم أكملوا ما لم يسمعوا ، وكانت لكل منهم مصادره ،

وتفاوت قول الرواة ، فتفاوتت أقوالهم ، بل هناك ما تقطعُ بأنه لم يحدث وإنما هو من قول الرواة ، من هذا ومثله الحوار الهامس بين المائت على الصليب وبين زميليه ، الذى انفرد به لوقا المختوم بقول المائت على الصليب للص التائب : (الحق أقول لك إنك اليوم تكون معى فى الفردوس!) (لوقا : ٢٣ / ٣٩ - ٤٢).

أكان الثلاثة يتصارخون بهذا الحوار ليسمعه جمهور الحاضرين فى الساحة مثلما صرخ المائت على الصليب لحظة أسلم الروح : (يا أبتاه فى يدك أستودع روحى) التى وقعت فى سمع متى ومرقس بلفظ :(إلهى إلهى لماذا تركتنى؟) ، تصور أنت المسافة بين المرفوعين على الصليب وبين الجند ، ثم بين الجند وبين الجمهور ، واحكم بنفسك .

ولكن الذى نتوقف عنده هو هذا الشاب الذى رآه مرقس يتبع المقبوض عليه عرياناً إلا من إزار اتئزر به ، فأرادوا إمساكه ولكنه ترك إزاره فى أيديهم ليفر عرياناً ، ترى من كان هذا الشاب الواقف مباشرة خلف المقبوض عليه ؟ أكان من التلاميذ ؟ كيف وقد هربوا جميعاً كما يروى لك مرقس ؟ (١) أفكان من الجند ؟ فكيف أرادوا إمساكه ؟ أكان هو يهوذا ؟ فكيف يهرب منهم وهو الذى جاء بهم ؟ أكان عابر سبيل دفعة الفضول إلى السير فى موكب الجند والمقبوض عليه مثلما يسير الناس فى موكب الشرطة والجناة ، فما خشيته من الجند وما خشية الجند منه؟ أفقد أمسكوا بالمتجمهرين جميعاً ؟ فلماذا يحاولون الإمساك به وحده ؟ أليس لأنه استفز شكوكهم التصاقه بالمقبوض عليه وهيئته بزى اللابس إزاراً على عُرْيه ؟ أفقد لمسوا إزاره فسقط عنه أم جبذوه به فتفلت منه ؟ وكيف يخرج من إزاره فيستفزهم عُرْيُه ولا يلحقون به ؟ كيف أنسل من أيديهم ولم يلاحقوه ؟

أليس هو المسيح نفسه الذى حاجزت عنه الملائكة بعد أن ألقى شبهه على يهوذا المقبوض عليه لحظة (القُبلة) لاتدرى من قَبَّلَ من ؟ ألم يأخذ الملائكة لباس عيسى فوضعوه على يهوذا ولم يبقوا له إلا إزاراً يأتزر به ثم يتركه فى أيديهم ليتلبس رداء من نور لايبصره إلا ملائكة من نور محجوبون عن أعين الناس ؟ هكذا غاب الشاب عن أعين طالبيه الذين قبضوا على يهوذا مكانه .

(١) مرقس صاحب هذا الإنجيل هو تلميذ لبطرس الحوارى فهو ينقل عنه .

ربما قيل لك إن من مأثور المسيحيين الغير مسطور فى الأناجيل أن هذا الشاب اللابس إزاراً على عُريه كان «يوحنا» التلميذ الذى كان المسيح يحبه ، وليس بشىء لأن المكتوب فى الأناجيل هو أن التلاميذ كلهم هربوا ، لم يتبعه أحد منهم أو فكر فى اتباعه ، لم يتبعه أحد بعد هروبهم ومُضِىِّ الجند إلا بطرس الذى تبعهم من بعيد كما يقول لك متى ومرقس ولوقا ، ولكن يوحنا يقول فى إنجيله (وهو ليس يوحنا التلميذ المعنى) : (وتبع يسوع سمعان بطرس وتلميذ آخر كان رئيس الكهنة يعرفه ، فدخل ذلك التلميذ مع يسوع إلى دار رئيس الكهنة) (يوحنا : ١٨ / ١٥) ، ولايصح أن يكون هذا والذى فر عرياناً هو نفس الشخص ، إذ كيف يدخل عرياناً على رئيس الكهنة ؟ وكيف يستعيد ثيابه ويلحق بالموكب ؟ هذه المعجزة الكبرى ، معجزة تشبيه عيسى لطالبى دمه وقضاته ومحاوريه وللجمهور الذى شهد الصلب ، لم يشاهدها من دون المسيح والملائكة أحد قط إلا واحد ، هو يهوذا المشبه به ، وكيف تُعَمّى عليه والجند الذين جاء هو بهم وسار معهم وكلمهم وكلموه ، يقبضون عليه لايشكون لحظة أنه هو نفسه يهوذا الذى دلهم عليه : خرج من صفوفهم ليقبل المسيح فتركوا المسيح وقبضوا عليه هو ؟ أليس قد أحس يهوذا أنه لم يزل هو يهوذا ولكن الجند يرونه هو المراد القبض عليه ؟ الذى أصبح صوته كصوته وهيئته كهيئته ويتكلم بمثل كلامه ، فظن الجميع أنه هو هو ، حتى التلاميذ الذين هربوا ظناً منهم أن قد أخذ معلمهم ؟ ولكنه لايزال هو يهوذا لاشبهة عنده فى ذلك ، فما بال الناس قد سُحِرُوا ؟

هنا يدرك يهوذا المقبوض عليه عمق الفاجعة : أغواه الشيطان فشك فى نبوة معلمه ، وزين له الشيطان أن يمتحن صدق المسيح دعواه النبوة فدل عليه خصومه وطالبى دمه ، قال فى نفسه إن كان نبياً فلن يمكنهم الله منه ويخلصه ، وإن كان دعياً محتالاً فبئس جزاء المحتال الدعى ، وقد احتاط هو - يهوذا - لنفسه وحَظِىَ عند الكهنة .

ويفجع يهوذا بالذى كان : أهكذا يخلص الله مسيحه ؟ أيخلصه ويوقعه هو فى نفس المصير الذى أراد بمعلمه ؟ أفقد أوقعه بالحفرة التى نصبها له ؟ فمن ليهوذا إذن بالذى يخلصه هو الآن وهو صفر اليدين مما أوتى عيسى صاحب

العجائب والمعجزات ؟ أفيقول لهم أنه ليس هو ؟ فمن ذا يصدقه وهو هو عند كل من يراه أو يسمعه ؟ ليس أمامه إلا أن يستسلم للمصير الذى أراده لمعلمه عساه يكفر بها عن عبث الشيطان به ، ويرد سهمه فى نحره ، عساه بافتدائه المسيح بنفسه أن تكتب له بها حسنة قد يمحو بها الله عنه إثم ما قد فعل .

كانت لسان حاله عبارة حفظها لوقا فى إنجيله حين سُئل : (إن كنت أنت المسيح فقل لنا : قال إن قلت لكم لاتصدقون وإن سألت لاتجيبوننى ولاتطلقوننى) ويمضون به ويمضى معهم وفى أذنيه فقرة من مزمور داود : (عَتَّا يَدُعتِى كِى هُو شِيع يِهْوَاَ مشِيحو !) .(الآن عرفت أن الله مخلص مسيحه !) (مزمور : ٢٠ / ٧) .

كيف خفيت هذه الفقرة السابعة من مزمور داود العشرين : (الله مخلص مسيحه) على كتبة أناجيل جعلوا من مزامير داود نبوءات تحدث بسيرة المسيح ومصيره ؟ أليس فى هذه العبارة التى ترنم بها داود فى المزمور (الله مخلص مسيحه) التى هى بالعبرية (هُوشِيع يِهْوَاَ مْشِحِو) تحديد لاسم هذا المسيح الذى يخلصه الله ؟ أليست هوشيع يهوا هى مقلوب «يهوشوع» اسم المسيح «يشوع»؟ فلماذا لم يفطنوا إليها ، بل لماذا أسقطوها ؟ أليس لأنها على الضد مما يريدون الاستشهاد به على خذلان الله مسيحه ؟ بل قل كيف خفى عليهم معنى الفقرات من مزمور داود الحادى والتسعين التى أثبتها لوقا فى إنجيله على لسان إبليس يُغوِى بها المسيح : (ثم اقتاده إبليس إلى أورشليم وأوقفه على حافة سطح الهيكل وقال له إن كنت ابن الله فاطرح نفسك من هنا إلى الأسفل فإنه قد كتب : (يوصى ملائكته بك لكى يحفظوك فعلى أيديهم يحملونك لئلا تصدم رجلك بحجر) (لوقا : ٤ / ٩ - ١١) .

أليس إبليس يستشهد هنا للمسيح بفقرات من هذا المزمور ؟ أليس فى هذا دليل على أن لوقا يعتبر هذا المزمور فى المسيح ، فلماذا لم يلتفت لوقا إلى بقية ما قيل : (لأنك قلت أنت يارب ملجئ جعلت العلى مسكنك . لا يلاقيك شر ولا تدنو ضربة من خيمتك . لأنه يوصى ملائكته بك لكى يحفظوك فى كل طرقك . على الأيدى يحملونك لئلا تصدم بحجر رجلك . على الأسد والصل تطأ .

الشبل والثعبان تدوس . لأنه تعلق بى أنجيــه . أرفعه لأنه عرف اسمى . يدعونى فأستجيب له . معه أنا فى الضـيق . أنقذه وأمجده . من طول الأيام أشبعه وأريه خلاصى) (مزمور : ٩١ / ٩ - ١٦) ؟ أليس قد رفع الله المسيح قبل أن يصلب؟ أليس هكذا كان خــلاص الله مسيحــه ؟ أكانت هذه فى المائت على الصليب أم فى الذى رفع ؟

يهوذا وحده هو الذى علم وعاين . ولكن يهوذا لم يقل لأحد ممن شبه لهم. كان يرجو بصمــته أن يكتفى الله من عقابه بالإهانة والجلد ، فـمضى يحمل على كتفه صليبه وهو يردد : (اغفر لهم أبتاه فإنهم لايعلمون) (لوقا : ٢٣ / ٣٤) .

نعم لايعلمــون علم الذى يعلم ، ولو علموه لــشابت رؤوسهــم ، أو لخزيُوا وذلوا أو لانفضوا من حوله وذهبوا يلتمسون المسيح الذى أفلت من أيديهم بآية من آيات الله ، فليصبر عليــها ، لا يئن وهم يثقبون بالمساميــر يديه وقدميه ولايشكو وقد رفـعوه على الصليب ، ودماؤه تنــزف ونزع الموت يقترب ، كـانت ماتزال به نضاضة من أمل فى عفو الله وقد احــتمل ما احتمل ، ولكن الأمل ينطفئ بمجىء ملك الموت يتــراءى ليهــوذا على الصليب فيــصرخ بأســاً هو أفظع الألم : «إلهى إلهى! لماذا تركتنى!» .

أفقد غفر الله ليهــوذا فعلته ؟ أفقد شاء برحمته أن يحتــسبها له شهادة ؟ الله عز وجل بغيبه أعلم .

أما جثمان يهوذا الذى قُبر ، ففى إنجيل متى ما يفسر لك مصيره :

«وبينمــا كــانت المرأتان ذاهبــتين ، إذا بعض الحــراس قــد ذهبــوا إلى المدينة وأخبروا رؤساء الكهنة بكل ما جرى » (متى : ٢٨ / ١١) ، يعنى أن المائت على الصليب قد قام من قبره الذى وجدوه خالياً من جثمانه .

«فاجتــمع رؤساء الكهنة والشيوخ وتشــاوروا فى الأمر . ثم رشوا الجنود بمال كثير وقــالوا لهم : قولوا إن تلاميذه جاءوا ليلاً وسرقــوه ونحن نائمون ! فإذا بلغ الخبر الحاكم فإننا ندافع عنكم فتكونون فى مأمن من أى سوء » (متى : ٢٨ / ١٢ - ١٥) .

أى إذا افتضح كذبكم أو حاسبكم على غـفلتكم عنه فنحن نستعطفه ونجعلكم مطمئنين ، فأخذوا الفضة وفعلوا كمـا علموهم ، فشاع هذاالقول عند اليهود إلى هذا اليوم .

الخلاصة :

ما يدريك أن هذا بالضـبط هو الذى حدث ؟ ما دمت قد سلمت بأن المـقبور هو يهوذا وليس المسيح ؟ ولكن «السـارقين» من اليهود يكتشفون المهـزلة فقد بطل التشبيـه وعاد الجسد يهوذا الذى كان ، فمـاذا يفعلون به ، أفيعتلنون بفضـيحتهم للناس أم يُغَيِّبُون الجثمان بعيداً عن القبر ؟

ألقوا به من علٍ ليظن أنه ندم فخـنق نفسه كما قال مـتى ، أو دفع نفسه من حالق كمـا قال بطرس «وقع على وجهه فانشق من وسطه واندلقت أمـعاؤه كلها» (أعمال الرسل : ١ / ١٨) .

البت فى مسألة الوفاة والرفع

لم يهلك المسيحُ على الصليب كما يؤمن الذين شبه لهم ، فما قتلوه وما صلبوه ، بل توفاه الله رافعاً إياه إليه ، أى توفاه بأن رفعه إليه سليماً معافى لم تهلك منه شعرة ، ولم يُخدش منه ظفر ، جسداً حياً ولم يزل ، لايموت إلا والساعة قريب ، فهو من أعلام الساعة وأشراطها ، ينزل فى الناس بالحق الذى جاء به القرآن فيه ويصحح مقولة الذين شبه لهم ، ثم يموت على دين خاتم النبيين كما مات الرسل من قبله ليُبْعَثَ معهم يوم يقوم الأشهاد : ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء : ١٥٩] .

وليس أصل معنى «التوفى» فى اللغة هو الإماتة كما يخطئ مفسرون ، وإنما «التوفى» فى أصل معناه ، بل وفى معناه القرآنى بالذات هو «الاستيفاء» ، أى «الاستخلاص» كاملاً غير منقوص ، تقول منه : وَفَّيْتُهُ حَقَّه ، وتوفىَّ هو حقَه ، يعنى أخذه كاملاً ، ومن هذه قولُهُ عز وجل : ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران : ١٨٥] ، ومنه أيضاً : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر : ٤٢] .

وإنما جاز التوفى بمعنى الإماتة لأن الموت مترتب عليه ، أعنى الذى مات إنما مات لأن الله «توفىَّ» نفسه أى قبضها إليه ، أى استخلصها من هذا الجسد ، والذى فى المسيح ليس من هذا ، وإنما هو فى المسيح على أصل معناه : التوفىِّ بمعنى الاستخلاص كاملاً غير منقوص ، دليلك فى هذا قوله عز وجل : ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران : ٥٥] ، ولو فهمتها بمعنى «إنى مميتك ورافعك إلىَّ» لما كان لكلامك معنى ، فالله لايرفع إليه جسداً ميتاً ، وهو أيضاً لايرفع إليه نفساً أميت جسدها بالتوفى ، أى بتوفى النفس ، وإنما هو يقبض الأنفس ولايرفعها . وحتى وإن سوغت لك نفسك هذا الفهم السقيم فقلت أن «الرفع» ها هنا بمعنى «القبض» ، فقد أمات الله إذن المسيح على هذه الأرض

وقبض نفسه كما يَقبِضُ الله الأنفس ، فماذا يبقى لديك من معنى الآية، وقد تقدمها مباشرة قول الله عز وجل : ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران : ٥٤] .

أى أرادوا صلبهُ وأراد اللهُ بالمسيح شيئاً آخر ؟ أفَيَصحُّ أن يكون هذا الشىء الآخر هو أن يُميتَ اللهُ عيسى كيلا ينالوه حياً ، وكأن المعنى لم يقتلوه ولم يصلبوهُ وإنما أمتناه نحن بأيدينا لا بأيديهم ؟ فما الإعجاز فى هذا ؟ أفى هذا إنجاء وتخليص ؟ وما قيمةُ هذا فى جنْبِ مكر الله عز وجل وتدبيره وهو «خير الماكرين» هذا هُراءُ بالطبع لايصحُ أن تقع فيه إن وَقَعْتَ على مثله . وخلاصة قول المفسرين فى هذا أن المسيح عليه السلام رفع بجسده ونفسه معاً ، أئ رفع جسداً حياً ، وإنه لم يزل كذلك ، إلى أن يُهبِطُه الله إلى الأرض ليموت عليها كما مات الأنبياءُ وكما يموت البشر وكل ذى نفس ، الآن كل نفس ذائقة الموت كما أخبر القرآن ، أما قولهم فى التوفى ففريق أجمع على أنه بمعنى القبض ، أى إنى قابضُك إلىَّ ورافعك إلىَّ وكأن الرفع هو التوفى ، وهذا من الحشو الذى لايضيف جديداً ، فأنا وأنت نُنَزِّه القرآن عنه . أما الفريق الآخر الذى يُصرُّ على أن التوفى بمعنى الإماتة ، فهو يقول إن فى الآية تقديماً وتأخيراً ، أى إنى رافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا ، ومتوفيك بعد ذلك ، أى حين يُعيدُهُ إلى الأرض مرة أخرى ليشهد على الذين خاضوا فى عبده ورسوله ، وليس هذا أيضاً - أى التقديم والتأخير - بمقبول لأنه يعكس ترتيب الأحداث منذ الرفع إلى التوفى وبينهما فجوة اتسعت حتى يومنا هذا لحوالى عشرين قرناً من الزمان والله أعلمُ متى تلتئمُ الفجوة ، ولايصح فى هذا تقديم وتأخير ، وإنما هو خلط وتخليط نُنَزِّهُ أنا وأنت القرآن عنهما : لا حيلة لمن أراد التوفى فى الآية بمعنى الإماته إلا أن يسلم بخطئه ، إن وقع التوفى بمعنى الموت أولاً على الترتيب الذى جاء به القرآن، فقد امتنع الرفع والتطهير ، وإن افترض فيه تقديماً يراد به التأخير ، أى أراد معكوس الترتيب الذى فى القرآن ، فلا يصح له هذا إلا بافتعال لايليق بجلال القرآن .

على أن هناك من قال كما نقول نحن أن التوفى فى الآية هو بمعنى الاستيفاء على أصل معناه ، ولكنه لم يوفق فى استجلاء مراد القرآن من هذا الاستيفاء : قال إن الله عز وجل وقد رفع عيسى إليه حياً لم يمت ، إنما استوفى عمره فى الدنيا ، أى استكملهُ له ، أى استوفى حياتهُ على الأرض بين الناس . ولايصح هذا من وجهين ، الأول أن المسيح المرفوع لم يستكمل حياته على الأرض ، بل سيعود إليها ليستوفى ما بقى له من عُمرِه . والوجه الثانى أن هذا القول لايصح فى اللغة ، لأن المفعول فى «متوفيك» هو المسيح نفسه ، لا عُمْرَ المسيح ولا حياتُه، فالمستوفى (بفتح الفاء) الذى استوفاه اللهُ هو المسيح لا عمر المسيح ، واستيفاء المسيح يعنى استخلاصه مما أرادوهُ به ، أى القتل والصلب ، فهو الإنجاء والتخليص ، الذى فسره القرآن المعجز بقوله عُقَيْبَ هذا مباشرة : **﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾** أى أسُلُّكَ منهم كما يُسَلُّ الحقُ من الباطل ، وكما يُنْفَضُ الوَسَخُ عن الثوب . وقد يظن المفسرون - ولم يوفقوا - أن التطهير فى الآية يعنى إبراؤه من ذنب ما قالوه فيه ، إله أو ابن إله، ولايصح هذا أيضاً لأن قالة هذه المقالة ما كانوا قد وُلِدُوا بعد ، بل حتى إن سلمت كما يؤمن النصارى بأنهم قالوها وهو بين ظهرانيهم فما كانوا هُمُ الذين طلبوا قَتْلَهُ على الصليب .

ونحن لانجادل الأناجيل فى أن المسيح تراءى لتلاميذه بعد الصلب ، أعنى بعد نجاته من الصلب ، بل هذا هو الأقربُ إلى الصواب ، الأشبه بما فى القرآن: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران : ٥٥] . وقد مر بك أن التوفى فى الآية من «الاستيفاء» بمعنى الاستخلاص كاملاً غير منقوص ، وقع الاستخلاص أولاً ممن جاءوا للقبض عليه والمحاجَزَةُ بينه وبينهم على نحو ما قص عليك مرقس فى إنجيله من حديث الشاب المؤتَزِر بإزار على عُرْيه ، الذى اختفى عن أعين طالبى الإمساك به فانسل من ردائه ولم يروه بعد ، وما كان اللهُ عز وجل ليرفع المسيحَ إليه إلا على أعين الحواريين ، ليكونوا على رفعه شهوداً ، كما سبق أن استشهد الله الحواريين على إنزال المائدة إليهم ليحاسبهم إن كفروا من بعد ، حاشا الحواريين أن يكفروا لما استشهدهم اللهُ عليه .

وفى إنجيل متى أنه واعد الحواريين قبل محاولة القبض عليه فى أورشليم ، أى قبل القبض والصلب ، أن يلتقى بهم فى الجليل ، وأن الأحد عشر (أى خلا يهوذا بالطبع) ذهبوا إليه فى الجليل ، ذهبوا وبعضُهم شاك حتى بعد أن رأوه ، مما يدلُّك على أن معجزة التشبيه شُبِّهَت عليهم أيضاً (متى : ٢٨ / ١٦ - ١٧) أى كانوا ممن قال القرآن فيهم : ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء : ١٥٧] ، وكان لابُد للمسيح أن يرتفع إلى السماء أمامهم بعد أن كَلَّمَهم (مرقس : ١٦ / ١٩) ليكونوا شُهداءَه على إعجاز الله فى تخليصِ مسيحه .

أما ما قاله المسيح لهم قبل أن يرفعهُ الله إليه ، فهو فى الأناجيل التى بين يديك مقولةُ الذين شُبِّه لهم شَخْصُ المصلوب ، وهو أيضاً يتفاوت بتفاوت ما أراد الكاتب إثباته على لسان المسيح احتجاجاً لرأى الذى كتب ، إن صَدَّقت بإنجيلٍ فقد كذبت بإنجيل ، على ما ترى من قولهم على لسان المسيح فى آية «يونان النبى» (يعنى يونس عليه السلام) حين طلب منه الكتبة والفريسيون أن يروا منه آية فقال لهم جيل شرير وفاسق يَطلُبُ آيةً ولا تعطى له إلا آيةُ يونان النبى ، ثم يمضى متَّى فيقول : «لأنه كما كان يونانُ فى بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاثَ ليالٍ هكذا يكون ابن الإنسان (يعنى المسيح) فى قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ» (متى : ١٢ / ٤٠) . لا مفر لك إلا أن تقول إن متَّى أراد هنا الاحتجاج لصلب المسيح ودفنه فى الأرض ثلاثة أيام وثلاثَ ليال يبعثُ بعدها حياً . ولايصح هذا لأن الذى صُلبَ بإجماع الأناجيل الأربعة حتى متى نفسه ، إنما مكث فى قبره ليلتين فقط (الجمعة والسبت) وخرج منه فَجرَ الأحد ، ولايصح أن يقال هذا أيضاً على التشبيه بما كان عليه يونس فى بطن الحوت ، لأن يونس لم يمت فى بطن الحوت ولم يَلتقمهُ الحوت جسداً ميتاً كحال المصلوب ، ولو تمهل متى والمستشهدون بقوله فى «آية يونان» لما قالوها ولما نَسَبُوها إلى نبى يوحى إليه لايقول إلا حقاً ، هذا ومثله كثير لانتصدى له .

هذا هو الرأى الأرجح فى مسألة التوفى والرفع ولكن للأمانة العلمية سوف

نسوق إليك بعض آراء بعض العلماء فى هذه المسألة : هل رفع المسيح حياً بجسمه وروحه ؟ (١) .

هل استوفى أجله على الأرض وهو مختفٍ ثم مات ودفن جسمه ورفعت روحه إلى بارئها ؟

كان هناك اتجاه شاع بين الناس بأن عيسى عليه السلام عندما نجا من المؤامرة رفع بجسمه وروحه إلى السماء ، وكان هذا الرأى يصوِّر اختفاءه الذى تحدثنا عنه، ولكن هذا الاتجاه واجه دراسة واسعة قام بها المفكرون فى العصر الحديث ، واعتمدوا فى كلامهم على نصوص قديمة ودراسات موثقة ، وأوشك هذا الاتجاه الجديد أن يقضى على المزاعم القديمة التى كانت تقول برفع السيد المسيح بجسمه وروحه .

وعلى كل حال فينبغى أن نورد دعائم الرأى القديم ، وأن نناقش هذه الدعائم لنسهم فى تأصيل الرأى الجديد الذى نرتضيه .

بُنِىَ الرأى القديم على فهم غير دقيق للآيات والأحاديث التالية : ـ

قوله تعالى : **﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾** [النساء : ١٥٧ - ١٥٨] وقوله : **﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** [آل عمران : ٥٥] .

ما ورد فى البخارى ومسلم من أن رسول الله ﷺ قال : « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً مقسطاً ، يكسر الصليب ويقتل الخنزير . . . . » (٢) .

ما ورد فى مسلم من أن عيسى سينزل فى آخر الزمان فيقتل المسيح الدجال.

ويناقش جمهور المفكرين المسلمين هذه الأدلة فيقولون إن عيسى بعد أن نجا من اليهود عاش زمناً حتى استوفى أجله ، ثم مات ميتة عادية ورفعت روحه إلى

(١) د . أحمد شلبى - المسيحية - مكتبة النهضة المصرية ص ٥٦ .

(٢) أخرجه البخارى (٢٢٢٢) ، ومسلم (١٥٥ / ٢٤٢) ، وأحمد (٢ / ٥٣٧) .

السماء مع أرواح النبيين والصديقين والشهداء ، وقد ورد النص برفع عيسى - مع أن روحه سترفع بطبيعة الحال لأنه نبى - تكريماً لمكانته بعد التحدى الذى واجهه من اليهود ، فذكر الله نجاته ، ثم مكانته التى استلزمت رفع روحه .

ويقولون عن الآية الأولى ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ إنها تحقيق الوعد الذى تضمنته الآية الثانية ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فإذا كان قوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ خلا من ذكر الوفاة والتطهير واقتصر على ذكر الرفع ، فإنه يجب أن يلاحظ فيها ما ذكر فى قوله تعالى : ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ جمعاً بين الآيتين .

ويرى هؤلاء العلماء أن الرفع معناه رفع المكانة ، وقد جاء الرفع فى القرآن بهذا المعنى كثيراً ، قال تعالى :

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [النور : ٣٦] .

﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام : ٨٣] .

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح : ٤] .

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم : ٥٧] .

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة : ١١] .

إذن فالتعبير بقوله : ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ وقوله ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ كالتعبير فى قولهم: لحق فلان بالرفيق الأعلى ، وفى ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة : ٤٠] وفى ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر : ٥٥] ، وكلها لايفهم منها سوى معنى الرعاية والحفظ والدخول فى الكنف المقدس [١] .

وهناك آية كريمة أقوى دلالة من آيات الرفع ، ولكنها مع هذا لاتعنى سوى خلود الروح لا الجسم ، وهى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

فمع أن الآية قررت أنهم أحياء فليس معنى هذا حياة الجسم ، فجسم الشهيد

---

(١) الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت : الفتاوى ص ٥٦ .

قد ووُرى التراب ، ومع أنها قررت أنهم عند ربهم وأنهم يرزقون ، فليس المقصود تكريم الروح بقربها من الله قرب مكانة والاستمتاع باللذائذ استمتاعاً روحياً لاجسمانياً .

وعن الحديثين يجيب الباحثون بإجابتين :

أولاً : هما من أحاديث الآحاد وهى لاتوجب الاعتقاد ، والمسألة هنا اعتقادية.

ثانياً : الحديثان ليس فيهما كلمة واحدة عن رفع عيسى بجسمه ، وقد فهم الرفع من نزول عيسى ، فاعتقد بعض الناس أن نزول عيسى معناه أنه رفع وسينزل، وهكذا قرر هؤلاء أن عيسى رُفع لمجرد أن فى الحديثين كلمة ينزل، مع أن اللغة العربية لاتجعل الرفع ضرورة للنزول ، فإذا قلت : نزلت ضيفاً على فلان ، فليس معنى هذا أنك كنت مرتفعاً ونزلت ، وإذا رجعنا إلى مدلول هذه الكلمة (نزل - وأنزل) فى القرآن الكريم ، وجدنا أنه لايتحتم أن يكون معناها النزول من ارتفاع ، بل قد يكون معناها : جعل أو قدَّر أو وقع أو منح .

وهكذا يتبين لنا أن كلمة ينزل فى الحديثين - لو صحَّ هذان الحديثان - ليست إلا بمعنى يجىء ، ومن الممكن أن يُحْى الله عيسى ويرسله على شريعة محمد قبل قيام القيامة ، وليس بعد بمستبعد قط على الله ، والاستنتاج الذى قال به هؤلاء خروج بالكلمات عن مدلولها ، فالرفع ليس من كلمات الحديث الشريف بل من تفكير بعض قارئى الحديث وليس من حقهم أن يضيفوا إلى الحديث ما ليس منه وما لاتستدعيه ألفاظه .

وهناك آيتان اختلف المفسرون فى تفسيرهما ، وجاء فى بعض ما قيل عنهما أنهما تدلان على نزول عيسى فى آخر الزمان ، وهاتان الآيتان هما :

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء : ١٥٩] . **﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾** [الزخرف : ٦١] .

فعن الآية الأولى يرى بعض المفسرين أن الضمير فى (بِهِ) وفى (مَوْتِهِ) عائد على عيسى ويكون المعنى على ذلك عندهم أنه ما من أحد من أهل الكتاب إلا

ليؤمنن بعيسى قبل أن يموت عيسى ، أى سيؤمنون به عند عودته آخر الزمان ، ولكن هذا مردود بما ذكره مفسرون آخرون من أن الضمير فى (بِهِ) لعيسى وفى (مَوْتِهِ) لأهل الكتاب ، والمعنى أنه ما من أحد من أهل الكتاب يدركه الموت حتى تنكشف له الحقيقة عند حشرجة الروح فيرى أن عيسى رسول ورسالته حق، فيؤمن بذلك ، ولكن حيث لاينفعه إيمان [1] .

وأما عن الآية الثانية ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ . . . . .﴾ فيرى بعض المفسرين أن الضمير فى (إنه) راجع إلى محمد ﷺ أو إلى القرآن ، على أنه من الممكن أن يكون راجعاً - كما يقول مفسرون آخرون - إلى عيسى لأن الحديث فى الآية السابقة كان عنه ، فالمعنى وإن عيسى لعلم للساعة ، ولكن ليس معنى هذا أن عيسى سيعود للنزول ، بل المعنى أن وجود عيسى فى آخر الزمان (نسبياً) دليل على قرب الساعة وشرط من أشراطها ، أو أنه بخلقه بدون أب ، أو بإحيائه الموتى دليل على صحة البعث .

وعلى كل حال فنزول عيسى فى آخر الزمان على فرض حدوثه ليس معناه رفعه حياً بجسمه كما سبق القول ، ثم إن الدليل إذا تطرق له الاحتمال سقط به الاستدلال كما يقول علماء الأصول ، وفى هذه الأدلة أكثر من الاحتمال ، بل فيها اليقين عند الأكثرين .

ونجيء الآن لإيراد بعض التفاصيل والأدلة التى ترى أن عيسى عليه السلام مات كما مات كل الأنبياء والصالحين وغيرهم ، وأن جسمه قد دفن كما دفنت أجسام الأنبياء وغيرهم ، وأن الذى رفع هو روحه :

أقامت مجلة (لواء الإسلام) ندوة كبيرة فى أبريل سنة ١٩٦٣ م عن هذا الموضوع ، وقد اشترك فيها مجموعة من العلماء الأفذاذ ، واتفق الجميع على مبدأين مهمين هما :

١ - ليس فى القرآن الكريم نص يلزم باعتقاد أن المسيح عليه السلام قد رفع بجسمه إلى السماء .

---

(١) الشهيد سيد قطب : فى ظلال القرآن جـ ٦ ص ١٤ .

٢ - عودة عيسى عليه السلام جاءت بها أحاديث صحاح ، ولكنها أحاديث آحاد وأحاديث الآحاد لاتوجب الاعتقاد ، والمسألة هنا اعتقادية فلا تثبت بهذه الأحاديث [١] .

وسنقتبس مما قاله هؤلاء العلماء عن موت عيسى ودفنه وصعود روحه إلى بارئها مع أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء .

وعلى كل حال فالعلماء الذين يرون أن الذى رفع هو روح عيسى لاجسمه يعتمدون أساساً على الآيات القرآنية التالية :

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ [آل عمران : ٥٥] .

فهذه الآية تذكر بوضوح ما سبق أن ذكرناه ، أى وفاة عيسى وتطهيره وحمايته من أعدائه ، وتجعل عيسى ضمن أتباعه إلى الله مرجعهم .

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة : ١١٧] .

وواضح من الآية وفاة عيسى ونهاية رقابته على أتباعه بعد موته وترك الرقابة لله **﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾** [مريم : ٣٣] .

والآية واضحة الدلالة على أن عيسى ككل البشر يولد ويموت ويبعث ، وكل ما يخالف ذلك تحميل للفظ فوق ما يحتمل .

وقد اشترك فى هذا الرأى كثير من العلماء فى العصور الماضية وفى العصر الحديث ، وفيما يلى نسوق بعض تفاسير لهذه الآيات الكريمة كما نسوق آراء العلماء الأجلاء .

يقول الإمام الفخر الرازى فى تفسير الآية الأولى **﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾** أى منهى أجلك ، **﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾** أى رافع مرتبتك ورافع روحك إلىَّ **﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾** أى مخرجك من بينهم ومفرق بينك وبينهم ، وكما عظم شأنه بلفظ الرفع إليه خبَّر عن معنى التخليص بلفظ التطهير ، وكل هذا يدل على المبالغة فى إعلاء شأنه

---

(١) عدد إبريل ١٩٦٣ ص ٢٦٣ .

وتعظيم منزلته ، ويقول فى معنى قوله تعالى : ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المراد بالفوقية ، الفوقية بالحجة والبرهان ثم يقول : واعلم أن هذه الآية تدل على أن رفعه فى قوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ﴾ هو رفع الدرجة والمنقبة لا المكان والجهة ، كما أن الفوقية فى هذه الآية ليست بالمكان بل بالدرجة والمكانة .

ويقول الألوسى أن قوله تعالى : ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ معناها على الأوفق أنى مستوف أجلك ومميتك موتاً طبيعياً ، لا أسلط عليك من يقتلك ، والرفع الذى كان بعد الوفاة هو رفع المكانة لا رفع الجسد ، خصوصاً وقد جاء بجانبه قوله تعالى : ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مما يدل على أن الأمر تشريف وتكريم [١] .

ويرى ابن حزم وهو من فقهاء الظاهر أن الوفاة فى الآيات تعنى الموت الحقيقى ، وأن هدف الظاهر عن حقيقته لا معنى له ، وأن عيسى بناء على هذا قد مات [٢] .

وقد تعرض الأستاذ محمد عبده إلى آيات الرفع وأحاديث النزول فقرر الآية على ظاهرها ، وأن التوفى هو الإماتة العادية ، وأن الرفع يكون بعد ذلك وهو رفع الروح .

ويقول الأستاذ الشيخ محمود شلتوت أن كلمة (توفى) قد وردت فى القرآن كثيراً بمعنى الموت حتى صار هذا المعنى هو الغالب عليها والمتبادر منها ، ولم تستعمل فى غير هذا المعنى إلا بجانبها ما يصرفها عن هذا المعنى المتبادر ، ثم يسوق عدداً كبيراً من الآيات استعملت فيه هذه الكلمة بمعنى الموت الحقيقى ، ويرى أن المفسرين الذين يلجأون إلى القول بأن الوفاة هى النوم أو أن فى قوله تعالى : ﴿مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ تقديماً وتأخيراً ، يرى أن هؤلاء المفسرين يحمّلون السياق ما لايحتمل ، تأثيراً بالآية : ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ وبالأحاديث التى تفيد نزول عيسى ، ويُرَدّ على ذلك بأنه لاداعى لهذا التفكير ، فالرفع رفع مكانة ، والأحاديث لاتقرر الرفع على الإطلاق [٣] .

---

(١) روح المعانى للألوسى .

(٢) الفصل فى الأهواء والملل والنحل (عند الكلام عن المسيحية) .

(٣) الفتاوى ص ٢ وما بعدها .

أما السيد محمد رشيد رضا ، فقد أضاف إلى هذه الدراسة نقطة جديدة هى أن مسألة الرفع بالجسم والروح هى فى الحقيقة عقيدة النصارى ، وقد استطاعوا بحيلة أو بأخرى دفعها تجاه الفكر الإسلامى ، كما استطاعوا إدخال كثير من الإسرائيليات والخرافات ، وفيما يلى نص كلام الباحث الكبير : ليس فى القرآن نص صريح على أن عيسى رفع بروحه وجسده إلى السماء ، وليس فيه نص صريح بأنه ينزل من السماء ، وإنما هى عقيدة أكثر النصارى ، وقد حاولوا فى كل زمان منذ ظهور الإسلام بثها فى المسلمين [١] .

ويضيف هذا الباحث قوله : وإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يصلح العالم فمن السهل أن يصلحه على يد مصلح ولا ضرورة إطلاقاً لنزول عيسى أو أى واحد من الأنبياء .

ويتفق الأستاذ أمين عز العرب مع اتجاهات الإمام محمد عبده والسيد محمد رشيد رضا فيقول : أستطيع أن أحكم أن كتاب الله من أوله إلى آخره ليس فيه ما يفيد نزول عيسى [٢] .

ويثير الأستاذ محمد أبو زهرة نقطة دقيقة حول الأحاديث السابقة فيقرر أنها - بالإضافة إلى أنها أحاديث آحاد وليست متواترة - لم تشتهر قط إلا بعد القرون الثلاثة الأولى ، ويمكن ربط هذا بما ذكره السيد محمد رشيد رضا عن محاولات النصارى ، فإنهم فى خلال هذه القرون كانوا يحاولون إدخال بعض عقائدهم فى الفكر الإسلامى بطريق أو بآخر بدليل أن هذه الأحاديث لم تشتهر فى القرون الثلاثة الأولى مع ما وصلت له العقيدة الإسلامية من دقة وعمق فى هذه القرون، ويختم الأستاذ محمد أبو زهرة كلامه بقوله إن نصوص القرآن لاتلزمنا بالاعتقاد بأن المسيح رفع إلى السماء بجسده ، وإذا اعتقد أحد أن النصوص تفيد هذا وترجحه فله أن يعتقد فى ذات نفسه ولكن له أن يلتزم ولا يُلزم [٣] .

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ من المجلد الثانى والعشرين .

(٢) لواء الإسلام : العدد السابق ص ٢٧٠ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٦٣ .

ويقول الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى : ليس فى القرآن نص قاطع على أن عيسى عليه السلام رفع بجسمه وروحه وعلى أنه حى الآن بجسمه وروحه ، والظاهر أن الرفع أنه رفع درجات عند الله ، كما قال تعالى فى إدريس : ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم : ٥٧] فحياة عيسى حياة روحية كحياة الشهداء وحياة غيره من الأنبياء [١] .

ويقول الأستاذ عبد الوهاب النجار [٢] إنه لاحجة لمن يقول بأن عيسى رفع إلى السماء لأنه لايوجد ذكر للسماء بإزاء قوله تعالى : ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ وكل ما تدل عليه هذه العبارة أن الله مبعده عنهم إلى مكان لاسلطة لهم فيه ، وإنما السلطان فيه ظاهراً وباطناً لله تعالى ، فقوله (إِلَيَّ) هو كقول الله عن لوط : ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [العنكبوت : ٢٦] .

فليس معناه أنى مهاجر إلى السماء بل هو على حد قوله تعالى : ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء : ١٠٠] .

ويقول الأستاذ الشهيد سيد قطب [٣] عند تفسير الآية الأولى من الآيات الثلاث السابقة :

لقد أرادوا قتل عيسى وصلبه ، وأراد الله أن يتوفاه وفاة عادية ففعل ، ورفع روحه كما رفع أرواح الصالحين من عباده ، وطهره من مخالطة الذين كفروا ، ومن البقاء بينهم وهم رجس ودنس .

ونجيء الآن إلى الباحث الأستاذ محمد الغزالى وله فى هذا الموضوع دراسة مستفيضة نقتبس منها بعض الفقرات بنصوصها :

أميل إلى أن عيسى مات ، وأنه كسائر الأنبياء مات ورفع بروحه فقط ، وأن جسمه فى مصيره كأجساد الأنبياء كلها ، وتنطبق عليه الآية ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم

---

(١) نقلاً عن كتاب الفتاوى للشيخ محمود شلتوت ص ٧٤ .

(٢) قصص الأنبياء ص ٥١١ .

(٣) فى ظلال القرآن جـ ٣ ص ٨٧ .

مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر : ٣٠] ، والآية : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران : ١٤٤] وبهذا يتحقق أن عيسى مات .

وبعد . . لقد أثيرت هذه المسألة مئذ سنين فى فتوى أجاب عنها الأستاذ المراغى والأستاذ شلتوت كما رأينا ، وقد قامت ضجة على إثر إذاعة هذه الفتوى، شأن كل جديد يخرج للناس ، ومرّ الزمن وراجت هذه الفكرة وأصبحت شيئاً عادياً يدين بها البعض من المثقفين ، وطالما وقف كاتب هذه السطور يرفع صوته بها فى قاعات المحاضرات بأعرق جامعة إسلامية فى العالم وهى جامعة الأزهر وبغيرها من الجامعات وقاعات المحاضرات ، وكان الناس يتقبلون هذه الآراء قبولاً حسناً .

والذى أرجوه أن يرفق المعارضون فى تلقى الآراء الجديدة ، وأن يفحصوها بروح هادئة ، والله يهدينا سواء السبيل .


الفصل الثانى

المجامع
وأثرها فى تحديد شخصية المسيح

تعريف المجمع :

المجمع هو عند المسيحيين مؤتمر الأساقفة تحت رئاسة الحَبْر الأعظم للبت فى شئون الكنيسة ، ويكون المجمع مسكونياً إذا حضره أساقفة العالم (المسكونة) ، والمسكونى بمعنى العام أو العالمى ، والمجامع إما مسكونية عامة ، وإما خاصة بطائفة دون غيرها ويقال لها ملّيّة ، وإما خاصة بإقليم معين ، ويقال لها إقليمية، ويعترف المسيحيون على مختلف طوائفهم ونزعاتهم بالمجامع المسكونية السبعة الأولى من العشرة مجامع التالية :

١ - مجمع نيقية الأول سنة ٣٢٥م ضد آريوس .
٢ - المجمع القسطنطينى الأول سنة ٣٨١م ضد مقدونيوس .
٣ - مجمع أفسُس الأول ٤٣١م ضد نسطورس .
٤ - المجمع الخلقدونى سنة ٤٥١م ضد المنوفيزية .
٥ - المجمع القسطنطينى الثانى سنة ٥٥٣م .
٦ - المجمع القسطنطينى الثالث سنة ٦٨٠م ضد المنوثولية .
٧ - المجمع النيقدونى الثانى سنة ٧٨٧م فى شأن الأيقونات .
٨ - المجتمع القسطنطينى الرابع سنة ١٨٧٠م .
٩ - مجمع الفاتيكان الأول سنة ١٨٧٠م .
١٠ - مجمع الفاتيكان الثانى سنة ١٩٦٢ - ١٩٦٦م .

ولعصر المجامع فى تاريخ الكنيسة المسيحية من الميزات الكثيرة ما يجعل له أهمية كبيرة ، فهو أول تطور واضح فصل بين عهدين ، بل هو أول سلسلة مترابطة الحلقات صاغت للكنيسة قانون إيمانها ووضعت لها من النظم والقرارات مايكفل لها السير طويلاً .

ونحن إذ نعرض لدراسة وافية عن «المجامع » نرى أنفسنا فى احتياج إلى

تدوين عجالة تمهيدية عامة ، علها تجلو لنا بعض مانشعر به من غموض فى هذه الحقبة التاريخية الهامة .

على أنه من الثابت تاريخياً أن النظام المجمعى واجه اهتماماً كبيراً منذ أقدم العصور التى وجدت فيها روح الشورى أو تبادل الرأى .

ففى الوثنية مثلاً : كان ملوك المصريين يختارون من بين أمناء الدين والكهنة فى محفل من المبعوثين من كل إقليم نواباً وعليهم فى المداولات الاعتماد ، فكانوا يجتمعون فى البرية التى بين ميت رهينة والفيوم فتشكل منهم جمعية عمومية تنعقد فى الحوادث المهمة كالصلح والحرب ، وتحديد التراتيب وتغيير الدولة ، وعند خلو المنصب الملكى وغير ذلك من الأمور الخطيرة .(١)

وفى اليهودية نرى هذا النظام فى مجامعهم التى كثيراً ماكانت تجتمع للتشاور فيما يجد من أمور ، ولقد ذكر الكتاب المقدس شيئاً عن اجتماعهم للتشاور على صلب السيد المسيح (متى : ٢٦ / ٣ ، ومرقس : ١٥ / ١) .

وفى الإصحاح الخامس من سفر أعمال الرسل نرى صورة واضحة للمجامع اليهودية التى انعقدت لتحاكم تلاميذ السيد المسيح لمناداتهم باسم يسوع الناصرى، ولما أوشكت أن تحكم عليهم بالقتل ، وقف وسط المجمع أحد أعضائه المسمى غمالائيل معلم الناموس وحذرهم من فعلتهم هذه التى انتووها وطلب أن يتركوا هؤلاء التلاميذ ، فإن كان عملهم من الناس فسوف ينقض ، وإن كان من الله فلا يقدرون أن ينقضوه فئلا يوجدوا محاربين لله أيضاً ! . فأخذ المجمع برأيه ورجع عن عزمه واكتفى بجلدهم وتوصيتهم كى لايتكلموا باسم يسوع ، ثم أطلقوهم ! .

وجاءت المسيحية فأيدت هذا النظام وعقدت مجمعها الأول فى أورشليم لبحث شروط قبول الداخلين من الأمم إلى المسيحية ، وقد أخذت الكنيسة عن الرسل هذا المبدأ ، فكانت تعقد المجامع كلما حدث خلاف فى البيعة أوجدّ من الأمور مايستدعى ذلك .

---

(١) ميخائيل بك شاوربيم - الكافىء فى تاريخ مصر القديم والحديث - الجزء الأول ص: ١٦٤ .

المجامع المسكونية :

ولقد اجتمعت فى بداية المملكة المسيحيـة ، بعض مجامع عامة استثنائية ، دعيت بـ«المجامع المسكونية» ، إذ حضرها أساقفة كافة الكراسى المسيحية المنتشرة فى أنحاء العالم .

ولم تنعقد هذه المجـامع إلا لضرورة حتمية ، كظهـور تعليم غريب يخشى من انتشاره أن يحدث انقساماً فى البيعة .

ولهذا نرى أنه ينبـغى أن تتوفر فى «المجـامع العامة المـسكونة» بضع شروط نوجزها فيما يلى :

١ - أن تنعقد بسبب بدعة أو انشقاق .

٢ - أن تنعقد بدعوة من الإمبراطور المسيحى .

٣ - أن يحضرها غالبية أساقفة الكنيسة - شرقاً وغرباً - لتتمثل فيها المسكونة .

٤ - أن تقرر شيئاً جديداً لم يكن مقرراً من قبل .

وعلى ضوء هذه الـشروط نستطيع أن نقـول أن جمـيع المجامع التى سـبقت «المملكة المسيحـية » أى التى انعقدت فى الثلاثة قـرون الميلادية الأولى ، لاتسمى مجامع مسكونية بل تعتبر مجامع مكانية .

ولسنا نجد فى تاريخ الكنيسة ، من المجامع التى تنطبـق عليها الشروط السابقة سوى ثلاثة فقط ، تطلق عليها اسم «المجامع المسكونية» هى :

١ - مجمع نيقية :

كانت هناك دواع كـثيرة ، تتطلب عـقد مجـمع عام لإيجاد حل لهـا بعد أن استراحت الكنيسة قليلاً من عصور الاضطهاد المتـعاقبة ، فما أن جاء عصر السلام حتى فكرت الكنيسة فيـما خلفته العصور الماضية من مشاكل هامـة ، تنحصر فيما يلى :

أولاً : تحديد يوم عيد القيامة :

بدأ الخلاف بخـصوص تحديد يوم عـيد الميلاد بين آسـيا الصغـرى وبين روما عندما أعلن «بوليكربوس» أسقف أزمير ، ضرورة الاحتفال بذكرى الصلب فى يوم

١٤ نيسان العبرى والقيامة فى يوم ١٦ منه (وهما التاريخان اللذان تمت فيهما الصلب والقيامة) .

أما الكنيسة القبطية ، فكانت تعتبر الأهمية فى المحافظة على الأيام عينها من الأسبوع التى تمت فيها هذه الحوادث الجليلة ، لا فى موعدها فى الشهر العبرى، بمعنى أنها كانت تحافظ على أن يكون ذكرى الصلب يوم الجمعة والقيامة يوم الأحد (وكثيراً ماجاء ١٤و ١٦ نيسان العبرى فى غير هذين اليومين!) وكان أساقفة روما وأورشليم وأنطاكية يسيرون بسحب هذه القاعدة عينها .

ثانياً : شقاق ملاتيوس أسقف أسيوط :

وثمة مشكلة ثانية تحتاج إلى الكثير من البحث والعناية ، تلك هى أمر الشقاق الذى أحدثه ملاتيوس أسقف أسيوط ، لقد كان هذا الأسقف معاصراً للإمبراطور «دقلديانوس» مضطهد المسيحيين الذى قبض عليه وأودعه السجن ، فبدلاً من أن يعترف بإيمانه جهاراً لينال إكليل الشهادة ويكون فى ذلك قدوة لرعيته ، ورغم أن البعض من أخوته الأساقفة قد ذهبوا إليه فى سجنه يحضونه على الثبات على الإيمان ، إلا أننا نراه يضعف أمام الاضطهاد ويخاف على حياته، فيخر للأوثان منكراً ديانته !! . على أنه عاد فندم ورجع إلى الديانة المسيحية ، ولكنه بدأ يرسم أساقفة بدون إذن من رئيسه البابا بطرس خاتم الشهداء ، مغتصباً بذلك حقاً من حقوقه ! .

ويبدو أنه قد تمادى فى عصيانه فرسم حولى ٣٠ أسقفاً ، فاضطر البابا بطرس خاتم الشهداء إلى عقد مجمع مكانى قرر حرمه وأساقفته معه ، ولكن «ملاتيوس» لم يخضع لحكم المجمع واستمر فى طغيانه ، فحدث تبعاً لذلك شقاق بينه وبين بطاركة الكرازة المرقسية الذين عاصروه .

ثالثاً : إعادة معمودية الهراطقة :

ومسألة ثالثة هامة ظهرت فى الكنيسة فى القرن الثالث ، تلك هى مشكلة إعادة معمودية الهراطقة وقبول العائدين منهم إلى الكنيسة .

حدث هذا الخلاف بين «كبريانوس» أسقف قرطاجنة و«أستفانوس» أسقف

روما ، إذ قرر الأول فى رسالته التاسعة عشرة : (إن المعمدين من يد الهراطقة هم وحدهم الـذين يجب إعادة معموديتهم ، أما الذين قبلوا العماد من الكنيسة الأرثوذكسية[١] فعمادهم صحيح لايعاد) .

ولكن (أستفانوس) أسقف روما (٢٥٣-٢٥٧م) لم يرقه هذا ، إذ كان ينادى بعدم جواز إعادة المعمودية إطلاقاً .

وبدأت المسألة تتحرج عندما عقد كلاً من الفريقين بعض المجامع المكانية لتدعيم رأيه ، وإذا كانت الغالبية تقف فى جانب «كبريانوس» الذى هدده «أستفانوس» أسقف روما بالحرم إن لم يمتنع عن تعميد الهراطقة عند اعتناقهم المسيحية ! فعقد «كبريانوس» مجمعاً فى قرطاجنه عام ٢٥٥م حكم بضرورة إعادة عماد الهراطقة ومن تعمد على يدهم من يرجعون إلى الكنيسة ، أما الذين كانوا معتمدين فى الكنيسة وسقطوا فى كفر أو هرطقة ، فحكموا بعدم إعادة معموديتهم (رسالة ٧٢ لكبريانوس) .

ولما ازدادت شقة الخلاف تدخل القديس «ديوناسيوس» البطريرك الإسكندرى بما أوقف النزاع .

وهكذا استمر هذا الخلاف وتدخل القديس «ديوناسيوس» البطريرك الإسكندرى ربما أوقف النزاع .

وهكذا استمر هذا الخلاف بين أساقفة روما والكنائس الشرقية إلى أن أصدر المجمع النقياوى قراره فيه .

كل هذه المشاكل كانت تحتاج إلى كثير من الدراسة والعناية حتى يمكن إزالتها، فتتفرغ الكنيسة بعدئذ لرسالتها فى سبيل إكمال نشر دعوتها .

على أن أمراً خطيراً حدث بعدئذ فكان هو السبب المباشر لعقد المجمع المسكونى الأول ، ذلك هو : (بدعة آريوس) .

---

(١) أرثوذكس : راشد قويم الرأى ، مستقيم المعتقد وبخاصة فى الدين (المورد ص ٦٣٩) .
بروتستانت : أى أهل الدنيا الجديدة وهى مشتقة من كلمة Protst بروتست ، ومعناها الاحتجاج ، أى يحاج ويدفع بالحجة .
كاثوليك : معناها جامعة أو المذهب العمومى ؛ لأن الكنيسة الكاثوليكية لاتضم إلى أحضانها أمة معينة ، بل تدعو جميع الأمم للإنضمام تحت لوائها .

بدعة آريوس :

اشتد الاختــلاف بين الطوائف المسيحــية الأولى ، وتباعدت مـسافات الخلف تباعداً شديداً ، لايمكن أن يكون معه وفــاق ، وكان الاختلاف يدور حول شخص المسيح ، أهو رســول من عند الله فقط ، من غــير أن تكون له منزلة أكــثر ممن له شرف السفارة بين الله وخلقه ، أم له بالله صلة خاصة أكبر من رسول ، فهو من الله بمنزلة الابن ، لأنه خلق من غــير أب ، ولكن ذلك لايمنع أنه مـخلوق لله ، لأنه هو « كلمة مــن الله » ، ومن قائل أنه ابن الله ، له صـفة القدم ، كـما لله تلك الصــفــة ، وهكذا تبايــنت نحلهم ، واخــتلفت ، وكل يزعم أن نحلتــه هى المسيــحية الصحــيحة التى جاء بهــا المسيح عليه الســلام ، ودعا إليها تلامــيذه من بعده، ويظهــر أن ذلك الاختــلاف ، وتلك النحل المتباينة المتـضاربة المتنازعــة قد ظهرت بعد أن دخلت طوائف مختلفة من الوثنيين من الرومان واليونان والمصريين، فتكون فى المســيحــية مزيج غــير متــجانس ، غيــر تام التكوين، غيــر تام الاتحاد والامــتزاج ، وكل قــد بقى عنده عن عــقائده الأولى مــا أثر فى تفكيــره فى دينه الجديد ، وجعله يسير على مقتضى ما اعتنق من القديم من غير أن يشعر أو يريد .

وممن دخل فى ذلك الدين فلاسفة لهم آراء فلسفية أرادوا أن يفهموا ما اعتنقوه جديداً على ضوئها ، وعلى مقتضى منطقها وتفكيرها .

ولقد كــانت تلك الاختلافــات كامنة لاتظهــر مدة الاضطهادات الرومــانية ، لأنهم شــغلوا بدفع الأذى ، ورد البــلاء واســتقــبــال المحن والكوارث ، وكــانوا يستسرون بدينهم ولايظهرونه ، ويخفون عقائدهم ، ولايعلنونها ، حتى إذا رزقوا الأمان ، ونزلت عليهم سحائب الاطمئنان ظهرت الخلافات الكامنة ، وإذا هم لم يكونوا متفقين إلا فى التعلق باسم المسيح ، والاستمساك بالانتساب إليه ، من غير أن يتفــقوا على شىء فى حــقيقــته ، ولذا لما منحهم قــسطنطين عطفه ، واعــتزم الدخول فى النصرانية ، ووجد هذا الاختلاف الشديد ، أمر بعقد مجمع نيقية .

هذا هو السبب فى عقد مجمع نيقية بشكل عام ، ولكن له سبباً خاصاً يتعلق بنوع من هذه الخلافات ، وهو مايسمونه فى تاريخهم «بدعة آريوس» .

وهو تعليم غـريب عن الإيمان ، نادى به آريوس وبدأ يبثـه فى كل مكان بما عرف عنه من قوة فى الدعـاية وسحر فى الحديث وجاذبيـة فى البحث والشرح ، وسرعان ما كـون لنفسه حزباً من معتنقى تعـاليمه الفاسدة قوامه كـثير من الرجال ذوى المكانة السـاميـة دينياً ومـدنياً ، ليـس من بلدته فقط ، بل من كـافة أنحـاء الإمبراطورية الرومانية ! .

من هو آريوس؟!

رجل مصفر الوجـه ، طويل القامة ، حاد المزاج ، متوقـد الزهن ، ضعيف البصر ، طمـوح ، محب للارتقاء ، ولد فى ليبيا عـام ٢٧٠م ، درس الكثير من العلوم والمعـارف ، ثم نزح إلى الإسكندرية حيث التـحق بمدرستـها اللاهوتـية ، فأظهـر فى دراسته بهـا نبوغاً كـبيراً ، وعندئذ بدأ يتـكبر ، كمـا بدأ يسعى لنوال درجات الكهنوت ، ظاناً أن فى نبوغه وفصاحته مايبرر ذلك ! .

حاول الانضـمام إلى «ملاتيوس» أسـقف ليكربوليس «أسيوط» محـرضاً إياه على الإمعـان فى العصيـان وشق عصا الطاعـة على رئيسه القـديس بطرس خاتم الشهداء ، ولكنه بعدئذ أدرك أن مثل هذا العمل لن يوصله إلى شهوته وبغية نفسه فى الارتقاء إلى الدرجات الدينية الرفيعة ، وهنا ترك «ملاتيوس» وتصالح مع البابا بطرس مظهراً خضوعه فسامه شماساً سنة ٣٠٦م ثم قسيساً.(١)

بدأ آريوس تعاليمه فى عهد البابا «بطرس» خـاتم الشهداء ، وتنحصر تعاليمه فى إنكار لاهوت السيد المسـيح وأنه مخلوق وغير مسـاو للآب فى الجوهر، وكأنه

---

(١) القسيس : رئيس النصارى فى العلم ، والمفتى فى الدين والمقيم للصلوات ، وهو الآن فى مرتبة بين الأسقف والشماس ، والقسيس : كالقسّ ، والجمع قسوس وقِسِّيسون وقساوسة وقساقسـة وقسان وأقسّة ، والمصدر : القُسوسـة والقّسيسيَّة ، وقد ورد ذكر القـسيسين مرة واحـدة فى القـرآن الكريم (لسـان العـرب ٦ / ١٧٤ ، والقامـوس المحـيط ٢ / ٢٤٩ ، والمعجم الوسيط ص ٧٣٤ ، ومقدمة ابن خلدون ص ٤١٣ ، ودائرة وجدى ٧ / ٧٨٦) .

أراد أن يتجنب بدعة «سابليوس» أسقف بتولمايس (بالخمس المدن الغربية) فسقط فى بدعته هذه التى جاءت كما يعتقدون أشنع وأفظع[١] .

ولقد نقل عن «بطرس الشهيد» بطرك الإسكندرية أنه قال عن آريوس: إن إيمانه فاسد. وكتب بذلك إلى جميع البطاركة، فمضى آريوس إلى الملك «قسطنطين».[٢] ومعه أسقفان ، فاستغاثوا به وشكوا «الإسكندروس» فأمر فإحضاره إلى الإسكندرية، فحضر هو وآريوس وجمع له الأعيان من النصارى ليناظروه[٣] .

فقال آريوس : (كان الأب ، إذْ لم يكن الابن ، ثم أحدثَ الابن ، فصار كلمة له ، فهو مُحْدثُ مخلوق ، فوَّضَ إليه الأبُ كل شيء ، فخلق الابنُ المسمى بالكلمة كل شيء من السموات والأرض ومافيهما ، فكان هو الخالقُ بما أعطاه الأبُ ، ثم إن تلك الكلمة تجسدت من مريم وروح القدس ، فصار ذلك مسيحاً، فإذاً المسيحُ معنيان : كلمة وجسد وهما جميعاً مخلوقان) .

---

(١) تنحصر بدعة «سابليوس» فى أن الله أقنوم واحد ، أعطى الناموس لبنى إسرائيل بصفة أب، وصار إنساناً فى العهد الجديد بصفة ابن ، وحل على الرسل فى علية صهيون بصفة الروح القدس ، وقد عرف أصحاب هذه البدعة «بمؤلمى الأب» ، وذهب هذا المبتدع على حد قولهم إلى روما فساعده على نشر بدعته أسقفها «زفيرينوس » (٢٠٢ - ٢١٨م) وكذا خلفه «كالكستوس» (٢١٨-٢٢٣م) ، على أنه عندما عاد إلى مصر ، حاول البابا «ديونسيوس» الإسكندرى ارجاعه عن ضلاله ، فلما لم يقبل عقد ضده مجمعاً بالإسكندرية عام ٢٦١م وحرمه وبدعته .

(٢) قسطنطين : له ثلاثة أولاد . سمى الكبير فيهم قسطنطين والثانى سماه باسم أبيه قسطس والثالث سماه قسطنتيوس ، فولى قسطنطين مدينة القسطنطينية ، وولى قسطس أنطاكية والشام ومصر ، وولى قسطنتيوس مدينة رومية .

(٣) المناظرة : هى المباحثة والمجادلة والمباراة فى الإدلاء بالحجج ، والمناظر المجادل المحاجّ ، وهو نظير خصمه : لأنه صار مثله فى المخاطبة ، وعلم آداب المناظرة : علم يبحث فيه عن كيفية إيراد الكلام بين المناظرين ، أو كيفية إيراد الحجج ودفع الشبه .

والمناظر : إما مجيب يحفظ وضعاً أو سائل يهدم وضعاً ، وقد تكون المناظرة سرية أو علنية على ملأ من الناس وقد تكون تحريرية كتابية أو تقريرية لسانية بالمشافهة . (لسان العرب ٥ / ٢١٩، والمعجم الوسيط ٢ / ٩٣٢ ، وكشف الظنون ١ / ٣٨ و ٥٧٩ و ٧٢١) .

فقال الإسكندروس : أيما أوجب : عبادةُ من خلقنا ، أو عبادة من لم يخلقنا؟ فقال آريوس : بل عبادة من خلقنا أوجب. فقال الإسكندروس: فإن كان الابن خلقنا كما وصفت وهو مخلوق فعبادته أوجب من عبادة الأب الذى ليس بمخلوق، بل تكون عبادة الخالق كفراً، وعبادة المخلوق إيماناً !! وهذا أقبح القبح.

فاستحسن الملك قسطنطين كلام الإسكندروس وأمره أن يحرم آريوس .

وعندما وقف البابا بطرس الشهيد(۱) على بدعة آريوس هذه ، حاول أن يثنيه عنها فلم يقبل ، وعندئذ لم يكن بد من حرمه ، ولكن عندما ألقى القبض على البابا وأودع السجن ، بدأ بعض أعوان آريوس فى التوصل إليه ليقبله ويحله من حرمه ، فرفض ثم استدعى تلميذيه أرشلاوس والإسكندروس وقال لهما : (إن الله إله السموات يعيننى على إكمال شهادتى فلن تعودا ترياننى بعد هذا اليوم فى الجسد ، وأنت يا أرشلاوس القس تكون بطريركا بعدى وأخوك الإسكندروس بعدك ، ولاتقولا إنى عديم الرحمة ، من أجل آريوس فإن فيه مكراً مخفياً ، ولست أنا الذى حرمته بل السيد المسيح ، لأنى فى هذه الليلة لما أكملت صلاتى ونمت رأيت شاباً قد دخل على ووجهه يضىء كضوء الشمس ، وعليه ثوب متشح به إلى رجليه وهو مشقوق وقد أمسك بيده القطعة الممزقة ، فصرخت وقلت ياسيدى من الذى شق ثوبك ؟ فأجابنى : آريوس هو الذى مزق ثوبى فلا تقبله !

---

(۱) بطرس الشهيد : أقام فى البطركية بعد «تثوبا» إحدى عشر سنة ، وقتل فى الإسكندرية بالسيف ، وقتل معه إمرأته وابنتاه ؛ لامتناعهم من السجود للأصنام ، وكان ذلك فى عصر «دقلطيانوس» (٢٤٥ - ٣١٣م) وهو أحد ملوك الروم المعروفين بالقياصرة الذى اضطهد المسيحيين وسموا عصره «عصر الشهداء» لأنه أثار على النصارى بلاءً عظيماً وحزناً طويلاً ، فاستباح دمائهم وغلق كنائسهم وحمل الناس على عبادة الأصنام ، وبالغ فى الإسراف فى قتل النصارى واستباحة أموالهم ، فقتل من النصارى مالا يحصى عددهم إلا الله ، واستشهد فى أيامه ألوف الألوف من الشهداء . وعذبوا مارجرجس بأصناف العذاب وقتلوه فى فلسطين، وهلك بعد علل صعبة دود منها بدنه ، وسقطت أسنانه ، وهو آخر من عبد الأصنام من ملوك الروم ، فهلذا اتخذوا ابتداء ملك «دقلطيانوس» تاريخاً وأسماء شهور القبط: توت . بابه . هاتور . كيهك . طوبة . أمشير . برمهات . برمودة . بشنس . بئونة . أبيب. مسرى ، فهذه اثنا عشر شهراً كل شهر منها ثلاثون يوماً . (خطط المقريزى ۱ / ٢٦٢، وتاريخ ابن البطريق ۱ / ۱۱٦) .

واليوم يأتيك قوماً طالبين ارجاعه فلاتطعهم ، وأوصى أرشلاوس والإسكندروس بأن يمنعاه من شركتهما !! . على أنه عندما تبوأ البابا أرشلاوس الكرسى الإسكندرى عام ٢٩٥م[١] . ظهر أمامه آريوس المبتدع بمظهر التقوى نادماً على مافرط منه ، وفى الوقت نفسه تقدم بعض أنصاره يلتمسون من البابا قبوله ، فقبله مخالفاً بذلك وصية سلفه ! .

ولكن سرعان ماتنصب الباب الإسكندروس عام ٢٩٥م[٢] إذا لم يبق أرشلاوس على كرسى البطريركية سوى ستة أشهر فقط - فحرم آريوس وناهض بدعته ، فلم يكن من الأخير إلا أن أرسل للبابا بعض أعوانه لتقريب وجهة النظر بينهما، فنظر إليهم البابا الإسكندروس وقال : «قولوا لآريوس : أوصانى أبى ألا أقبلك ، فلا تدخل إلىّ ولا اجتمع بك ، وذلك حسب أمر السيد المسيح ، فاعترف للمخلص بخطيئتك ، فإذا قبلك فهو يأمرنى بقبولك !» منذ ذلك الحين بدأ آريوس فى نشر ضلالته جهاراً ، كما بدأ فى مقاومة البابا الإسكندروس ، فبينما كان الأخير يعظ يوماً عن سلطان السيد المسيح فى إقامة الموتى مبيناً أن الكلمة ابن الله مساوٍ للآب وأن له طبيعة وذاتاً واحدة مع الآب ، وإذ بآريوس فى مكان آخر يعظ على الآية القائلة : (أبى أعظم منى) «يوحنا ١٤ : ٢٨» ، منددأ برأى الإسكندروس ومنادياً بأن السيد المسيح غير مساو للآب فى الجوهر بل هو مخلوق بإرادة الآب !! . ولكى يروج آريوس لبدعته، نظم تعاليمه فى مقطوعات شعرية ولقنها لأتباعه فأذاعوها بين العامة لما للتلحين من أثر كبير فى نفوس السامعين .

ولم تمضى فترة حتى ترك آريوس الإسكندرية إلى فلسطين وآسيا الصغرى حيث بعض أصدقائه من الأساقفة الذين انخدعوا بآرائه وسمحوا له بنشرها ، ثم

(١) أرشلاوس : أقام ٦ شهور فقط ، راجع (بطاركة الكنيسة المصرية العدد (١٨) ١ / ٦٣ ، مختصر تاريخ البطاركة ١٠٦) ، ويقول ابن البطريق (١ / ١٢٨) إن الإسكندروس البطرك الذى يأتى بعد هذا كان زميلاً له فى التلمذة على يد بطرس ، وأن الإسكندروس أسقطه من رتبة البطريركية من أجل أنه قبل آريوس وخالف ما أمر به معلمه (بطرس) .

(٢) الإسكندروس : وهو من العدد التاسع عشر . . أقام ٢٢ سنة و١٠ أشهر (بطاركة الكنيسة المصرية ٦٣ ، مختصر تاريخ البطاركة ١٠٦) .

اتصلوا بالبابا الإسكندروس راجين قبول آريوس ، ولكن الأخير رفض ذاكراً أنه لايمكن قبوله مادام باقياً على ضلاله .

اقتنع بعض الأساقفة بينما عقد البعض الآخر مجمعين متتاليين فى عامى ٣٢٢ - ٣٢٣م قرروا فيهما إلغاء حكم البابا الإسكندروس ، وعاد آريوس للإسكندرية دفعة ثانية ينفث سموم تعاليمه ممعناً فى عناده وضلاله ، فطرده البابا مرة ثانية فعاد إلى حيث كان .

وهنا اتصل أوسابيوس أسقف نيقوميديا (١) بالإمبراطور قسطنطين راجياً وساطته لحل هذا الخلاف بين البابا الإسكندروس وآريوس المبتدع - فانتدب الإمبراطور القديس أوسيوس أسقف قرطبة الذى أتى إلى الإسكندرية ورغم مابذله من جهود ، إلا أنه لم يفلح فى مهمته ، فعاد إلى الإمبراطور حيث شرح له سبب الخلاف طالباً منه عقد مجمع مسكونى عام لعلاج هذه المشكلة الخطيرة التى تسببت من بدعة آريوس وأصبحت تهدد كيان ووحدة الكنيسة بأسرها .

جلسات المجتمع وقراراته :

انعقد المجتمع المسكونى الأول فى مدينة نيقية فى شهر مايو سنة ٣٢٥م وخصص للاجتماع الساحة الوسطى فى القصر الملكى بالمدينة لاتساعها ، حيث أعدت فيها المقاعد الكثيرة ، كما وضع فى الوسط كرسياً من الذهب ليجلس عليه الإمبراطور قسطنطين ، الذى رغب فى حضور المجمع بنفسه .

ونيقية هى العاصمة الثانية لولاية بثينية ، تقع فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى بالقرب من سلسلة جبال الألب ، وقد تهدمت منذ زمن بعيد ، ولم يبق منها سوى أطلال بالية ، وفى موضعها الآن نجد قرية «أسنيك» التركية .

ولكن ترى لماذا اختيرت نيقية لتكون مقراً للمجمع المسكونى الأول ؟! . لقد صرح الإمبراطور قسطنطين نفسه بسبب من أسباب اختيارها وهو موقعها الصحى، ولعلنا ندرك قيمة وضرورة الملائمة الصحية لمكان انعقاد المجمع عندما نرى أن بعض الأساقفة الذين حضروا مجمع أفسُس المسكونى ، قد أدركتهم الوفاة !! .

---

(١) نيقوميديا : مدينة قديمة شمال غرب آسيا الصغرى على موقعها الآن مدينة «أزميت» التركية. احتلت القسطنطينية مكانها .

ويبدو أن نيقية هذه كانت على شىء من العظمة والجمال ، أضف إلى ذلك أن ثمة أسباب أخرى دعت إلى اختيار نيقية دون سواها ! :

١ - أنه لم يكن ممكناً اختيار نيقوميديا - العاصمة الأولى لمقاطعة بثينية - لانعقاد المجمع ، ذلك لأن أوسابيوس أسقفها كان معروفاً بميوله الآريوسية، والمجمع يحتاج إلى مدينة محايدة .

٢ - ولعل من دوافع اختيار نيقية أن اسمها كان مرادفاً للكلمة المحببة لدى الإمبراطور قسطنطين . فكلمة نيقية معناها النصر أو الفتح ، وهى الكلمة التى كانت تتمثل دوماً فى مخيلة قسطنطين بعدما انتصر على أعدائه ، ذلك لأنه رآها مكتوبة فى كبد السماء تحت علامة الصليب «بهذا تنتصر» .

أول من حمل الصليب :

«الإمبراطور قسطنطين الكبير» هو الذى دعا لعقد المجمع المسكونى الأول ، كان لايزال وثنياً عندما نودى باسمه ملكاً سنة ٣٠٦م بعد وفاة والده قسطنطينوس خلورس ، وإذ أراد قسطنطين أن يخضع إمبراطورية الغرب لملكه، زحف على فرنسا بجيشه ، وبعدما طابت له الأمور هناك سار إلى إيطاليا وكان أهلها قد نادوا بمكسيموس بن مكسيميانوس [1] ملكاً عليهم ، فتقابل الملكان فى عدة مواقع انتهت بهزيمة قسطنطين ، وعندئذ جهز جيشه واستعد لمنازلة مكسيموس فى موقعة حاسمة ! .

وهنا يروى لنا أوسابيوس المؤرخ الشهير ماحدث بعد ذلك كما سمعه من الملك قسطنطين ذاته فيقول : أراد الملك أن يستمد عون «إله ما » وكانت آلهة الرومانيين كثيرة ، فتحير فيمن يطلب النجدة منها ، ولم يكن يعرف إله النصارى بعد !! ماعدا إنه يحترمهم ويوقرهم ويحترم دينهم كما كان يفعل أبوه ، وقد جال بفكره أن يوجه التفاته إلى إلههم وحده ، فرأى فى منامه كواكب فى السماء على هيئة الصليب ، ورأى صليب من نور مرقوماً عليه هذه الكتابة «بهذا تنتصر »

---

(١) مكسيميانوس : المسمى غلاريوس : إمبراطور رومانى محب للنساء ، وكان النصارى معه هو وأصحابه فى شدة شديدة . (تاريخ ابن البطريق ١ / ١٨) .

وظهر السيد المسيح له ومعه صليب وأمره أن يصنع مثاله ويجعله شعاره ، فلما انتبه من النوم استدعى رجالاً رسم لهم صليباً ، وأمرهم أن يرسموا راية على تلك الهيئة ففعلوا كذلك ، وكانت هذه الراية حربة مصفحة من ذهب وفى وسطها عارضتين بشكل صليب معلق فيه منديل حريرى عليه صورة الملك وصورة أولاده، وفى أعلاه إكليل فيه الحرفان الأولان من اسم المسيح ، وقد انتخب لحمله خمسين بطلاً من حرسه الخاص [(١)] .

ثم التحم الجيشان فى موقعة «قنطرة ملفين» فى ٢٨ أكتوبر سنة ٣١٢م ، وكانت موقعة شديدة انتهت بفوز قسطنطين وهرب جيش مكسيموس الذى مرّ على نهر التيبر فسقط الجسر به فغرق بأكمله ! وبعد عدة حروب انتصر فيها ، دان له ملك الشرق والغرب .

ويقول دين ستانلى : فى السنة التى تلت تغييره لمذهبه ودخوله فى دين المسيح، أصدر مرسوم التسامح الدينى ، ثم أتى بعد ذلك فى توالٍ سريع مرسوم حفظ يوم الأحد فى جميع بلاد الإمبراطورية ، ثم ادخال الصلاة فى الجيش ، ثم إلغاء العقوبة بالصلب ، وتشجيع تحرير العبيد لإبطال الرق ، والحض على عدم قتل الأطفال وتحريم الغرامة وتحريم ألعاب المصارعة ، وقد كانت كل خطوة من هذه الخطوات جناة طيبة وكسب للإمبراطورية الرومانية وللإنسانية .

وقد وصفه أحد المؤرخين كما ظهر فى مجمع نيقية فقال : كان جميل الطلعة طويل القامة ، ممتلىء الجسم ، عريض الكتفين ، يمثل فى خشونته طراز كبار الجيش فى الإمبراطورية المتدهورة .

وفود الأساقفة :

قبيل الموعد المحدد لانعقاد المجمع - بدأت وفود الأساقفة تصل إلى نيقية من كل مكان ، وكان فى مقدمة الحاضرين وفد كنيسة الإسكندرية المؤلف من الإسكندروس بابا الإسكندرية بصحبة رئيس شمامسته وسكرتيره الخاص إثناسيوس الرسولى ، مع رهط من الأساقفة ، من بينهم الأنبا بوتامون أسقف هرقلية بأعالى

---

(١) مختصر تاريخ الأمة القبطية - سليم سليمان ص ٤٩ .

النيل ، والأنبا بفنوتيوس أسقف طيبة الذين قلعت عيناهما بالسيف ، وكويت حواجبها بالحديد المحمى بالنار فى أيام الاضطهاد السابق .

وأظهر دين ستالى مكانة وفد كنيسة الإسكندرية فى المجمع بقوله : لم يكن الإسكندروس هذا أسقف أول كراسى العالم المسيحى من حيث سمو المنزلة والأهمية فحسب ، بل وأعلى هذه الكراسى كعباً من الوجهة العلمية ، وكان هو المنفرد بلقب «بابا» لايعرف به رسمياً فى المجمع سواه ، لأن كلمة «بابا رومية» كانت وقتئذ مما لم يتمخض به التاريخ ! أما بابا الإسكندرية فكان هو الذى يخاطب به بصفة خاصة .

وكنت ترى بجوار الإسكندروس شاباً ضئيلاً لم يتجاوز الخامسة والعشرين، لكنه كان فصيح اللسان ، قوى الجنان ، ذكى الفؤاد طليق المحيا ، عليه سمات النشاط فى هدوء وصفاء .

ذلك الشاب الضئيل والرجل النحيل ، هو رئيس الشمامسة إثناسيوس العظيم، على أنه وإن لم يكن إلا رئيس شمامسة بسيط ، وتابعاً صغيراً للإسكندروس البطريرك ، فقد قرع أسماع المجتمعين بحماس براهينه حتى أشرأبت إليه الأعناق وشخصت إليه الأبصار .

وحضر أيضاً أنسطاسيوس أسقف أنطاكية ؛ ويوساب أسقف قيصرية ، ومكاريوس أسقف أورشليم ، وبولس أسقف قيصرية الجديدة ، ويعقوب أسقف نصيبين ، وأسبريدون أسقف قبرص وغيرهم .

وحضر من أساقفة الغرب ، أوسيوس أسقف قرطبة ، وبعض أساقفة إيطاليا والغال وأسبانيا وبريطانيا ، وإذ لم يتمكن سلفستروس أسقف روما من الحضور لكبر سنة ، فأناب عنه القسين : ويتن وويكندس .

وحضر أيضاً آريوس القس المبتدع (وكان وقت انعقاد المجمع يناهز الستين من عمره) وبعض أنصاره منهم أوسابيوس أسقف نيقوميديا .

المباحث التمهيدية :

ويروى جماعة المؤرخين ، أن ثمة اجتماعات تمهيدية كانت تعقد فى الشوارع والمنازل حيث كانت تدور مباحثات ومناقشات حول القضية الرئيسية التى سينعقد المجمع من أجلها ألا وهى « بدعة آريوس » .

ولقد حضر إلى نيقية فى الأيام القليلة السابقة لعقد المجمع - الكثير من الفلاسفة الوثنيين والمسيحيين ، ليتمتعوا بمشاهدة المجمع وما سيدور فيه من نقاش، ويقال أن بعضهم اشترك فى بعض المباحثات التمهيدية التى نحن بصددها .

وكثيراً ماكان يحتدم النقاش بين الفريقين المتباحثين إلى درجة ترتفع فيها الأصوات فتحدث جلبة وضوضاء .

فلقد ذكر سقراط المؤرخ أن وطيس الجدل قد اشتد يوماً فى أحد هذه الاجتماعات التمهيدية ، واتسعت دائرة البحث وتشعبت أطرافه ، فكان ذلك مدعاة لجذب الكثيرين حولهم للاستماع إليهم ، وبينما هم كذلك وإذ برجل بسيط، تدل عينه الفاقدة للبصر ورجله العرجاء أنه قد احتمل كثيراً من أجل التمسك بالإيمان فى أيام الاضطهاد السابقة ، خطا هذا الرجل فى وسط المتناقشين المتحمسين ، وفجأة خاطبهم قائلاً : إن المسيح والرسل لم يخلفوا لنا مجموعة مسائل كلامية نعالجها بعلم المنطق ، ولاخدعاً ومخاتلات باطلة ، وإنما خلفوا لنا حقيقة عارية جلية لنحفظها ونحرسها بالإيمان والأعمال الحسنة . وكم كان تأثير هذه الكلمات فى نفوس المتجادلين عظيماً !! لقد ابتدأو - حالما استمعوا لهذا القول - يحدون من حدة نقاشهم ويخفضون من علو صوتهم .

الجلسة الأولى :

اتخذ كل من الأساقفة مكانه فى المجمع ، وعندئذ حضر الإمبراطور قسطنطين الكبير مع بعض أفراد حاشيته وأراد أن يجلس فى آخر القاعة ، غير أن الأساقفة أشاروا عليه بالجلوس على المقعد المخصص له فى صدر القاعة ، فقبل بعد أن أوضح لهم أن حضوره فى وسطهم كمستضيف فقط لأن الحكم فى قضايا الإيمان لايختص بسلطة الملك ، إنما خصّه السيد المسيح بالأساقفة فقط .

جلس الإمبراطور ، ثم جلس عن يمينه البابا الإسكندروس وإثناسيوس رئيس شمامسته ويوساب القيصرى[(١)] ، وعن يساره جلس أوسيوس أسقف قرطبة الذى أسندت إليه رئاسة المجمع لكبر سنه - وآريوس وبقية أعوانه ، وشغل الأساقفة بقية المقاعد ، واصطف الجمهور على جانبى القاعة .

وقد اختلف المؤرخون فى اليوم الذى افتتح فيه المجتمع جلساته ، ولكن غالبية المدققين منهم يؤكدون أن الجلسة الأولى للمجمع كانت فى اليوم العشرين من شهر مايو ، والجلسة الختامية فى الخامس والعشرين من شهر أغسطس سنة٣٢٥م .

وعندما أعلن افتتاح الجلسة الأولى رسمياً ، وقف أوسابيوس المؤرخ أسقف قيصرية الذى تولى سكرتيرية المجمع وألقى خطاب الافتتاح فقال : « أيها الملك العزيز ، إننا نقدم الشكر لله العلى ، الملك السماوى ، الذى أعطاك الملك الأرضى وأنارك بنور الديانه المسيحية الشريفة لعبادة الإله الحقيقى ، فنضرع إلى الله أن يبارك ملكك وسلطانك ويعظم عزك وشأنك ويعطيك أيامك الصالحة ، لأنه هو الذى ألهمك عقد هذا المجمع . . . . . » .

حتى أنهى أوسابيوس الخطبة ، فرد عليه الإمبراطور قسطنطين باللغة اللاتينية وترجمها أوسابيوس إلى الحاضرين باليونانية .

---

(١) قيصر : اسم أسرة قديمة من أشراف روما ، ثم صار اسم قيصر بعد يوليوس قيصر الشهير ، لقباً رسمياً لجميع الأباطرة الرومان ، وفى سنة ٤٤ق م تبنى يوليوس قيصر ابن اخته المسمى أوكتافيوس (أوكتافيانوس) المولود سنة ٦٣ ق م وجعله وريثه ، فعلا شأنه ، ولما تولى الحكم سنة ٢٧ق م ضم مصر للإمبراطورية الرومانية ، وأخضع المناوئين ، فمنحه مجلس الشيوخ (السناتو) عدة ألقاب منها : أوغسطس فقيل له : أوغسطس قيصر وكان هذا أول أباطرة الرومان ، وهو الذى نصب هيرودس الكبير حاكماً لفلسطين وأمره بإحصاء السكان ، فجاءت مريم وخطيبها يوسف النجار إلى بيت لحم للإحصاء وهى حامل بعيسى فولدته فى بيت لحم حسبما فى إنجيل لوقا (٢ / ١١ - ٧) ، وكانت ولادته فى عهد أوغسطس قيصر وهيرودس الكبير ، وبقى أوغسطس فى الحكم حتى وفاته سنة ١٤م ، فخلفه طيباروس قيصر ، وفى عهد الإمبراطور هادريانوس (حكم مابين عامى ١١٧ - ١٣٨م) وضع سنة جديدة ، وهى الاحتفاظ للإمبراطور بلقب أوغسطس وهى كلمة لاتينية معناها المبجل ، وتلقيب ولى العهد بقيصر . (الموسوعة الميسرة ص ١٧٥ وص ١٤١١ ، وقاموس الكتاب المقدس ص ١٣٧ وص ٧٥٤ ، ودائرة وجدى ١ / ٤٠٠ ، ومعجم الأعلام الملحق بالمورد لمنير البعلبكى ص ٩) .

ثم بدأ المجمع يزاول أعماله بالنظر فى بدعة آريوس ، فحدث كثير من الجدل والنقاش .

فمنهم من يقول : أن الابن من الأب بمنزلة شعلة نار تعلّقت من شعلةٍ أخرى، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية عنها .

وهذه مقالة «سابليوس» الصعيدى ومن تبعه .

ومنهم من قال : إن مريم لم تحمل بالمسيح تسعة أشعر ، بل مرَّ بأحشائها كمرور الماء بالميزاب (١) . وهذا قول إليان ومن تبعه .

ومنهم من قال : المسيح بشر مخلوق . وإن إبتداء الابن من مريم ، ثم إنه اصّطُفِىَ ، فصحبته النعمة الإلهية بالمحبة والمشيئة ؛ ولذلكِ سمِّىَ : ابن الله . تعالى عن ذلك ، فالله واحد قيوم .

ومنهم من قال : الآلهة ثلاثة : صالح وطالح وعدل بينهما .

وهذا قول «مرقيون» وأتباعه .

ومنهم من قال : المسيح وأمه إلهان من دون الله .

وهذا قول «المرايمة» من فرق النصارى .

ومنهم من قال : بل الله خلق الابن ، وهو الكلمة فى الأزل ، كما خلق الملائكة روحاً طاهرة ، مقدسة ، بسيطة ، مجردة عن المادة ، ثم خلق المسيح فى آخر الزمان من أحشاء مريم البتول الطاهرة ، فاتّحدَ الابنُ المخلوقُ فى الأزل بإنسان المسيح ، فصارا واحداً .

ومنهم من قال : الابن مولود من الأب قبل كل الدهور ، غير مخلوقٍ وهو جوهر من جوهره ، ونور من نوره ، وأن الابن اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم ، فصارا واحداً ، وهو المسيح .

وهذا قول الثلاثمائة وثمانية عشر . (٢)

---

(١) الميزاب : قناة أو أمبوبة ، يصرف منها الماء من موضع عال ، ويجمع على مآزيب .

(٢) كان عدد الأساقفة ألفان وثلاثمائة وأربعون أسقفاً مختلفون فى المسيح ولم يأخذ الملك إلا برأى هذا العدد القليل !!

ثم بدأ المجمع يزاول أعماله بالنظر فى بدعة آريوس ، فحدث كثير من الجدل والنقاش ، ورفعت الجلسة الأولى دون الوصول إلى نتيجة ما .

وفى اليوم التالى عاد المجمع إلى الانعقاد ، وقدم آريوس المبتدع صورة اعتقاده التى قال فيها : « إن الابن ليس مساوياً للآب فى الأزلية ، وليس من جوهره ، وأن الآب كان فى الأصل وحيداً ، فأخرج الابن من العدم بإرادته ، وأن الابن إله لحصوله على لاهوت مكتسب » .

وما أن سمع الأساقفة هذه الأقوال حتى تهيجوا لما حوته من بدع وأضاليل، وإذ أخذ آريوس يدافع عن معتقده ، انبرى رئيس الشمامسة القديس إثناسيوس وأفحمه بردوده القوية وحججه الدامغة حتى أظهر ضلاله وأبان فساد رأيه .(١)

دهش الأساقفة من موقف إثناسيوس هذا ، الذى لم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره بعد ، وفرحوا كثيراً لفصاحته ونبوغه ومقدرته على إثبات المعتقد القويم، كما نظر إليه الإمبراطور قسطنطين الكبير الذى أخذ ببلاغته وعلمه وقال له: « أنت بطل كنيسة الله » .

وعندما تحير قسطنطين فى اختلافهم وكثر تعجبه من ذلك ، وأمر بهم فأنزلوا فى أماكن ، وأجرى لهم الأرزاق ، وأمرهم أن يتناظروا حتى يتبين له صوابهم من خطئهم ، فثبت الثلاثمائة وثمانية عشر على قولهم المذكور ، واختلف باقيهم(٢) ، فمال قسطنطين إلى هذا القول ، وأعرض عما سواه ، وأقبل على الثلاثمائة وثمانية عشر ، وأمر لهم بكراسى ، وأجلسهم عليها ، ودفع إليهم سيفه وخاتمه ، وبسط أيديهم فى جميع مملكته ، فباركوا عليه ، ووضعوا له «كتاب قوانين الملوك وقوانين الكنيسة » وفيه مايتعلق بالمحاكمات والمعاملات والمناكحات ، وكتبوا بذلك إلى سائر الممالك .

ويقول ابن البطريق (١ / ١٢٧) : أنهم وضعوا له أربعين كتاباً فيها السنن

---

(١) راجع الخريدة النفيسة (١ / ٢٨٩ - ٢٩٢) تجد صورة نقاش دار بين إثناسيوس وآريوس حول العقيدة .

(٢) بلغ عدد الآباء المتفقين ٣١٨ أسقفاً ، منهم ٣١٠ من الشرق ، ٨ فقط من الغرب ! ، ولعل ذلك راجع إلى قلة الأساقفة لضعف المسيحية فى الغرب فى ذلك الوقت .

والشرائع . منها مايصلح للملك أن يعملها ويعمل بها ، ومنها مايصلح للأساقفة أن يعملوا بما فيها .

وعندما بدأ الآباء فى تحديد العقيدة السليمة ، كان الآريوسين يوافقون على ظاهر أقوالهم ، ثم يؤولونها بما يكون لصالح عقيدتهم الفاسدة ، وأخيراً تدخل إثناسيوس واقترح أن تضاف إلى العقيدة عبارة (Homo - Ousion) أى «مساوٍ فى الجوهر» للتعبير عن حقيقة صلة الأب بالابن ، غير أن الآريوسيون رفضوها وأرادوا استبدالها بعبارة مشابهة (Homi - Ousion) ومعناها «مشابه فى الجوهر» ورغم أن العبارة الأخيرة لاتختلف عن الأولى إلا بحرف واحد ، إلا أنها تختلف عنها معنوياً اختلافاً كبيراً .

وبعد نقاش كبير أخذ رأى المجمع ، فوافق على عبارة القديس إثناسيوس .

الحكم :

وتوالت جلسات المجمع إلى أن تم وضع قانون الإيمان كالآتى :

«نؤمن بإله واحد ، الله الآب ضابط الكل ، خالق السماء والأرض ، مايرى وما لايرى ، نؤمن برب واحد يسوع المسيح ، ابن الله الوحيد ، المولود من الآب قبل كل الدهور ، نور من نور إله حق من إله حق مولود غير مخلوق، مساو للآب فى الجوهر ، الذى به كان كل شيء ، هذا الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا ، نزل من السماء ، وتجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء، تأنس وصلب على عهد بيلاطس البنطى ، تألم وقبر ، وقام من الأموات فى اليوم الثالث كما فى الكتب ، وصعد إلى السموات ، وجلس عن يمين أبيه ، وأيضاً يأتى فى مجده ليدين الأحياء والأموات ، الذى ليس لملكه انقضاء ، نؤمن بالروح القدس » .

ولقد وقع على قانون الإيمان هذا أكثر من ٣٠٠ أسقف ، ولما امتنع آريوس وأنصاره عن التوقيع حرمهم المجمع كما قرر نفى آريوس وحرق كتبه .

الفصل فى القضايا الباقية :

بعد الانتهاء من الحكم فى قضية آريوس المبتدع ، فصل المجمع فى بقية القضايا المعروضة عليه ، والمدونة فى جدول أعماله :

أولاً : مسألة تحديد عيد القيامة : قرر أن يكون العيد فى موعد واحد هو يوم الأحد الذى يلى عيد فصح اليهود ، وذلك لأنه لايجوز أن يسبق المرموز إليه (عيد القيامة) الرمز (عيد الفصح اليهودى) فضلاً عن أن يسوع نفسه أكل الفصح من تلاميذه قبل صلبه . كما قرر المجمع أن يقوم بابا الإسكندرية بإعلان جميع الأساقفة سنوياً عن موعد عيد القيامة ، ولعل هذا راجع إلى أن الإسكندرية كانت يومئذ مركز العلوم الفلكية .

ثانياً : عن الشقاق الذى أحدثه ملاتيوس أسقف أسيوط : قرر المجمع حفظ حقوق بابا الإسكندرية الواجبة على مرؤوسيه ، كما حفظ حقوق أساقفة رومية وأورشليم وأنطاكية أيضاً .

ثالثاً : أما فى مشكلة معمودية الهراطقة : فقد أيد المجمع رأى الكنائس الشرقية فقرر عدم صحة معمودية الهراطقة لأنهم لايعترفون فيها باسم الثالوث الأقدس ، أما من كان معمداً فى الكنيسة عماداً صحيحاً ثم هرطق فلاتعاد معموديته عند رجوعه .

وأخيراً ، وقبل ارفضاض المجمع ، سن الآباء ٢٠ قانوناً لسياسة الكنيسة .

انتهاء المجمع :

بعد أن انتهى المجمع من حكمه وقراراته وقوانينه ، أعلن انتهاء جلساته ، فدعى الإمبراطور قسطنطين سائر أعضائه إلى مأدبة فاخرة أولمها لهم فى قصره الملكى .

ولقد غالى الإمبراطور فى احترام وتكريم الأساقفة حتى كتب أوسابيوس المؤرخ يصف هذا الاجتماع بقوله « إن اجتماع آباء الكنيسة فى سلام وصفاء بهذه المأدبة الفخمة كان يشبه صورة ملكوت المسيح ، وقد تجلى هذا المنظر أمامى كحكم أكثر مما هو حقيقى . . . » .

ثم ألقى قسطنطين الملك عليهـم خطاب الوداع ، حاثاً إياهم على إلتزام خطة المحبـة والسلام ، ثم وزع عليـهم هدايا كثـيرة ، وأعطاهم أوامر ملـكية إلى ولاة البلاد التـى هم فيهـا ، كى يوزعوا على الكنائـس فى كل عام مقـداراً من الحنطة يكفى لمؤونة اكليروسها وفقراءها وأراملها .

وبعد أن طلـب الإمبراطور الدعـاء والبركـة من الأساقـفة جمـيعـاً أعد لهم الركائب اللازمة وودعهم حيث عادوا إلى مراكز أسقفياتهم .

نظرة فى قرارات المجمع والنقد الموجه إليه :

لقد قرر المجـمع ألوهية المسيح !! وأنه من جوهر الله ، وأنه قـديم بقدمه ، وأنه لاعتريه تغييـر ولاتحول ، وفرضت تلك العقيدة على المسيـحيين قاطبة مؤيدة سلطان قـسطنطين ، لاعنة كل من يقول غـير ذلك ، والذيـن فرضوا هذا الـقول ٣١٨ أسقفاً ، ويخالفهم فى ذلك نحو ألفين أسقف ، وإن لم يكونوا متففين فيما بينهم على نحلة واحدة ، فهل المجمع لم يخل من نقد ؟ إن باب النقد فيه متسع .

١ - أول مايلاحظه الناقد أن الذين دعوا إليه ، وجابوا الأمصار ووصلوا إلى نيقية بدعوة من قـسطنطين ، وبتفاهم البـطارقة فيمـا بينهم بلغوا ألفـان وثلاثمائة وأربعون أسقفاً ، فما هى آراء الباقين ؟ ولماذا أهملت كل هذا الإهمال؟ أكانوا جـميـعاً مـختلفين فى النحل والآراء ، حـتى أن نحلة لم يصل عـددها إلى ٣١٨، فلماذا تعـذر الأخذ بالكثـرة المطلقة التى يزيد عـددها على النصف ، ولو واحداً ، اتجهوا إلى الأخذ بالكثرة النسبية ، وهو اعتناق الرأى الذى يأخذ به أكبـر عدد من الأصوات وإن لم يصل النصف أو يقاربه ؟ إن المـروى غير ذلك ، لأن ابن البطريق يقول : إن قسطنطين هو الذى اخـتار أن يعقد أولئك الأساقـفة الذين يبلغـون ٣١٨ مجلساً خـاصاً بهم ، وحـضر هو المجلس ، وأعطاهم شـارة الملك والسلطـان لأنهم أفلجـوا على إخـوانهم فى زعم ابن البطريق المسيـحى التثليثـى ، ولأن الرواة يقولون أن آريوس لما اجتـمع إليهم وألقى بدعوتـه ونحله إليهم ، انضم إلى آرائه أكـثر من سبـعمـائة أسقف ، وذلك العدد هو أكـبر عدد نالتـه نحلة من تلك النحل المختلفـة ، فلو كانت النصـرة بالكثرة النسـبيـة ، لكان الواجب إذن أن يكون الغلب لآريوس الذى

احتج بما تحت أيديهم من أناجيل ، فلما عارضوه بنصوص أخرى تدل على ألوهية المسيح قرر تحريفها .

٢ - ويظهر أن عصا السلطان ورهبة الملك كان لهما دخل فى تكوين رأى الذين رأوا ألوهية المسيح ، فلقد روى أن أولئك الـ٣١٨ لم يكونوا مجمعين على القول بألوهية المسيح ، ولكن تحت سلطان الإغراء بالسلطة الذى قام به قسطنطين بدفعه إليهم شارة ملكه ليتحكموا فى المملكة اجتمعوا ، فقد دفعهم حب السلطان إلى أن يوافقوا هوى قسطنطين الذى ظهر فى عقده مجلساً خاصاً بهم دون الباقين ، ولاعتقاده إمكان إغرائهم ، فأمضى أولئك ذلك القرار تحت سلطان الترهيب أو الترغيب أو هما معاً ، وبذلك قرروا ألوهية المسيح ، وقسروا الناس عليه بقوة السيف ورهبة الحكام .

٣ - إن المجمع فرض نفسه حكومة وجماعة كهنوتية تلقى على الناس أوامر الدين، وعليهم أن يطيعوا راغبين أو كارهين ، وقرروا أن تعاليم الدين لايتلقونها من كتب المسيحية رأساً ، بل لابد من تلّقيها من أفواه العلماء ورجال الكهنوت ، وأن أقولهم فى ذاتها حجة ، سواء أخالفت النصوص أم وافقت ، سواء أكانت الصواب ، أم جافت الحق ، وأن ذلك كان له مابعده فى المسيحية ، وهو مخالف كل المخالفة لما جاء فى تعاليم المسيح المنصوص عليها ، حتى كتبهم التى يقرأونها ويعترفون بها ، فقد جاء فى الإنجيل «تعلمون أن حكام الأمم يسودنهم ، وعظماءهم يتسلطون عليهم ، وأما أنت فلا يكن ذلك بينكم » (متى : ٢٠ / ٢٥) ، ولكن العلماء تسلطوا على إخوانهم المسيحيين لما أعطاهم قسطنطين خاتمة وسيفه وقضيبه، وبذلك خالفوا المسيح عليه السلام ليطيعوا قسطنطين .

٤ - إن المجمع أمر بتحريق الكتب التى تخالف رأيه ، وتتبعها فى كل مكان وحث الناس على تحريم قراءتها ، فهو بهذا يمنع أن يصل إلى الناس علم بأى أمر من الأمور التى تخالف رأيه ، وهو بهذا يحاول التحكم فى القلوب ، والسيطرة على النفوس بحملها على قراءة ماوافق رأيه ، ومنعها منعاً باتاً

جازماً ، من أن تقرأ غيره ، ويسد عليها منافذ النور للاهتداء إلى مايخالفه ، ولعل المجمع مـخطىء فى ذلك التحريم ، وآثم فى ذلك التـحريف ، بل إن المجامع العامة من بعد قد خطأته ، فأعادت إلى حظيرة التقديس كتباً حَرّمها، وأخرجت من البلى كـتباً حَـرّفها ، قـد حرم كتـباً من العهـد القديم ، ولم يعتـرف بها فـاعترفت بهـا المجامع المسـيحيـة من بعده ، وحـرم من كتب النصارى المعتبرة الآن رسالة بولس إلى العبرانيين ، والرسالة الثانية لبطرس ، والرسـالة الثانـية والثـالثـة ليوحنا ، ورسـالة يعـقـوب ، ورسالة يهـوذا ، ومشاهدات يوحنا ، ولكن المجامع من بعد أقرتها وأجمعت عليها.

إذن لم يكن المجمع مصـيباً فى كل الوجوه ، وإن أخطأ فى معرفـة الصحيح من الكتب، فآراؤه الأخـرى أكثر عـرضة للخطأ ، وأكثر اسـتهدافـاً للنقد ، ولعل أشدها صلة بالباطل وأقربها به رحماً، وأدناه إليه هو مايتعلق بالعقيدة.

٥ - بقى أمر نشير إليه إشارة خفيفة ، وهو مقام قسطنطين فى المسيحية عند انعقاد ذلك المجمع ، أكان مسيحياً عالماً بالمسيحية فى ذلك الوقت ، حتى ساغ له أن يحكم لبعض المجتمعين ، وإن لم يكونوا الكثرة على أى اعتبار كانت الكثرة، أكثرة مطلقة أم كثرة نسبية ؟

يقـول المؤرخ أبوسـيبـوس الذى تقـدس كلامـه الكنيـسـة وتسمـيـه سلطان المؤرخين: «إن قـسطنطين عُمّـد حين كان أسـير الفـراش ، وأن الذى عَمّـده ذلك المؤرخ نفسه ، وقد كان له صديقاً » .

والتعميد إعلان دخول المسيحية ، إذن فقسطنطين ماكان مسيحياً فى إبان انعقاد ذلك المجمع ، ومـاكان من حقه أن يحكم بفلج هؤلاء ، ويسـوغ لنا أن نقول أنه كان له فى هذا إرب خاص ، وهو تقريبهـا من وثنيته أو على الأقل عندما رجح رأى فريق كان يرجح ماهو أقرب إلى وثنيته ، وأدنى إلى مايعرفه من عقيدة ، فلم تكن الحجـة القوية فى جـانب ترجيحـه على هذا الاعتـبار ، أو كان مـتهـماً فى ترجيحه بناء على الاعتبـار الأول ، وسواء أكان هذا أم ذاك ، فهو قد رجح ماهو أقرب إلى الوثنية لوثنيته .

مجمع صور يرفض بالإجماع قرار مجمع نيقية :

يذكر ابن البطريق أن أوسابيوس أسقف نيقومدية كان موحداً من مناصرى آريوس فى المجمع العام قبل أن تبعده عنه كثرته ، ولعن من أجل هذا ، وأراد أن يتقرب من قسطنطين ، فأظهر له أنه وافق على قرار الثمانية عشر والثلاثمائة، فأزال عنه اللعنة قسطنطين وجعله بطريرك القسطنطينية ، فما أن ولى هذه الولاية حتى صار يعمل للوحدانية فى الخفاء ، فلما اجتمع المجمع الإقليمى فى صور حضره هو وبطريرك الإسكندرية الذى كان يمثل فكرة ألوهية المسيح ويدعو إليها ، وينفرد من بين البطاركة فى المبالغة فى الدعوة إليها والحث عليها ، ولعن كل من يقاومها .

وانتهز أوسابيوس فرصة ذلك الاجتماع وأثار مقالة آريوس ، ورأيه فى المسيح وإنكار ألوهيته ، وكان فى ذلك المجمع كثيرون من الموحدين المستمسكين به ، إذ لم يحتاطوا بإبعادهم كما فعلوا فى المجمع العام بنيقية ، واشتد النقاش بين رئيس كنيسة الإسكندرية ، وبين المجتمعين ، ولم يكتفوا بالنقاش القولى ، بل امتدت الأيدى إلى بطريرك الإسكندرية وعمدت إلى رأسه لإخراج الوثنية منها ، فضربوه حتى أدموه ، وكادوا أن يقتلوه ، ولم يخلصه من أيديهم إلا ابن أخت الملك الذى كان حاضراً ذلك الاجتماع .

وماسقنا ذلك القصص لرضانا عن تأييد الرأى بالعصا وجمع اليد ، ولكن سقناه ليتبين منه القارىء مقدار حماسة الموحدين من أهل المسيحية الأولى لعقيدة التوحيد ، وأنهم فى تلك الحماسة لايأهبون الشيء ولايهمهم إغضاب ذوى السلطان أو إرضاؤهم ، ولكن سقناه لتعلم أن الموحدين كما يظهر فى رواية الكتب المسيحية ، وكما يستنبط كانوا الكثرة الغالبة فى المسيحيين ، ففى مجمع نيقية كانوا الكثرة ، وفى مجمع صور الخاص كانوا الجميع ماعدا رئيس كنيسة الإسكندرية ، وإذ كانوا الكثرة فى المؤتمرات خاصة وعامة ، فلابد أن يكونوا الكثرة فى جمهور المسيحيين .

وبعد وفاة قسطنطين . . . .

يقول ابن البطريق : « فى ذلك العصر غلبت مقالة آريوس على القسطنطينية وأنطاكية وبابل والإسكندرية ، وأسيوط قد علمت أن كنيستها موحدة » .

ويقول فى بيان حال الإسكندرية ومصر بعد الإجمال السابق : « فأما أهل مصر والإسكندرية فكان أكثرهم آريوسين ، فغلبوا على كنائس مصر والإسكندرية وأخذوها ، ووثبوا على إثناسيوس بطريرك الإسكندرية ليقتلوه ، فهرب منهم واختفى » .

وهكذا نجد مغالبة قوية بين التوحيد وألوهية المسيح ، الأولى تغالب بالكثرة وقوة الإيمان وسعة الحيلة ، والثانية بقوة السلطان وبقايا الوثنية والذين كانوا متأثيرين بها ، ووجدوا مواءمة بينها وبين ما يألفون ، فابتغوها لقربها مما ألفوا وعرفوا وأمكنته التقاليد من نفوسهم ، ولكن قوة السلطان طمست نور المذهب الأول ، إذ أنها احتطات كل الأساقفة ممن لم يكونوا موحدين ، واحتطاطت أشد الاحتياط فى ذلك ، وأخذ أولئك يسيطرون على قلوب العامة بالرؤى والأحلام وإلهامات يزعمونها ، حتى اختفى المذهب الحق فى لجنة التاريخ ، ولم يبدُ على السطح إلا ألوهية المسيح !! .

المجمع الثانى
المجمع القسطنطينى الأول سنة ٣٨١م

تقرر فى مجمع نيقية أن المسيح إله ، وأنه ابن الآب ، وأنه جوهر قديم من جوهر الآب ، ولم يتعرض للروح القدس أهو إله أم روح مخلوق وليس بإله ، ولم يكن مجمع نيقية أصدر قراراً فى هذا الأمر ، لذلك ظهرت أفكاراً بين المسيحيين لاتعترف بألوهيته ، ويظهر أن الإسكندرية التى كانت مهداً للأفلاطونية الحديثة التى تقول بالتثليث ، وأن المسيطر على العالم ثلاث قوى مؤثرة فيه : قوة المكون الأول (الله) والعقل (الابن) والنفس العامة (الروح القدس) - تريد أن تفرض ذلك فرضاً على المسيحيين - كما كانت العامل القوى فى إعلان ألوهية المسيح .

بعد ارفضاض مجمع نيقية المسكونى ، ظهرت بعض التعاليم الغريبة ، فقام الآباء بتفنيدها وإظهار فسادها ، غير أن المبتدعين لم يذعنوا للحق ، بل تمادوا فى عصيانهم وضلالهم (على حد قول الأساقفة) محاولين نفث سموم تعاليمهم بين البسطاء من جماعة المؤمنين ، فكان ذلك سبباً فى الدعوة إلى عقد مجمع مسكونى ثان للفصل فى هذه البدع قبل استفحال أمرها، ولقد كان على المجمع المسكونى الثانى هذا أن يبحث ويحكم فى ثلاث بدع غريبة عرضت عليه:

١ - بدعة أبوليناروس : إذ كان يُعّلم بأن السيد المسيح قد قام مقام الروح الجسدية، وتحمل الآلام والصلب والموت مع الجسد ، وكان يعتقد أيضاً وجود تفاوت بين الأقانيم الثلاثة منادياً بأن الروح عظيم والابن أعظم أما الآب فهو الأعظم !!

٢ - بدعة أوسابيوس : فكان يعتقد بأن الثالوث الأقدس أقنوماً واحداً ، ظهر فى العهد القديم كأب وصار إنساناً فى العهد الجديد بصفة ابن وحل على الرسل فى علية صهيون بصفة الروح القدس .

٣ - بدعة مقدونيوس : أخذ هذا الرجل يجاهر بأن الروح القدس عمل إلهى

منتشر فى الكون وليس بأقنوم متمـيز عن الآب والابن ، بل هو مخلوق يشبه الملائكة ولكنه ذو رتبة أسمى منهم .

وقد فنـد القديس إثناسـيوس الرسـولى هذه البدعـة فى المجمع الذى عـقده بالإسكندرية بعد عودته من منفاه عام ٣٦٢م وأبان فـساد رأى مقدونيوس ثم حكم بحرمه وبدعته ، وتبعه فى ذلك أساقفة كثيرون .

ولما سمع الإمبراطور ثيـؤدوسيوس الكبير بانتشار هذه البـدعة وافق على عقد مجمع مسكونى فى مدينة القسطنطينية للقضاء عليها .

بدأ المجـمع أولى جلسـاته فى أيام شـهر مـايو سنة ٣٨١م برئاسـة القـديس ملاتيوس بطريرك أنطاكـية ، غير أن هذا الأب مرض قبل انتـهاء المجمع ، فرشح الآباء القديس غريغوريوس ليخلفه فى الـرئاسة ، ولكن البابا الإسكندرى وأساقفة مصر عارضوا فى هذا الترشيح ، فلما رأى غريغوريوس أن رئاسة المجمع ستحدث انقساماً تنازل عنها لصديقه فكتاريوس الذى حاز رضاء الجميع .

وبعد أن تليت المراسم الخاصة بانعقاد المجمع ، دعى مقدونيوس ليعرض اعتقاده على مسامع الآباء ، فبدأ يقـول : «أن الروح القدس مخلوق» مستنداً على الآية التى تقول : « به تـكوَّن كل شىء ، وبغيـره لم يتكوَّن أى شىء مما تكوَّن » (يوحنا: ١ / ٣)، فأجابوه قائلين: « أنه لايوجد لدينا إلا روح واحد هو روح الله، ومن المعلوم أن روح الله ليس شىء غيـر حياته ، وإذا قلنا أن حيـاته مخلوقة فعلى زعـمك أنه غير حى ، وإذا كان غير حى فهنالك الكفر الفظيع والرأى الشنيع ! » .

ثم حاول الأساقفة إقناع مقدونيـوس بخطأ عقيدته طالبين منه تركها كى يعود إلى الإيمان ، ولكنه رفض وأصر على التمسك ببدعته .

وإزاء إصرار مقدونيوس على التـمسك بآرائه ، لم يجد المجمع بداً من النطق بالحكم عليه ، فقضى بحرمه ، كما حكم الإمبراطور بنفيه .

وقرر الآباء أن الروح القـدس هو الأقنوم الثالث من الثـالوث الأقدس ، وأنه مساو للآب والابن ، ثم أكملوا قانون إيمان مجمع نيقية كالآتى :

«نعم نؤمن بالروح القدس الرب المحيى ، المنبثق من الآب ، نسجد له ونمجده مع الآب والابن ، الناطق فى الأنبياء ، وبكنيسة واحدة جامـعة مقدسة رسولية ،

ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ، وننتظر قيامة الأموات ، وحياة الدهر الآتى . . . آمين» .

ثم بحث المجمع بدعة أبوليناريوس وأوسابيوس ، وقرر حرمهما ومن يعتقد بهما .(١)

ثم رفعت أحكام المجمع للإمبراطور فوافق عليها وثبتها .(٢)

وأخيراً :

إن روح القدس خلقه الله ، واتخذه ليكون رسولاً بينه وبين من يريد أن يلقى عليه وحياً من خلقه ، أو أمراً كونياً ، فهى ليست روح الله المتعلقة بذاته، وليس عنده من دليل على ماقال ، لكن هكذا ساق السلسلة ، وهكذا اقتنع سامعوه ، وبذلك تم له الثالوث الذى يتشابه تماماً مع فلسفة الإسكندرية ، وقد أعلنها بطريرك الإسكندرية، وزادوا بذلك على مجمع نيقية هذا الأقنوم الثالث.

إذن تقرر التثليث ، وتمت أقانيمه ولكن مازال للمؤتمرات العامة والمجامع العامة موضع ، فإن طبيعة المسيح الإنسانية والإلهية ، كيف تجتمعان ؟ هذا موضع الخلاف ، ولهذا تجتمع المؤتمرات .

---

(١) فى هذه الأيام وفى عهد تاوفيلا بطريرك الإسكندرية (٣٧٦ - ٤٠٤م) ظهر الفتية أهل الكهف ، وكان تاوداسيوس إذ ذاك ملكاً على الروم ، فبنى عليهم كنيسة ، وجعل لهم عيداً فى كل سنة ، واشتد الملك تاوداسيوس على «الإريسيين» وضيق عليهم ، وأمر فأخذت منهم كنائس النصارى بعدما حكموها نحو أربعين سنة ، وأسقط من جيشه من «الحنفاء» كثيراً ، وهدم بيوت الأصنام فى كل موضع .

وفى أيامه بنيت كنيسة مريم بالقدس ، وفى أيام الملك أرغاديوس بنى «دير القصير» المعروف الآن بدير البغل فى جبل المقطم ، شرقى «طرا» خارج مدينة فسطاط مصر .

(٢) راجع مجموعة المجامع - فليب لابيه اليسوعى (٣ / ٥٨٥ ، وسقراط ٥ / ٨) .

المجمع الثالث
مجمع أفسُس سنة ٤٣١م .

انعقد المجمع المسكونى الثالث فى مدينة أفسُس ضد نسطورس ، بأمر الإمبراطور ثيؤدوسيوس الصغير ، وقد حضره مائتا أسقف ، وتحدد لافتتاحه يوم عيد العنصرة عام ٤٣١ م .

عيد العنصرة :

زعم أبريس «كورلس» أسقف بيت المقدس ، أنه ظهر فى السماء على القبر الذى بكنيسة القمامة شبه صليب من نور ، فى يوم عيد العنصرة ، لعشرة أيام من شهر آيار فى الساعة الثالثة من النهار ، حتى غلب نوره على نور الشمس ، ورآه جميع أهل القدس عياناً ، فأقام فوق القبر عدة ساعات والناس تشاهده ، فآمن يومئذٍ من اليهود وغيرهم عدّة آلاف كثيرة .

نَسطورس :

بطريرك قسطنطينية كما جاء فى سائر المصادر . وليس بطريرك قسطنطين كما هو مذكور فى الخطط والآثار والقول الإبريزى .

ونسطورس هذا ، مؤسس طائفة النساطرة ، أو الآشوريين ، الذين قطنوا فى كردستان بين الموصل وأرمينيا إلى أن تبدد شملهم بعد حرب سنة ١٩١٤م . فتفرقوا فى بلدان شتى ، وازدهرت عندهم الحياة الرهبانية ، فأوفدوا المبشرين إلى آسيا الشرقية منذ فجر القرن السادس ، ومنهم انتشرت النصرانية فى فارس والهند والصين .

أفسُس :

ومدينة أفسُس التى تقرر أن يجتمع فيها هذا المجمع ، كانت واقعة على ضفاف نهر كايستر الذى يجرى فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى .

وكانت قديماً من أعظم المدن وأبهجها ، كما كانت ميناءً تجارياً هاماً ، وفى بدء عهد الإمبراطورية الرومانية تبوأت أفسس مكانتها بين العالم المسيحى ككرسى

رسولى ، ثم بدأت تضعف شيئاً فشيئاً إلى أن تلاشت تماماً ، بعد أن خضعت للرومان سنة ١٣٣ق م . وكانت تحتل الصدارة بين مدن آسيا ، وأصبحت مركز المسيحية ، ولم يبق منها سوى آثار هيكل أرطاميس الذى اشتهرت به فى العصور الوثنية .

تعاليم نسطورس :

قال إنما ولدت مريم إنساناً اتحد بمشيئة الإله - يعنى عيسى - فصار الاتحاد بالمشيئة خاصةً لا بالذات ، وإن إطلاق الإله على عيسى ليس هو بالحقيقة ، بل بالموهبة والكرامة .

وقال : إن المسيح حل فيه الابن الأزلى ، وإنى أعبده ؛ لأن الإله حل فيه، وإنه جوهران وأقنومان ومشيئة واحدة .

وقال فى خطبته يوم الميلاد : إن مريم ولدت إنساناً ، وأنا لا أعتقد فى ابن شهرين وثلاثة ، الإلهية ، ولا أسجد له سجودى للإله .

وكان هذا هو اعتقاد تادروس وديوادارس الأسقفين ، وكان من قولهما : إن المولود من مريم هو المسيح . والمولود من الأب هو الابن الأزلى ، وإنه حلّ فى المسيح ؛ فسمى ابن الله بالموهبة والكرامة ، وإن الاتحاد بالمشيئة والإرادة . وأثبتوا لله - تعالى عن قولهم - ولدين أحدهما بالجوهر ، وآخر بالنعمة .

دعوة الإمبراطور لعقد المجمع :

الإمبراطور ثيؤدوسيوس الصغير : نصب ملكاً بعد وفاة والده أركاديوس عام ٤٠٨م ، وكان مواظباً على العبادة ، ميالاً للصوم ، شغوفاً بدراسة الكتاب المقدس حتى حفظ أكثر أجزائه !!

ويبدو أنه كان مسالماً طيب القلب ، حتى أن البعض سألوه مرة قائلين : «لماذا لم تقتل أحداً ؟ » فأجابهم قائلاً : «ليتنى أستطيع أن أحيى الموتى !» .

ولما ظهرت ضلالة نسطور فى أيامه ، ولمس القديس كيرلس الكبير عناد هذا المبتدع ، أرسل إلى الإمبراطور يقول : إن آباءك كانوا غيورين على الكنيسة ، مؤيدين لها ، مدافعين عن عقائدها ، وها إنه فى عهدكم الزاهر قد ظهر نسطور

هذا الذى يريد أن يشتت البيعة بضلاله . . لهـذا نسأل جلالتكم أن تأمروا بعقد مجمع عام للنظر فى موضوع هذا الرجل ، فندعو لك ونبارك ملكك .

ووافق الإمـبراطور ، وحـدد موعـد المجمع ثم أمـر بإرسال الدعـوة لجمـيع الأساقفة ليكونوا على استعداد للحضور إلى أفسُس فى الموعد المحدد .

وبعد أن احتفل الأساقفة - كل فى مقره - بعيد القيامة المجيد ، بدأوا يعدون العدة للذهاب إلى مقـر المجمع فى أفسُس ، وقبيل الموعـد المحدد ، وصلت وفود الأساقفة ، فجاء القديس كيرلس البابا الإسكندرى بصحبة خمسون أسقفاً مصرياً، كما حضر المجمع معه : الأنبا شنودة رئيس المتوحدين والأنبا بقطر السوهاجى (١) رئيس دير فاو الراهبين ، كما جاء يوبيناليـوس أسقف أورشليم ، فاستقبلهم ممنون أسـقف أفسُس (الذى ينحـدر إلى أصل مـصرى) ، مع رهط من الأسـاقفـة ، استقبالاً عظيماً دل على مالهم من مكانة فى نفوس الجميع .

كما حضر إلى مقر المجمع نسطور المبتدع ومعه أربعون أسقفاً من التابعين له، وتأخر عن الموعـد المحدد يوحنا بطريرك أنطاكـية وأساقـفته ، وكـذا نواب أسقف روما، ولهـذا اضطر الآباء إلى تأخير عقـد المجمع فى موعده انتظاراً لمجىء بـقية الأعضاء .

ولكن بعـد مضى مايقـرب من سـتة عشر يومـاً ، أرسل الأساقـفة المتـأخرين اعتذاراً، ذاكـرين أنهم سيحضرون قريبـاً ، كما أنفذ يوحنا بطريك أنطاكيـة أسقفين حمـلاً موافقـته على عقـد المجمع قبل حـضوره ، وفى الوقت عينه كـان القديس كيرلس قد تسلم أمراً ملكياً بوجوب عقد المجمع حالاً دون تأخير أو إبطاء .

عندئذ قرر الآباء جميعاً عقد المجمع فى اليوم التالى .

---

(١) بقطر السوهـاجى : عن رقوق قبطيـة أخذت من دير الأنبا شنـودة بسوهاج ، وقام العـلامة المستشـرق بوديان بنشرها بالقبطية مع ترجمـتها الفرنسية ، ثم طبـعها أرنست لروا فى باريس عام ١٨٩٢م ، ولقد ذكر فى هذه الرقوق أن القديس كـيرلس الإسكندرى قد أوفد الأنبا بقطر هذا ليكون مندوباً عنه فى القسطنطينية لدى الإمبراطور ثيـؤدوسيوس الصغير ، وقد لعب هذا الراهب دوراً هامـاً فى سـبيل توصـيل آراء البـابا كيـرلس وقـرارات المجـمع الأفسـسى إلى الإمبراطور .

الجلسة والحكم :

عقد المجمع أولى جلساته فى شهر يونيو عام ٤٣١م ، متخذين الكنيسة الكبرى بأفسُس (كنيسة السيدة العذراء) مقراً لهم ، وكان عدد الحاضرين مائتى أسقف . ثم طرحت رئاسة المجمع على الآباء ، فأجمع الكل على انتخاب القديس كيرلس بابا الإسكندرية رئيساً ، لما أشتهر به من غزارة العلم وقوة الحجة وشدة التمسك بالإيمان ، فضلاً عن متابعته لبدعة نسطور منذ بدايتها .

وعندما كان المجمع يمهد لجلسته الأولى بالصلاة ، أرسل ثلاثة أساقفة لاستدعاء نسطور ، ولكن مندوب القصر لم يمكنهم من مقابلته ، فأرسل إليه الآباء دفعة ثانية فثالثة فأجاب : « بأنه لايرى فى حضوره إلى المجمع لزوماً » ، وأخيراً أرسل إلى المجمع رسالة موقعاً عليها منه ومن بعض أساقفته قال فيها أنه لايمكنه حضور المجمع قبل وصول يوحنا الأنطاكى وأساقفته !

ولم يأخذ المجمع بهذه الادعاءات الواهية لعلمه بسوء نية نسطور كاتبها ولاضطراره إلى عدم تأخير انعقاد المجمع أكثر من ذلك ، واستمر فى عقد جلسته .

وافتتحت الجلسة الأولى بتلاوة رسالة الإمبراطور ثيؤدوسيوس الصغير للمجمع، وبدأ الأعضاء فى مناقشة تعاليم نسطور على ضوء كتاباته ورسائله وأقواله المدونة ، فإذا بها تعاليم خاطئة ، واستمر المجمع فى جلساته بينما كان الشعب متجمهر فى الخارج ينتظر القرارات العادلة .

الحكم ونهاية نسطور :

وقبيل ارفضاض الجلسة أصدر المجمع حكمه ضد نسطور قائلاً : « حيث أن نسطور كلى النفاق ، قد رفض أن يخضع لصوت دعوتنا إياه ، ولم يقبل الأساقفة الذين أرسلناهم إليه من قبلنا ، لم يمكننا أن نتأخر عن أن نفحص تعاليمه الآثمة ، وبما أننا قد تحققنا من رسائله وأقواله قبل افتتاح المجمع مايبرهن على معتقده الأثيم، لهذا رأينا بناءً على القوانين المقدسة ، أن نبرز ضده هذا الحكم بكل حزن ودموع ، سائلين المولى بواسطة هذا المجمع المقدس أن يعدمه درجة الأسقفية ، وليكن مفرزاً من أية شركة كهنوتية » .

وبعد أن وقع الجميع على الحكم السابق ، أرسلوا إلى نسطور كتاباً قائلين :
«من المجمع المقدس الملتئم بمدينة أفسُس ، برحمة الله تعالى وبموجب تعاليم مخلصنا الفادى ، وباسم جلالة الإمبراطور الكلى العبادة ، والحسن الديانة ، إلى نسطور يهوذا الثانى :

«اعلم إنه لأجل تعاليمك النفاقية ، وعصيانك على القوانين قد عُزلت وقُطعت من هذا المجمع المقدس بموجب قوانين الكنيسة ، وحكم عليك بأنك عديم الدرجة ومسلوب الوظيفة ، وغريب من كل خدمة كنيسة !! . . » .

ثم قرر المجمع بحسب التعليم المحفوظ فى الكنيسة منذ عصر الرسل ، أن سر التجسد المجيد قائم فى اتحاد اللاهوت والناسوت فى أقنوم الكلمة الأزلى بدون انفصال ولا امتزاج ولاتغيير ، وأن السيدة العذراء هى والدة الإله .
ووضع الآباء مقدمة قانون الإيمان كالآتى :

«نعظمك يا أم النور الحقيقى ونمجدك أيتها العذراء القديسة والدة الإله ، لأنك ولدت لنا مخلص العالم أتى وخلص نفوسنا ، المجد لك ياسيدنا وملكنا المسيح ، فخر الرسل إكليل الشهداء ، تهليل الصديقين ، ثبات الكنائس ، غافر الخطايا ، نكرز ونبشر بالثالوث المقدس لاهوت واحد ، نسجد له ونمجده ، يارب إرحم ، يارب إرحم ، يارب بارك آمين » .

وهنا رفعت الجلسة ، وأعلنت الأحكام للشعب ، الذى فرح كثيراً عندما وقف على حرم نسطور ، وبدأ يهتف للقديس كيرلس بابا الإسكندرية ورئيس المجمع .

ثم تقرر نفيه إلى ديره الأول ، ولكنه رغم كل هذا ، لم يتب ولم يستكن، بل بدأ ينفث سموم تعاليمه بين الرهبان وغيرهم ، الأمر الذى أغضب الإمبراطور وحدا به إلى إصدار الأمر بنفيه إلى إخميم بصعيد مصر ، حيث أدركته المنية هناك.

وقد اختلف المؤرخون فى سبب موته ، فقال البعض أنه لما تملك عليه اليأس لعدم تمكنه من الرجوع إلى بلاده دفعة ثانية ، شرخ رأسه بحجر ومات منتحراً ، وقال البعض الاخر أن الرب قد ضربه بالدود الذى أكل لسانه وأماته شر ميتة .

النسطورية بعد نسطور:

على أن البدعة النسطورية لم تمت تماماً بموت نسطور - وإن كانت قد ضعفت كثيراً - ذلك لأن معلموا مدرسة الرُّها وتلاميذها تمسكوا بتعاليم نسطور الخاطئة ، وبدأوا ينشطون فى نشرها ، ولما طردهم أسقف المدينة ، هربوا إلى نصيبين ومعهم بعض الكهنة ، وهناك شيدوا مقراً لهم ، ورسموا رئيساً عليهم.دعوه «جاثاليقا» وعملوا على نشر بدعتهم فى بلاد فارس وآشور والهند وغيرها.

ولازال بعض النساطرة حتى الآن فى جبل سنجار على حدود بلاد فارس وفى ملبار بالهند .

عنينا ببيان المجامع الثلاثة السابقة ببعض التفصيل ، ولم نضن على القرطاس فيها ببعض الإطناب ، لأنها المجامع التى قررت بها العقيدة المسيحية الحاضرة .

فأولها قرر ألوهية المسيح ، وثانيها قرر ألوهية الروح القدس ، وثالثها قرر أن المسيح اجتمع فيه الإنسان والإله ، لا الإنسان فقط ، وأن مريم ولدت الاثنين ، والمجامع الثلاثة الأولى اتفقوا على أنها مجامع عامة تلزم المسيحيين أجمعين ، أما المجمع الرابع الذى قرر أن المسيح ذو طبيعتين منفصلتين ، لا طبيعة واحدة متحدة، وهو مجمع خلقدونية سنة ٥٤١م ، فهو ليس مجمعاً عاماً فى نظر المصريين ، والكنائس تنتهج نهج كنيستهم .

والمجامع الآتية بعد ذلك ليس فيها مجمع قد أجمع عليه المسيحيون قاطبة بأنه مجمع عام مسكونى كما يعبرون ، فكل هذه المجامع لم تمثل فيها الكنيسة المصرية بعد انشقاقها على كنيسة روما ، أو انشقاق كنيسة روما عليها .

المسيحية والتوحيد:

من البيان الذى سقناه فى المجامع ، وما انعقدت بسببه من خلافات يظهر لنا أن المسيحية قد أتى عليها حين من الزمن كان التوحيد هو السائد بين معتنقيها، والغالب على كل نحلة سواء من نحلها ، وإنك لترى ذلك واضحاً فيما بيّناه من أن آريوس عندما ظهر مقاوماً لفكر الألوهية ، ومنازعاً كنيسة الإسكندرية فى ذلك المبدأ الذى كانت تبثه فى النفوس وهو ألوهية المسيح ، وتنادى به على رؤوس الأشهاد ، بينما كان أتباعه فى مصر وفلسطين والقسطنطينية ، (وهذه مواطن

المسيحية فى ذلك الإبان) أكثر عدداً وأقوى مكانة ، فكثير منهم أساقفة ورؤساء كنائس ، وكل ذلك مع قسطنطين الإمبراطور الحاكم بأمره الذى لامعقب لحكمه ، كان يشايع فكرة ألوهية المسيح ويناصرها ، ويحميها ويؤيدها ، كما بينا عند الكلام فى مجمع نيقية ، إذ حمى القائلين أن المسيح فيه ألوهية بحمايته ، ووضعهم تحت ظله وأمرهم بالجاه والسلطان .

وإذا كان قد أتى حين كان فيه التوحيد هو السائد ، فصح لنا أن نقسم عصور المسيحية إلى قسمين :

عصر التوحيد : ونجعل نهايته الزمن الذى انعقد فيه مجمع نيقية ، أو ما ولى ذلك الزمن بقليل ، إذ غالب التوحيد فكرة ألوهية المسيح ردحاً غير قصير من الزمن بعد مجمع نيقية .

عصر التأليه : وذلك العصر يبتدىء بعد مجمع نيقية ، وبعد أن استطاع أباطرة الرومان أن يطمسوا نور التوحيد فى وسط المسيحيين ، ويمنعوا الموحدين من نشر دعايتهم .

وبعد مجمع نيقية أبعد التوحيد رسمياً عن الديانة المسيحية ، وإن كان أتباعه أكثر عدداً وأعز نفراً ، ولم تستطع الحكومة الرومانية أن تقضى على التوحيد بذلك المجمع ، ولكنها أخذت تبعد الموحدين عن مكان الرياسة فى الكنائس ، ولاتجعل صوتهم يصل إلى الشعب ، بالنفى والتشريد ، وكل ذرائع الأذى والاضطهاد ، حتى حيل بين العامة وبين سماع صوت التوحيد ، وفعل الزمن فعله ، وتغلبت الظلمة على النور ، وأخفى ظلام الليل نور النهار الساطع .

فرقة آريوس والتوحيد :

والفرق التى ظهرت فى عهد التوحيد كثيرة ، وبعضها كان مستمسكاً بالتوحيد، ومعه الكثرة الغالبة من المسيحيين كما استنبطنا من السياق التاريخى، وكما يستفاد من ثنايا التاريخ ، وبعضها كان قد انحرف عن التوحيد، حتى كان وجوده تمهيداً للتثليث، أو سيراً ببعض الخطوات فى سبيله.

وأظهر الموحدين آريوس وأتباعه ، وقد كانوا كثيرين ، فقد شرحنا أنه قد كان يأخذ بمذهبه بطريك القسطنطينية وغيره من البطارقة ، وكان رأيه منتشراً فى مصر والشام ومقدونية ، وهى مواطن المسيحية كما علمت .

يقول ابن حزم فى بيان فرقة آريوس : « والنصارى فرق ، منهم أصحاب آريوس ، وكان قسيساً بالإسكندرية ، ومن قوله التوحيد المجرد وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق ، وأنه كلمة الله تعالى التى خلق بها السموات والأرض ، وكان فى زمن قسطنطين الأول باقى القسطنطينية ، وأول من تنصر من ملوك الروم، وكان على مذهب آريوس » .

وهذا الكلام يحتاج جزءه الأخير إلى نظر ، فهو يزعم أن قسطنطين كان على مذهب آريوس ، وقد بيّنا عند الكلام فى مجمع نيقية ،أنه هو الذى تدخل بنفوذه وسلطانه ، فعزل أنصار لاهوت المسيح ، واعتبر المجمع مكوناً منهم دون سواهم، وقد كان المجتمعون أول الأمر أكثر من ألفين ، فرفض رأى الكثرة ، وعقد مجمعاً مؤلفاً من ثمانية عشر وثلاثمائة ، بينما يذكر الثقات من المؤرخين أنه قد صرح بنصرة آريوس من المجمعين أكثر من سبعمائة .

نعم إن الآريوسيين قد حاولوا بعد ذلك جذبه إلى رأيهم ، وضمه إلى حزبهم ليستفيدوا منه قوة وسلطاناً ، فمال إليهم أخيراً ، أو أظهر الميل ، وإن كان لم يعمل على مذهبهم ، ولم يعقد مجمعاً ليقرر رأيهم ، كما فعل بالنسبة لغيره ، وأقصى ما عمله أنه رد المحرومين إلى حظيرة المسيحية ، وأعاد المنفيين من منفاهم، ومكنهم من الاستمتاع بنعمة الحرية ، ولعل ذلك كان كياسة منه وسياسة، إذ رآهم كثرة المسيحيين الغالبة ، وأقوالهم هى الشائعة الرائجة ، فأظهر الميل إليهم حتى لاينقضوا عليه .

أصحاب بولس السمساطى :

ومن الموحدين الذين ظهروا أصحاب بولس السمساطى، ويقول فيه ابن حزم: «كان بطريرك بأنطاكية ، وكان قوله التوحيد المجرد الصحيح ، وأن عيسى عبدالله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام ، خلقه الله فى بطن مريم من غير ذكر ، وأنه إنسان لا إلهية فيه ، وكان يقول : لا أدرى ما الكلمة ، ولا الروح القدس » .

ومن هذا يتبين أن مذهب بولس هذا كان توحيداً خالصاً ، وأن عيسى ليس إلا رسولاً من رب العالمين ، وأنه كان إذا عرض له البحث فى كلمة الله ، وروح القدس أمسك عن ذلك ولم يخض فيه ، وتوقف واعتصم بذلك .

استبداد الكنيسة بفهم الكتب المقدسة :

لقد احتجزت الكنيسة لنفسها الحق فى فهم الكتب المقدسة عندهم ، واستبدت بتفسيرها دون سائر الناس أن يتلقوا قولها بالقبول ، وافق العقل أو خالفه ، وعلى المسيحى إذا لم يستسغ عقله قولاً قـالته أو مبدأ دينياً أعلنته ، أن يروض عقله عل قبـوله ، فإن لم يستطع ، فـعليه أن يشك فى العقل ، ولايشك فى قـول البابا ، لأن البابا خليفة لسلسلة الخلافة التى بيّناها .

ولقد كـانت تعلن أموراً مـاجاء بها الكتـاب المقدس عندهم ، ومـاتعرض له المسيحيـون الأولون ، ولا المجامع الأولى ، وهى أمور غريبة جد الـغرابة ، بعيدة عن القبول فى أحكام العقل جـد البعد ، وتلزم المسيحيين بها ، وتفـرضها عليهم فرضاً ، ومن قال فيها كلمـة فالويل له ، وينزلون به فى الدنيا ولاينتظرون حساب الديان فى الأخرة .

ونذكر القـارىء على سبيل المثال بمسـألتين كان لهما أثر فى الفكر المـسيحى، وبسبـبهمـا هما وغيـرهما تقدم المصلحـون فى جرأة، داعين إلى إصلاح الكنيـسة بالحسنى أو بغير الحسنى ، هاتان المسألتان هما مسألة الاستحالة ومسألة الغفران.

١ - مسألة الاستحالة :

الأفخارتستـيا (الأوخارستيا) هو السرّ الذى فى الـعشاء الربانى ، وهو وجود جسد الرب يسوع ودمه ونفسه ولاهوته فـى الخبز والخمر ، ففى الإنجيل «من يأكل جسدى ويشرب دمى ، فله حياة أبدية ، وأنا أقيمه فى اليوم الأخير ، لأن جسدى هو الطعام الحـقيقى ، ودمى هو الشراب الحقـيقى » (يوحنا : ٦ / ٥٤ - ٥٦) ، وذلك أن الكاهن يأخذ بيده قطعـة الخبز وكأس الخمر لايبقى منـهما إلا ظاهرهما وأما الجوهر فيتـلاشى ليحل محلهما جسد المسيح ودمه ، فإن قـسم الخبز والخمر إلى أجزاء كثيرة ، كان جسد المسيح ودمه فى كل جزء كاملين تامّين بحقيقتيهما لا بالمجاز ، ويقول البروتستانت بالمجاز لا بالحقيقة . (دائرة وجدى : ١٠ / ٢١٣).

وفى صفحة ٢٦٤ من كـتاب الثلاث عشرة رسالة مـايلى : « إنه كانت عادة بين المسيـحيين أنهم يأتون إلى الكنيـسة بهدايا من ثـمر الأرض مخـتلفة الأشكال لأجل الفقراء ، يضعونها على المائدة أو المذبح ، ومنهـا يأخذ الكاهن خبزاً وخمراً

للقدّاس ، فهذه الهدايا المقدمة من الشعب يسمّيها القديس إيرونيموس الأفخارستيا، أى الشكر من الناس لله لأجل ثمر أرضهم ، ويقول : إن هذه الهدايا من الناس هى القربان المطهر » .

ويقال للعشاء الربانى : (مائدة الربّ) أو (شركة جسد الرب ودمه) ، وهى إحدى عقائد النصارى الأساسية ، فهم يعتقدون أن المسيح أكله مع تلاميذه ليلة القبض عليه ، قبيل ذهابه إلى بستان جثشيمانى ، فإنه بعد أن تناول عشاء الفصح، أخذ الخبز وباركه ، وقدّم الشكر لأجله ، ثم كسره وأعطاه للتلاميذ مع الخمر ، ويسمون كأس الخمر التى تشرب فى هذا العشاء (كأس الرب) أو (كأس البركة) ، ويعتقدون أن من يأكل هذا العشاء فى موعده من كل سنة فإن الخبز يتحول إلى لحم المسيح فى لحومهم ، والخمر يتحول إلى دم المسيح فى دمائهم ، فيحصل الاشتراك بين المسيحى والمسيح . (قاموس الكتاب المقدس ص٥٠٩ وانظر ص ٣٩٦) .

وذلك أمر غريب فى العقل ، لايستطيع أن يستسيغه أحد بيسر وسهولة ، بل لايستطيع أن يستسيغه قط ، إذ كيف يتحول الخبز لحماً ، وكيف يصير لحم شخص معين معروف ، وكيف يتحول الخمر دماً ، وتصير دم شخص معين معروف ؟ ذلك غريب بل مستحيل التصور والقبول فى العقل ، ولكن الكنيسة فرضت على الناس قبوله ومنعتهم من مناقشته ، وإلا عرضوا للطرد والحرمان ، وهل ورد هذا الأمر فى الكتب المقدسة ، حتى يجب الأخذ به من غير تفسير أو تأويل ؟ إنه أمر استقلت به الكنيسة وأعلنته وأبدته فى أحد مجامعها ، غير معتمدة فى ذلك على نص صريح من الكتب المقدسة عندهم .

ولقد خالفت فى بعض شأنه الكنيسة الكاثوليكية غيرها من الكنائس ، فالكنيسة الشرقية ترى أن العشاء الربانى لايكون بالفطير ، بينما تراه الكنيسة اللاتينية ، ووجد من أحرار الفكر من ينكرون هذه الاستحالة ، ويعتقدون إنها غير ممكنة فى العقل ولاسائغة فى الفكر .

٢ - مسألة الغفران :

أما المسألة الثانية فهى مسألة امتلاك الكنيسة حق الغفران للمسىء فى الدنيا، فقد قررته الكنيسة حقاً لنفسها فى المجمع الثانى عشر .

وقد جاء فى كتاب تاريخ الكنيسة فى بيان قرار المجمع فى هذا الشأن : «أنهى المجمع تعليمه فيما يتعلق بأمر الغفران » فقال : « إن يسوع المسيح ماكان قد قلد الكنيسة سلطان منح الغفرانات ، وقد استعملت الكنيسة هذا السلطان الذى نالته من العلا منذ الأيام الأولى ، قد أعلم المجمع المقدس ، وأمر بأن تحفظ للكنيسة فى الكنيسة هذه العملية الخلاصية للشعب المسيحى ، المثبتة بلسطان المجامع».

ثم ضرب بسيف الحرمان من يزعمون أن الغفرانات غير مفيدة ، أو ينكرون على الكنيسة سلطان منحها ، غير أنه قد رغب فى أن يستعمل هذا السلطان باعتدال واحتراس حسب العادة المحفوظة قديماً والمثبتة فى الكنيسة ، لئلا يمس التهذيب الكنسى تراخ بفرط التساهل .

إفراط الكنيسة فى استعمال حق الغفران :

هذا قرار المجمع ، وفيه يمكن للكنيسة من سلطان قوى جبار ، وهو سلطان مسح الذنوب وغفرانها مهما يكن مقدارها ، ومهما تكن قد دنست النفس ، وأرهقت القلب ، ولكنه قد أوصى الكنيسة بالاعتدال والاحتراس ، حتى لايؤدى الإفراط فى منح الغفران إلى ترك التهذيب الدينى ، وهجر تعاليم الكنيسة ، والعبث بهدى الدين ، فهل أخذت الكنيسة بما أعطاها المجمع ، وراعت حق الرعاية ما أوصى به من عدم الإفراط فى الإعطاء والمنح ؟ لقد أتى حين من الدهر من بعد أن أعطى رجال الدين أنفسهم ذلك الحق ، أن أفرطوا فى إعطائه إفراطاً شديداً ، وأنشأوا له صكوكاً تباع وتشترى ، فباعوها كأنها عرض من أعراض الدنيا ، ومتعة من متعها ، وبذل العصابة فى سبيلها المال ، وماكان عليهم من حرج فى أن يرتكبوا ماشاءوا من الموبقات ، وينالوا ماتهوى الأنفس من معاص . مادام ذلك يفتدى بمال قل أو جل ، وهذا نص صك الغفران الذى يباع بيع السلعة:

صورة من صك الغفران :

«ربنا يسوع المسيح يرحمك يافلان ، ويحلك باستحقاقات آلامه الكلية القداسة ، وأنا بالسلطان الرسولى المعطى لى أحلك من جميع القصاصات ، والأحكام والطائلات الكنيسة التى استوجبتها ، وأيضاً من جميع الأفراط والخطايا والذنوب التى ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ، ومن كل علة ، وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا ، والكرسى الرسولى ، وأمحو جميع أقذار المذنب وكل علامات الملامة التى ربما جلبتها على نفسك فى هذه الفرصة ، وأرفع القصاصات التى كنت تلتزم بمكابدتها فى المطهر وأردك حديثاً إلى الشركة فى أسرار الكنيسة ، وأقرنك فى شركة القديسين ، وأردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا عند معموديتك ، حتى أنه ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذى يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب ، ويفتح الباب الذى يؤدى إلى فردوس الفرح ، وإن لم تمت سنين مستطيلة ، فهذه النعمة تبقى غير متغيرة، حتى تأتى ساعتك الأخيرة باسم الآب والابن والروح القدس » .

هذه صورة من صك الغفران تذكر أنها تمحو الآثام ، وتغفر ذنوب العاصى، ما تقدم منها وما تأخر ، تغسله من ذنوبه الماضية حتى يصير طاهراً ، ثم لايصير قابلاً لأن تؤثر فيه الذنوب مهما يرتكب من خطايا ، ومهما ينغمس فى المعاصى ، وكأن ذلك الصك جواز المرور إلى النعيم المقيم ، لايعوق حامله عائق ، ولايرده عن الوصول خازن أو حارس .

لقد ابتدأت الكنيسة صك الغفران بمسألة الاعتراف بالذنوب عند الموت والتوبة، ثم تولى القسيس مسح هذه الذنوب والشخص لم يودع الدنيا ، ثم انتقلت من ذلك إلى أن جعلت لنفسها الحق فى الغفران ، والشخص قوى يستقبل الحياة ، ولايودعها ، ويُقبل على متعها ولايدبر عنها ، وغالت فجعلت لنفسها غفران ماتقدم وما تأخر من الذنوب ، ثم أغرقت فى المغالاة فاتخذها رجال الدين باباً من أبواب الكسب للكنيسة ، ثم إنهم ينفقون مايجمعون من مال فيما يحله الدين والأخلاق ، وماقد يحرمانه ، وبذلك طم السيل ، حتى جاوز الحزام الطبيين .

فرق النصارى وأعيادهم وعبادتهم

النصارى فى القرآن ومفردها «نصرانى» هم أتباع المسيح عليه السلام ، نسبة إليه ، لِنَعْتِهِ فى الأناجيل بأنه «يسوع الناصرى» ، أى الذى من «الناصرة» ، وهى بلدة فى الجليل شمالىَّ فلسطين نشأ فيها المسيح ، فيقال « الجليلى» ، «الناصرىُّ» وقد كانت تقال فيه من خصومه على التحقير والاستهانة ، لأنه «لايأتى من الجليل شيء صالح » ، ولكن شاء ربك بهذا الجليلى المُبارك أن يستطير ذكر الجليل والناصرة خفاقاً فى العالم ، ولولاه لما كان للناصرة فى العالم ذكر .

كان الأوربيون قبل شيوع النصرانية فيهم يؤمنون إلى المسيح عليه السلام بأنه ذلك الرجل الذى من الناصرة استخفافاً ، يريدون الحط من شأنه ومن شأن أتباعه، فاصطبغ اللفظُ عندهم بصبغة الذم ، وعندما فشت النصرانية فيهم ودخلوا هم أنفسهم فى دين النصارى ، أنفوا أن يقال فيهم نصارى من تلك النصارة ، وآثروا الانتساب إلى المسيح نفسه ، فقالوا «مسيحى» ، «مسيحيون»، أتباع هذه «المسيحية» التى جاء بها المسيح .

لم يكن هذا هو تاريخ لفظة نصارى ونصرانى فى المشرق ، فقد تمسك أتباع المسيح فى فلسطين بالانتماء إلى هذا النصارى الذى من الناصرة ، بل قد وجدوا فيها شرفاً لايعدله شرف ، يتحدون به المُعَرض والمستهزىء ، ومن فلسطين شاعت اللفظة فى كل شبه الجزيرة على أتباع المسيح ، لايقال إلا نصارى ، ونصرانى ، يعتنق «النصرانية» ، منسوب إلي هذا الناصرى المبارك ، صلوات الله عليه .

وقد ظلت لفظة نصارى ونصرانية علماً على أتباع هذا الدين عند جميع الناطقين بالعربية حتى أوائل هذا القرن العشرين ، خاصتهم وعامتهم ، نصارى وغير نصارى ، لاتعرف غيرها ألسنتهم وأقلامهم ، ولكن ما أن غُلِب هذا الشرقُ العربى على أمره تحت وطأة الغزو الأوروبى الكاسح مادياً وفكرياً منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وفشت فى الناس لوثةُ التطبع بطباع الغالب ، واطلع المثقفون ، أو

قل أدعيــاء الثقافة ، على تاريخ لفظة الــنصرانى فى الغرب، حتى أنِفُــوا منها هم أيضاً ، فأمــسكوا على إطلاقها على أتباع المســيح ، واستبدلوا منهــا «المسيحى» ، «المسيحيــة» لاتكاد تسمعُ اليوم غيرهما فى موضوع نصــرانى ونصارى ونصرانية ، حتى بات يقع اللفظ - أعنى نصرانى ومشتقاتها - فى سمعك غريباً ، وربما جَفَلَ منه المسيحى حــين يسمعه منك ، وماذاك إلا لأن فكر هذا الشــرق العربى المغلوب على نفسه وعقله وفكره ، بات فكراً مترجماً ، ينطق بالسمع لابما يحس : يقرؤها Christian أو Chretién فيقول مسيحى ، ولو وقع فيما يقرؤه بلسانهم على nazarene أو nazareén لقال نصرانى غير مبالٍ ، ولو فطن وفطنوا لأدركوا أن المسيح والنصارى سواء ، كلاهما منســوب إلى المسيح الناصرى ، عيسى بن مريم صلوات الله عليه لامسيحَ سواه .

والذى ينبغى التنويه به أن العبرية المعاصرة لم تفــعل مافعله العرب بلغتهم فلا تزال العــبرية تقول «نُوصِــرى» ، «نُوصريم» وأيضــاً نصرانى ، نصــرانيم ، تعنى النصرانى والنصارى ، وتقول أيضاً «نَصْرت» ، وتعنى النصرانية دين المسيح .

أمــا القــرآن فــقــد قــال « النصــارى » على أصل مــانطق به أصــحــاب الملة أنفسهم: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ [المائدة : ٨٢] .

فرق النصارى :

أما فرق النصارى فهى كثيرة منها :

١ - **الملكانية** : أو ملكيون : طائفــة مسيحيــة من العصر البيزنطــى ، منتشرة فى سورياً ومصــر وفلسطين ، ومنهم جالية هامــة فى أمريكا ، وكنيستــهم أيضاً تســمى «كنيســة الروم الكاثوليك » ويتكــلم معظمــهم العــربية ، ويرأســهم بطريك، يقيم فى دمشق والقاهرة .

سُمُّوا «الملكانية أو الملكيين» لأنهم أيدوا القرار الذى اتخذ فى مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م ضد بدعة أوطيخا الميتافيزيقيــة «القائلة بطبيعة واحدة للمسيح » فلقبهم مخالفــوهم بالملكانيين ؛ لوقوفهم فى صف الملــك «مرقيانوس» الذى كــان يعاضد المجمع ، ومنهم كاثولويك يعترفون برياسة بابا روما ويسمون «الروم الكاثوليك» ، وأرثوذكس لايعتــرفون بهذه الرياســة ويسمون «الروم الأرثوذكس » وقــد ظهر فى

هذه الطائفة علماء وأدباء مشهورون مثل : قسطا بن لوقا ، ويوحنا بن البطريق ، ونيقولا الصايغ ، عرفهم المسلمون وناقشوا مذهبهم فى طبيعة المسيح الواحد ، كما فعل الشهرستانى فى «الملل والنحل » وابن حزم فى «الفصل فى الملل والأهواء والنحل » والباقلانى فى «التمهيد» .

٢ - **النسطورية** : بدعة ظهرت فى القرن الخامس الميلادى قال بها نسطورس بطريرك القسطنطينية ، حين اعترض على تسمية مريم العذراء بوالدة الإله ، وقد عارضه كيرلس الإسكندرى ، وانعقد بسبب هذه المشكلات ثلاث مجامع دينية متلاحقة ، وقررت كلها أن للمسيح طبيعتين : إلهية وإنسانية متحدتين فى أقنوم واحد وقوام إلهى واحد . ورد ذكرها عند الشهرستانى فى «الملل والنحل» ، وابن حزم فى «الفصل فى الملل والأهواء والنحل » والباقلانى فى «التمهيد » .

٣ - **اليعقوبية** : فرقة مسيحية تنسب إلى يعقوب الأرثوذكسى ، وهى إحدى فرق ثلاث اختلفت حول طبيعة المسيح ، والفرقتان الأخريتان هما : الملكانية والنساطرة .

عاش اليعاقبة متمثلين فى «كنيسة الإسكندرية» فى مصر والنوبة والحبشة . . واتصلوا بالمسلمين ، ويدور مذهبهم على القول بأن المسيح هو الله والإنسان ، اتحدا فى طبيعة واحدة هى المسيح .

واشتغل كثير من اليعاقبة فى ظل الإسلام بنقل الفلسفة اليونانية ، وكتبها إلى السريانية ، ثم إلى العربية . ولقوا من الخلفاء المسلمين كل تشجيع وتقدير ، فكان لذلك أثره المنتج فى تاريخ الحياة العقلية الإسلامية ، لاسيما من الناحيتين : الكلامية والفلسفية . وقد ذكرهم الشهرستانى فى «الملل والنحل» وابن حزم فى «الفصل فى الملل والأهواء والنحل » والباقلانى فى «التمهيد» .

٤ - **اليوذعانية** : وهى إحدى فرق اليهود ، نسبوا إلى «يوذعان» من «همدان» وقيل كان اسمه «يهوذا» . ويقول المقريزى فى الخطط : وكان يوذعان هذا يحث على الزهد وكثرة الصلاة وينهى عن أكل اللحوم وشرب الأنبذة .

٥ - **المرقونية** : وهم أصحاب «مرقيون» ، أثبتوا أصلين متضادين : أحدهما

«النور» والثانى « الظلمة » وهم إحدى الفرق «الثنوية» ، ويقول المقريزى فى الخطط : يزعمون أن المسيح يطوف عليهم كل يوم وليلة .

٦ - **الثنوية :** وهم أصحاب الاثنين الأزليين. .يزعمون أن النور والظلمة أزليان، قديمان وهم فرق، منهم: المانوية والمزدكية والديصانية والمرقونية والكينونية.

٧ - **مذهب أرسطو طاليس :** وهو فيلسوف يونانى تتلمذ على يد أفلاطون وعلَّم الإسكندر الأكبر ، وله العديد من الكتب ، ويرى أن للعالم مبدآن أساسيان هما :الصورة والمادة ، فكما أن صورة التمثال تنطبع على البرونز فتجعله تمثالاً لشيء بذاته ، فكذلك كل شيء قوامه : صورة ومادة ، ولاتكون صورة بغير مادة إلا صورة الله ، وصورة النفس الإنسانية قبل حلولها فى الجسم، وبعد مفارقتها له . . والله هو المحرك الأول للمادة ، وكان لأرسطو أثر فى الفلاسفة الإسلاميين ، فلقبوه بـ «المعلم الأول » ، والفارابى هو «المعلم الثانى » وشرحوا فلسفته ، راجع فى ذلك « إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطىِ » ترجمة أرسطو طاليس .

٨ - **الرهاويون :** أى الذين ينسبون إلى الرُّها : وهى مدينة قديمة من مدن مابين النهرين ، كانت تقوم مكان «أورفة» الحالية فى تركيا ، ذكرت فى التوراة على أنها كانت موطن أسرة خليل الله إبراهيم ، وكانت مركز للنصرانية فى القرن الثالث ، وتأسست فيها فى القرن الرابع والخامس أديرة كثيرة ، فتحها العرب سنة ٦٣٩هـ .

الأعياد :

والأعياد المسيحية المشهورة بمصر أربعة عشر عيداً فى كل سنة حسب تقويمهم القبطى منها سبعة أعياد يسمونها أعياداً كباراً ، وسبعة يسمونها أعياداً صغاراً .

فالأعياء الكبار عندهم : عيد البشارة - عيد الزيتونة - عيد الفصح - عيد خميس الأربعين - عيد الميلاد - عيد الغطاس .

والأعياد الصغار : عيد الختان - عيد الأربعين - خميس العهد - سبت النور - أحد الحدود - التّجلّى - عيد الصليب .

ولهم مواسم أُخر ليست هى عندهم من الأعياد الشرعية ، لكنها عندهم من

المواسم العادية وهو : يوم النّوْروز ، وسأذكر من خبر هذه الأعياد مالاتجده مجموعاً فى غير هذا الكتاب على ما استخرجته من كتب النصارى وتواريخ أهل الإسلام .

١ - **عيد البشارة :** وهو من أعياد النصارى ، وأصله أن جبريل (غبريال عند النصارى) بَشَّرَ مريم بميلاد المسيح عليهما السلام .

٢ - **عيد الزيتونة :** ويعرف عندهم بعيد الشعانين ، ومعناه التسبيح ، ويكون فى سابع أحد من صومهم ، وسنّتُهم فى عيد الشعانين أن يخرجوا سعف النخل من الكنيسة ، ويرون أنه يوم ركوب المسيح العنو (وهو الحمار) فى القدس ، ودخوله إلى صهيون (١) وهو راكب ، والناس بين يديه يسبحون ، وهو يأمر بالمعروف ، ويحث على عمل الخير ، وينهى عن المنكر ويباعد عنه .

٣ - **عيد الفصح :** وهو العيد الكبير ، و(فصح) اسم عبرى ومعناه «عبور» ويعرف أيضاً بعيد الفطر . أنشىء فى مصر تذكاراً لخروج بنى إسرائيل وخلاصهم من فرعون مصر ، وهو يعرف عند النصارى بعيد القيامة وهو يوم الفطر من صومهم الأكبر ، ومدته سبعة أيام تبدأ فى ١٥ نيسان وتنتهى بنهاية يوم ٢١ نيسان الذى هو الشهر السابع فى التقوم العبرى ويسمونه شهر (أبيب)، وقد جرت عادة بنى إسرائيل - وهو من أعيادهم - على تقديم الذبائح الحيوانية فى مذبح الهيكل فى القدس ، ثم تطور الأمر لتقديم ذبائح بشرية من أطفال الأمم المخالفة لليهود . (٢)

٤ - **خميس الأربعين :** ويعرف عند أهل الشام «بالمسلاق» ، ويقال أيضاً «عيد الصعود» وهو الثانى والأربعين من الفطر ويزعمون أن المسيح عليه السلام بعد أربعين يوماً من قيامته خرج إلى بيت «عَنْيَا» - وهى قرية واقعة شرقى القدس على مسافة ٥ كيلو منها ، واسمها اليوم «العازرية » نسبة إلى لعارز أخى مرتا

---

(١) صهيون : جبل فى أورشليم (القدس) عليه بنى الهيكل ، وفيه المسجد الأقصى وقبة الصخرة .

(٢) (الموسوعة الميسرة ص ١٢٤٧ ، وقاموس الكتاب المقدس ص ٦٧٨) .

ومريم الذى أقامه السيد المسيح من الأموات - والتلاميذ معه فرفع يديه وبارك عليهم ، وصعد إلى السماء .

٥ - **عيد الخمسين :** وهو عيد العنصرة ، ويعملونه بعد خمسين يوماً من يوم القيامة وزعموا أن بعد عشرة أيام من الصعود ، وخمسين يوماً من قيامة المسيح ، اجتمع التلاميذ فى علِية صهيون فتجلى لهم روح القدس فى شبه ألسنة من نار فامتلئوا من روح القدس ، وتكلموا بجميع الألسن ، وظهرت على أيديهم آيات كثيرة ، فعاداهم اليهود وحبسوهم ، فنجاهم الله منهم ، وخرجوا من السجن ، فساروا فى الأرض متفرقين ، يدعون الناس إلى دين المسيح .

٦ - **عيد الميلاد :** ويزعمون أنه اليوم الذى ولد فيه المسيح ، وهو يوم الاثنين ، فيحبونِ عشية ليلة الميلاد ، وسنتهم فيه كثرة الوقود بالكنائس وتزيينها ، ويعملونه بمصر فى التاسع والعشرين من «كيهك» الموافق ٧ يناير من كل عام فهو عيد الميلاد عند الأقباط [(١)] ، ولم يزل بديار مصر من المواسم المشهورة .

٧ - **الغطاس :** ويكون فى الحادى عشر من شهر طوبة ، وأصله عند النصارى أن يحيى بن زكريا ، عليهما السلام المعروف عندهم «بيوحنا المعمدان» عَمّد المسيح فى بحيرة الأردن - وهى بحيرة طبرية فى فلسطين يجتازها نهر الأردن وهى نحو عشرة أميال فى ستة أميال كالبركة ، تحيط بها الجبال وتصب فيها أنهار كثيرة ، ومدينة طبرية مشرفة عليها - وعندما خرج المسيح عليه السلام من الماء اتصل به روح القدس ، فصار النصارى لذلك يغمسون أولادهم فى الماء فى هذا اليوم ، وينزلون فيه بأجمعهم ، ولايكون ذلك إلا فى شدة البرد، ويسمونه يوم الغطاس .

---

(١) القبطى : هو المصرى القفطى المسيحى ، نسبة إلى «كفتوريم بن مصرايم بن حام بن نوح » وهو جد القفطيين الذين صعدوا إلى مصر العليا وأنشأوا مدينة «قفط» القديمة المسماة باللغة المصرية «جبتو» ، ولفظ القبط فى اللغة العربية يشير أصلاً إلى المصريين القفطيين الذين اعتنقوا الدين المسيحى فى بداية البشارة به .

٨ - **الختان:** ويزعمون أن المسيح خُتن فى هذا اليوم وهو الثامن من الميلاد، والقبط من دون النصارى تختن ، بخلاف غيرهم .

٩ - **الأربعون :** وهو عندهم دخول المسيح الهيكل ، ويزعمون أن سمعان الكاهن دخل بالمسيح مع أمه وبارك عليه .

١٠ - **خميس العهد :** ويعمل قبل الفصح بثلاثة أيام ، وسنتهم فيه أن يملئوا إناء من ماء ويزمزمون عليه ، ثم يغسل للتبرك به أرجل سائر النصارى ، ويزعمون أن المسيح فعل هذا بتلامذته فى مثل هذا اليوم كى يعلمهم التواضع، ثم أخذ عليهم العهد ألا يتفرقوا ، وأن يتواضع بعضهم لبعض ... وعوام أهل مصر فى وقتنا يقولون «خميس العدس» لأن النصارى تطبخ فيه العدس المصفى ، ويقول أهل الشام «خميس الأرز» «وخميس البيض» ، ويقول أهل الأندلس «خميس أبريل» .

١١ - **سبت النور :** وهو قبل الفصح بيوم ، يزعمون أن النور يظهر على قبر المسيح فى هذا اليوم ، بكنيسة القيامة من القدس ، فتشعل مصابيح الكنيسة كلها .

١٢ - **حد الحدود :** وهو بعد الفصح بثمانية أيام ، فيُعملُ أول أحد بعد الفطر ؛ لأن الآحاد قبله مشغولة بالصوم . وفيه يجددون الآلات والأثاث واللباس، ويأخذون فى المعاملات والأمور الدنيوية والمعاش .

١٣ - **عيد التجلى :** يزعمون أن المسيح تجلى لتلاميذه بعدما رُفع ، وتمنوا عليه أن يحضر لهم إيلياء وموسى عليهما السلام ، فأحضرهما إليهم بمصلى بيت المقدس ، ثم صعد إلى السماء وتركهم .

١٤ - **عيد الصليب :** وهو من الأعياد المحدثة ، وسببه ظهور الصليب على يد هيلانة أم قسطنطين .

١٥ - **النيروز :** معناه اليوم الجديد ، والتسمية فارسية كما يقول علمانيوهم، وهو أول السنة القبطية بمصر .

العبادات :

عند النصارى لابد من تعميد أولادهم ، وذلك بأنهم يغمسون أولادهم فى ماء قد أغلى بالرياحين وألوان الطيب فى إناء جديدة ، ويقرءون عليه من كتابهم، فيزعمون أنه حينئذ ينزل عليه روح القدس، ويسمون هذا الفعل المعمودية .

وطهارتهم هى غسل الوجه والكفين فقط .

ولايختتن منهم إلا اليعقوبية ، ولهم سبع صلوات يستقبلون فيها المشرق .

ويحجون إلى بيت المقدس ، وزكاتهم العشر من أموالهم ، وصيامهم خمسون يوماً .

ولهم قرابين وكهنة ، فالشماس فوقه القس ، وفوق القس الأسقف ، وفوق الأسقف المطران ، وفوق المطران البطريق .

والسكر عندهم حرام ، ولايحل أكل اللحم ولا الجماع فى الصوم ، وكل ما يباع فى السوق ، ولم تعفه أنفسهم يباح أكله .

ولايصح النكاح إلا بحضور شماس وقس وعدول ومهر ، ويحرمون من النساء مايحرمه المسلمون ، ولايحل الجمع بين امرأتين ، ولا التسرى بالإماء ، إلا أن يعتقن ويتزوج بهن ، وإذا خدم العبد سبع سنين عُتق ، ولايحل طلاق المرأة إلا أن تأتى بفاحشة مبينة ، فتطلق ، ولاتحل للزوج أبداً .

وحد المحصن إذا زنى الرجم، فإن زنى غير محصن وحملت منه المرأة تزوج بها . ومن قتل عمداً . قُتل . ومن قتل خطأ يهرب ولايحل طلبه .

وأكثر أحكامهم من التوراة ، وقد لعن منهم من لاط ،أو شهد بالزور ، أو قامر أو زنى ، أوسكر .

المجىء الثانى للمسيح ونهاية التاريخ

عادة عندما يواجه العالم فترة من فترات التحول والتغيير ، أو عندما تحدث بعض الأحداث التاريخية الكبرى التى تؤثر على مجريات الأمور فى العالم أو فى منطقة هامة منه ، تبدأ على الفور بعض النظريات المتعلقة بنهاية العالم أو نهاية التاريخ فى الظهور ، وتعلو فى نفس الوقت نبرة الأصوات الدينية التى تتحدث عن مجىء المسيح الثانى ، وتمتلىء المكتبات بالكتب التى تشرح النبوءات والأحداث المصاحبة له ، والإعلان عن قرب مجيئه ، تكرر هذا عندما قامت الثورة الفرنسية ، والحرب العالمية الأولى والثانية . . . الخ .

وعند انكسار وانهيار الاتحاد السوفيتى نادى «فرنسيس فوكوياما» أستاذ العلوم السياسية اليابانى الأصل فى مقال له بعنوان «نهاية التاريخ » نشره عام ١٩٨٩م ، يقول فيه أن البشرية توصلت إلى مثالها النهائى فى صيغة الديمقراطية الليبرالية ، وهذه المقولة لم تكن جديدة ، فقد همس بها من قبل هيجل وماركس ولينين .

وعندما حدثت حرب الخليج ، يذكر الدكتور القس فايز فارس فى كتابه «حرب الخليج ونهاية العالم» أن جريدة التايمز الإنجليزية نشرت مقالاً يوم السبت ٢٢ سبتمبر ١٩٩٠م قالت فيه أنه بالرغم من أن منطقة الخليج تبعد عن أمريكا آلاف الأميال ، إلا أن بعض الشيع والجماعات الدينية اليمينية فى أمريكا - كعادتها فى كل المناسبات - اتخذت من أزمة الخليج برهاناً آخر لتأييد نظرياتها التى تقول أن نهاية العالم قد اقتربت جداً ، وأن الاتفاق بين روسيا وأمريكا بداية لأن تلعب روسيا دوراً فى الشرق الأوسط ، تكون نتيجته الحرب مع إسرائيل ، والتمهيد لمعركة هرمجدون ونهاية العالم .

وترتفع فى الفترة الأخيرة حرارة الحديث عن نهاية العالم ومجىء المسيح الثانى مع امتلاك إسرائيل للسلاح النووى ، والدعم الذى يصلها من كل مكان، ومحاولات تهويد القدس ، وهدم المسجد الأقصى ، وإعادة بناء الهيكل ،

وتعطيل مفاوضات السلام ، ووصول حزب الليكود تسانده القوى اليمينية المتطرفة إلى الحكم إلى آخره .

وهكذا يحاول البعض أن يفسر الحقائق الكبرى على ضوء الأحداث السياسية المعاصرة والمتغيرة ، وفى نفس الوقت يبنى البعض فكرة هذا على تفسيرات حرفية لبعض النصوص والنبوءات الكتابية ، منزوعة من خالفياتها التاريخية ، وبعيداً عن الفهم الشامل للكتاب المقدس ككل ، وبالتالى يحددون العلامات والحسابات فى ضوء الأحداث التاريخية المعاصرة ، فيقعون فى العديد من الأخطاء من ناحية ، ويفجرون الخلافات والانقسامات من ناحية أخرى ، وكذلك يفعل بعض الكتاب المسلمين ، فيخلطون بين ماهو إسلامى ويهودى ومسيحى ، وبين الدين والسياسة .

وحتى الفيلم الأمريكى الحديث « يوم الاستقلال » لايخلو من هذه الأفكار، التى ربما تشكل الخلفية للخيال والتوظيف الدرامى ، الذى يحكى قصة هجوم من كوكب آخر على الأرض ومحاولة تدميرها ، والأحداث المصاحبة لنهايتها ، ولايوجد فى النهاية إلا يهودى يحاول إنقاذ الأرض وإعادة تعميرها والاحتفال بيوم الاستقلال ، ويختم الفيلم بالهيودى وهو يقف بجوار الأهرامات ، وهم بهذا التصوير لسيناريو النهاية يتركون أكثر من رسالة للمشاهد، الأول تناقض التاريخ والحقيقة عندما يزعمون أن اليهود هم الذين قاموا ببناء الأهرامات .

والثانية هى إظهار القوة والسيطرة والهيمنة الأمريكية وقدرتها على التصدى لأى هجوم من خارج الولايات المتحدة الأمريكية .

وجاءت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م ودمرت كل هذه الأفكار وانهارت مع انهيار المبنى التجارى ومبنى البنتاجون .

وهذه الاتجاهات تتبناها بعض المذاهب والفرق والهيئات الإنجيلية فى الغرب، خاصة التى نشأت فى القرن التاسع عشر ، والتى تسمى « المدرسة الدهرية Dispensational School» من خلال تفكيرها الحرفى والأصولى ، والذى ظهر بأكثر قوة ووضوح فى أيام حكم ريجان للولايات المتحدة الذى يقول : «إن هذا الجيل بالتحديد هو الجيل الذى سيرى هرمجدون» ، وتقول الكاتبة الأمريكية

جريس هالسل فى كتابها « النبوءة والسياسة » : « إننا نؤمن كمسيحيين أن تاريخ الإنسانية سوف ينتهى بمعركة تدعى هرمجدون وأن هذه المعركة سوف تتوج بعودة المسيح الذى سيحكم بعودته على جميع الأحياء والأموات على حد سواء » ، وهذه الاتجاهات تلاقت فى نفس الوقت مع مخططات الحركة الصهيونية ، وهى التى ظهرت منذ مؤتمر بازل بسويسرا عام١٨٩٧م .

وبعيداً عن هذا وذاك سوف أسوق إليك أخى القارىء ماهو أصح وأدق وأشمل من كلام الصادق المصدوق ﷺ الذى لاينطق عن الهوى عن هذه النبوءات :

تواترت الأحاديث عن النبى ﷺ أنه أخبر بنزول نبى الله عيسى عليه السلام فى آخر الزمان منها :

١ - عن حذيفة بن أسيد الغفارى رضى الله عنه قال : (طلع النبى ﷺ علينا ونحن نتذاكر ، فقال : «ماتذاكرون؟» . قالوا : نذكر الساعة . قال : «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات : - فذكر - الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى عليه السلام ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم».[(١)]

٢ - وعن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (يخرج الدجال فى خفة من الدين وإدبار من العلم) فذكر الحديث - وفيه: « ثم ينزل عيسى بن مريم فينادى من السَّحر ، فيقول : يا أيها الناس: مايمنعكم أن تخرجوا إلى الكذاب الخبيث ؟ فيقولون : هذا رجل جنى . فينطلقون ؛ فإذا هم بعيسى ابن مريم عليه السلام ، فتقام الصلاة ، فيقال له: تقدم ياروح الله ، فيقول : ليتقدم إمامكم فليصل بكم ، فإذا صلى صلاة الصبح ؛ خرجوا إليه » . قال : « فحين يراه الكذاب ؛ ينماث كما ينماث

---

(١) أخرجه مسلم [٢٩٠١ / ٣٩-٤١] واللفظ له ، وأحمد [٦/٤] ، وأبو داود [٤٣١١] ، وابن ماجه [٤٠٤١ ، ٤٠٥٥] ، والترمذى [٢١٨٣] : «هذا حديث حسن صحيح» .

الملح فى الماء ، فيمشى إليه ، فيقتله ، حتى إن الشجر والحجر ينادى : ياروح الله هذا يهودى ، فلايترك ممن كان يتبعه أحداً إلا قتله».(١)

٣ - عن النواس بن سمعان الكلابى رضى الله تعالى عنه قال : ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة . . فذكر الحديث بطوله - وفيه : « فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين ، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، إذ طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ، ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب لدٍّ فيقتله ، ثم يأتى عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ، ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة » ، ثم ذكر خروج يأجوج ومأجوج وهلاكهم بسبب دعاء عيسى وأصحابه عليهم إلى أن قال : « ثم يرسل الله مطراً لايكن منه بيت مدر ولاوبر ، فيغسل الأرض ، حتى يتركها كالزلقة ، ثم يقال للأرض : أنبتى ثمرتك وردى بركتك ، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ، ويستظلون بقحفها ، ويبارك فى الرسل ، حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس ، واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس ، واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس . . . . . » .(٢)

٤ - عن أبى أمامة الباهلى رضى الله تعالى عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ ، فكان أكثر خطبته حديثاً حدثناه عن الدجال وحذرناه . - فذكر الحديث

---

(١) رواه أحمد [٣ / ٣٦٧] ، والحاكم [٥٣٠ / ٤] مختصراً ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الذهبى : على شرط مسلم ووافقه الأرناؤوط [١٤٩٥٤ / المسند] ، وقوله تقدم ياروح الله : إشارة إلى قول الله تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ [آل عمران : ٥٩] ، وقال الله تعالى عن آدم للملائكة : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر : ٢٩] ، وقال عن مريم : ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم : ١٢]

(٢) أخرجه مسلم [٢٩٣٧ / ١٠] ، وأبو داود [٤٣٢١] ، الترمذى [٢٢٤٠] ، وابن ماجه [٤٠٧٥] ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » .

بطوله - وفيه : فقالت أم شريك بنت أبى العكر : يارسول الله : فأين العرب يومئذ ؟ قال : « هم يومئذ قليل ، وجلها ببيت المقدس ، وإمامهم رجل صالح ، فبينما إمامهم قد تقدم يصلى بهم الصبح ، إذ نزل عليه عيسى ابن مريم الصبح ، فرجع ذلك الإمام ينكص يمشى القهقرى ليتقدم عيسى يصلى بالناس ، فيضع عيسى يده بين كتفيه ، ثم يقول له : تقدم فصل ، فإنها لك أقيمت . فيصلى بهم إمامهم ، فإذا انصرف قال عيسى عليه السلام : افتحوا الباب ، فيفتح وراءه الدجال ، معه سبعون ألف يهودى ، كلهم ذو سيف محلى ، وساجٍ ، فإذا نظر إليه الدجال ؛ ذاب كما يذوب الملح فى الماء وينطلق هارباً .

ويقول عيسى عليه السلام : إن لى فيك ضربة لن تسبقنى بها ، فيذكره عند باب اللد الشرقى ، فيقتله ، فيهزم الله اليهود ، فلايبقى شيء مما خلق الله يتوارى به يهودى إلا أنطق الله ذلك الشيء ، لاحجر ولاشجر ولاحائط ولادابة إلا الغرقدة فإنها من شجرهم لاتنطق ، إلا قال : ياعبد الله المسلم : هذا يهودى فتعال اقتله » .

قال رسول الله ﷺ : « فيكون عيسى ابن مريم عليهما السلام فى أمتى حكماً عدلاً وإماماً مقسطاً ، يدق الصليب ، ويذبح الخنزير ، ويضع الجزية ، ويترك الصدقة ، فلا يسعى على شاة ولابعير ، وتُرفع الشحناء والتباغض ، وتنزع حُمَة كل ذات حُمَة ، حتى يدخل الوليد يده فى فيه الحية فلا تضره ، وتفر الوليدة الأسد فلا يضرها ، ويكون الذئب فى الغنم كأنه كلبها ، وتملأ الأرض من السلم كما يملأ الإناء من الماء ، وتكون الكلمة واحدة ، فلا يعبد إلا الله ، وتضع الحرب أوزارها ، وتسلب قريش مُلكها ، وتكون الأرض كفاثور الفضة ، تنبت نباتها بعهد آدم ، حتى يجتمع النفر على القطف من العنب فيشبعهم ، ويجتمع النفر على الرمانة فتشبعهم ، ويكون الثور بكذا وبكذا من المال ، وتكون الفرس بالدريهمات » .

قالوا : يارسول الله ! ومايرخص الفرس ؟ قال : «لاتركب لحرب أبداً » .

قيل له : فما يغلى الثور ؟ قال : «تحرث الأرض كلها . . . . . » (١) الحديث .

٥ - عن سمرة بن جندب رضى الله تعالى عنه : أن نبى الله ﷺ كان يقول : « إن الدجال خارج . . . . » - الحديث - وفيه : «فيلبث فى الأرض ماشاء الله ، ثم يجيء عيسى ابن مريم عليهما السلام من قبل المغرب مصدقاً بمحمد ﷺ وعلى ملته ، فيقتل الدجال ، ثم إنما هو قيام الساعة » (٢) .

٦ - عن عبدالله بن مغفل رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ما أهبط الله تعالى إلى الأرض منذ خلق آدم إلى أن تقوم الساعة فتنة أعظم من فتنة الدجال. . .» - الحديث - وفيه : « ثم ينزل عيسى ابن مريم مصدقاً بمحمد ﷺ على ملته إماماً مهدياً وحكماً عدلاً ، فيقتل الدجال» (٣) .

٧ - عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أن النبى ﷺ قال : «يدرك رجال من أمتى عيسى ابن مريم ويشهدون قتال الدجال » (٤) .

٨ - عن حذيفة بن أسيد رضى الله تعالى عنه أنه قال : « الدجال يخرج فى بغض من الناس وخفة من الدين وسوء ذات بيْن ، فيرد كل منهل ، فتطوى له الأرض طىّ فروة الكبش ، حتى يأتى المدينة ، فيغلب على خارجها ، ويمنع داخلها ، ثم جبل إيلياء ، فيحاصر عصابة من المسلمين ، فيقول لهم الذى عليهم : ماتنتظرون بهذا الطاغية أن تقاتلوه حتى تلحقوا بالله أو يفتح

---

(١) رواه ابن ماجه [٤٠٧٧] وضعفه الألبانى فى ضعيف سنن ابن ماجه [٨٨٤] ، وانظر المشكاة [٦٠٠٤] ، وضعيف الجامع [٣٦٨٤] ، وقال فى ظلال الجنة [٣٩١] : إسناده ضعيف ، رجاله كلهم ثقات غير عمرو بن عبدالله الحضرمى لم يوثقه غير ابن حبان ، وللحديث شواهد تقوية .

(٢) رواه أحمد [٥ / ١٣] ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد [٧ / ٣٣٩] : رواه الطبرانى وأحمد ورجاله رجال الصحيح .
قوله : « من قبل المغرب » أى : مغرب أهل المدينة ، وهو الشام ، والله تعالى أعلم .

(٣) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد [٧ / ٣٣٨ - ٣٣٩] وقال : رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ورجاله ثقات ، وفى بعضهم ضعف لايضر .

(٤) رواه الحاكم فى المستدرك [٤ / ٥٤٤] ، وقال الذهبى : منكر ، وعباد ضعيف .

لكم ، فيأتمرون أن يقاتلوه إذا أصبحوا ، فيصبحون ومعهم عيسى ابن مريم ، فيقتل الدجال ، ويهزم أصحابه ، حتى إن الشجر والحجر والمدر يقول : يامؤمن : هذا يهودى عندى فاقتله »[١].

٩ - عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لم يسلط على قتل الدجال إلا عيسى ابن مريم عليه السلام »[٢] .

١٠ - عن مجمع بن جارية الأنصارى رضى الله تعالى عنه قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يقتل ابن مريم الدجال بباب لد »[٣].

١١ - عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لايقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا ومافيها » [٤] .

١٢ - عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «والله لينزلن ابن مريم حكماً عدلاً ، فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية ، ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها ، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد » [٥] .

١٣ - عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ قال : « يوشك من عاش منكم أن يلقى عيسى ابن مريم إماماً مهدياً وحكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، وتضع الحرب أوزارها » [٦] .

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك [٤ / ٥٥٣] ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه للسند لا للإسناد ، ووافقه الذهبى .

(٢) رواه أبو داود الطيالسى فى مسنده .

(٣) رواه أحمد [٣ / ٤٢٠] وقال الأرناؤوط [١٥٤٦٧] : صحيح لغيره ، والترمذى [٢٢٤٤] وقال : هذا حديث صحيح ، وابن حبان فى صحيحه [٦٨١١] .

(٤) أخرجه البخارى [٢٢٢٢] ، ومسلم [١٥٥ / ٢٤٢] ، وأحمد [٢ / ٥٣٧] ، والترمذى [٢٢٣٣] ، وابن ماجه مختصراً [٤٠٧٨] ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح» .

(٥) الحديث السابق .

(٦) رواه أحمد [٢ / ٤٢٠] وقال الأرناؤوط [٧٢٦٩] : إسناده صحيح على شرط الشيخين .

١٤ - عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبى ﷺ قال : « الأنبياء إخوة لعلات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد ، وإنى أولى الناس بعيسى ابن مريم، لأنه لم يكن نبى بينى وبينه ، وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فأعرفوه ، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ، عليه ثوبان ممصران ، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل ، فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويدعو الناس إلى الإسلام ، ويهلك الله فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام ، ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجال ، ثم تقع الأمانة على الأرض ، حتى ترتع الأسود مع الإبل ، والنمار مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيات لاتضرهم ، فيمكث أربعين سنة ، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون » (١) .

١٦ - عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : دخل علىّ رسول الله ﷺ وأنا أبكى فقال لى : « مايبكيك ؟» قلت : يارسول الله : ذكرت الدجال فبكيت، فقال رسول الله ﷺ : «إن خرج الدجال وأنا حى كفيتكموه ، وإن يخرج الدجال بعدى ؛ فإن ربكم عز وجل ليس بأعور ، إنه يخرج فى يهودية أصبهان ، حتى يأتى المدينة ، فينزل ناحيتها ، ولها يومئذ سبعة أبواب، على كل نقب منها ملكان ، فيخرج إليه شرار أهلها ، حتى يأتى فلسطين باب لد ، فينزل عيسى عليه السلام فيقتله ، ثم يمكث عيسى عليه السلام فى الأرض أربعين سنة إماماً عدلاً وحكماً مقسطاً » (٢) .

---

(١) رواه أحمد [٢ / ٤٠٦ - ٤٣٧] ، وابن حبان فى صحيحه [٦٨٢١] ، وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم ، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبدالرحمن بن آدم فمن رجال مسلم ، والحاكم فى المستدرك [٢ / ٥٩٥] ، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى ، وأبو داود مختصراً [٤٣٢٤] .

(٢) رواه أحمد [٦ / ٧٥] ، وابن حبان فى صحيحه [٦٨٢٢] ، وقال الأرناؤوط : إسناده قوى، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد [٧ / ٣٣٨] ونسبه لأحمد وقال : رجاله رجال الصحيح غير الحضرمى بن لاحق وهو ثقة .

١٧ - عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ الصادق المصدوق يقول : « إن الأعور الدجال مسيح الضلالة يخرج من قبل المشرق فى زمان اختلاف من الناس وفرقة ، فيبلغ ماشاء الله من الأرض فى أربعين يوماً ، الله أعلم ما مقدارها ، الله أعلم ما مقدارها «مرتين» ، وينزل عيسى ابن مريم فيؤمهم ، فإذا رفع رأسه من الركعة قال : سمع الله لمن حمده ، قتل الله الدجال وأظهر المؤمنين » (١) .

١٨ - عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه : أن رسول الله ﷺ قال : «لاتقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق ، فيخرج إليه جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ ، فإذا تصافوا قالت الروم : خلوا بيننا وبين الذين سُبُوا منا نقاتلهم ، فيقول المسلمون : لا والله ؛ لانخلى بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم ، فيهزم ثلث لايتوب الله عليهم أبداً ، ويقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله ، ويفتح الثلث لايفتنون أبداً ، فيفتتحون قسطنطينية ، فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون ، إذ صاح فيهم الشيطان : إن المسيح قد خلفكم فى أهليكم ! فيخرجون ، وذلك باطل ، فإذا جاءوا الشام ؛ خرج ، فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف ؛ إذ أقيمت الصلاة ، فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام ، فأمهم، فإذا رآه عدو الله ، ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فلو تركه لانذاب حتى يهلك ، ولكن يقتله الله بيده ، فيريهم دمه فى حربته» (٢) .

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه [٦٨١٢] وقال الأرناؤوط : إسناده قوى ، رجاله ثقات ، رجال الصحيح ، غير كليب بن شهاب والد عاصم ، فقد روى له أصحاب السنن والبخارى فى «رفع اليدين» وهو صدوق ، ورواه البزار بنحوه [٣٣٩] ، وزاد بعد قوله : « الله أعلم مامقدارها » : «فيلقى المؤمنون شدة شديدة ، ثم ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء، فيؤم الناس ، فإذا رفع رأسه من ركعته قال : سمع الله لمن حمده ؛ قتل الله المسيح الدجال ، وظهر المؤمنون» ، فأحلف أن رسول الله ﷺ أبا القاسم الصادق المصدوق ﷺ قال : « إنه لحق ، وأما أنه قريب ، فكل ماهو آت قريب» .

(٢)أخرجه مسلم [٢٨٩٧ / ٣٤] .

١٩ - عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لاتزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال : فينزل عيسى ابن مريم ، فيقول أميرهم : تعال صل لنا ، فيقول : لا، إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله هذه الأمة » .(١)

(١) أخرجه مسلم [١٥٦ ، ٢٤٧] ، وأحمد [٣ / ٣٤٥] .

خاتمة

قصة عيسى عليه السلام قصة يجب أن ينتبه إليها العقل انتباهاً جيداً ، ونحن فى هذا الكتاب عرضنا وجهة نظر الذين وضعوه فى موضع غير الموضع الذى أراده الله ، ووجهة نظر الذين وضعوه بالموضع الذى أراده الله .

فالمسألة ليست انتصاراً لنا فى الدنيا على فريق يقول كذا ، وليست انتصاراً لفريق من أهل الدنيا علينا يقول كذا ، وإنما هى مسألة لها عاقبة تأتى فى الآخرة، فمن المهم أن نصفيها تصفية تصححها ، وتظهر الحق فيها ، حتى لايُظلم أحد .

عيسى عليه السلام جاء على دين بنى إسرائيل ، وقد حرفه اليهود تحريفاً ينحاز إلى الأمور المادية الصرفة ، ويكاد يطغى على عقل اليهود وإيمانهم ويقينهم فى قضية الغيبيات ، فهم ماديون لدرجة أنهم قالوا لموسى عليه السلام: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة : ٥٥] .

لقد صور اليهود الأشياء كلها على أنها حسية ، حتى الطعام الذى أراده الله تعالى لهم غيباً ليرحمهم فى الدنيا ، فأرسل إليهم المن والسلوى ، غيباً من عنده سبحانه ، فهم لم يجتهدوا فيه ، ولم يستوردوه ، ولم يستنبتوه ، ولم يعرفوا كنهه ، ومع ذلك تمردوا على الغيب ، مع أنه رزق ساقه الله تعالى إليهم ، وقالوا لموسى عليه السلام : ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ [البقرة : ٦١] .

يعنى ذلك أنهم طلبوا الأمور المادية المعروفة لهم ورفضوا الغيبيات ، فكأنهم قالوا : ومن يدرينا . . فإن المن والسلوى قد ينقطعان عنا ولايستمران فى المجىء إلينا ، وبالتالى فهم قوم لاثقة لهم فى الغيب .

إذن . . فهم قوم كل أمورهم مادية ، ومادامت كل أمورهم مادية ، فهم فى حاجة إلى هزة عنيفة تهز أوصال ماديتهم هذه ، لتخرجهم إلى معنى يؤمنون فيه بالغيب ، فكان ميلاد نبى الله عيسى عليه السلام على الصورة التى بيناها فى هذا الكتاب معجزة من الله تعالى ، ولكن القوم هم القوم ، قوم بهت قتلوا أنبياءهم وكذبوا رسلهم .

أهم المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم .
٢ - صحيح مسلم (بشرح النووى) - كتاب الشعب - القاهرة .
٣ - تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) .
٤ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبدالباقى - مطابع الشعب - القاهرة .
٥ - التوراة والإنجيل (الكتاب المقدس بشطريه : العهد القديم والعهد الجديد).
٦ - الكتاب المقدس - ترجمة الفاتيكان العربية ، المطبعة الكاثوليكية - بيروت - فبراير سنة ١٩٥١م .
٧ - من إعجاز القرآن - العلم الأعجمى فى القرآن مفسراً بالقرآن - رؤوف أبو سعدة - دار الهلال - القاهرة - سنة ١٩٩٤ .
٨ - مريم والمسيح - محمد متولى الشعراوى - مكتبة التراث الإسلامى - الطبعة الثانية - ديسمبر سنة ٢٠٠٠م .
٩ - تاريخ الأقباط - المعروف بالقول الإبريزى للعلامة المقريزى - دراسة وتحقيق د/ عبدالمجيد دياب - دار الفضيلة - القاهرة - سنة ١٩٨٨م .
١٠ - أهل الكهف - فى التوراة والإنجيل والقرآن - د/ أحمد على المجدوب - الدار المصرية اللبنانية - القاهرة - الطبعة الأولى سنة ١٩٩٠م .
١١ - إظهار الحق - الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن الكيروانى العثمانى الهندى - دراسة وتحقيق وتعليق الدكتور محمد أحمد ملكاوى - دار الحديث - القاهرة سنة ١٩٩٢م .
١٢ - المسيح فى الإسلام - ومحاورة مع قسيس حول ألوهية المسيح - أحمد ديدات نقله إلى العربية وقدم له - على الجوهرى - دار الفضيلة - القاهرة سنة ١٩٩٠م.
١٣ - مناظرتان فى استكهولم - بين أحمد ديدات وكبير قساوسة السويد استانلى شوبيرج - دار الفضيلة - القاهرة سنة ١٩٩٢م .
١٤ - مناظرة العصر - بين أحمد ديدات والقس الدكتور / أنيس شروش بقاعة ألبرت بلندن - دار الفضيلة - القاهرة ١٩٩٢م .
١٥ - المسيحية - د/ أحمد شلبى - مكتبة النهضة المصرية - الطبعة العاشرة سنة ٢٠٠٠م.
١٦ - المسيح فى مصادر العقائد المسيحية - مهندس أحمد عبدالوهاب - مكتبة وهبة سنة ١٩٨٨م .
١٧ - ماذا تعرف عن المسيحية - عبدالفتاح حسين الزيات - مركز الراية للنشر والإعلام - القاهرة - ١٩٩٨م .
١٨ - العقائد النصرانية فى ضوء الوحى الإلهى والتأثيرات الوثنية - د/ عبدالعزيز سيف النصر - الأستاذ بقسم العقيدة والفلسفة - كلية أصول الدين - جامعة الأزهر - الطبعة الأولى ١٩٩١م .
١٩ -النبوات والبشارات بخاتم النبيين بين النصرانية والإسلام - د/ عبدالعزيز سيف النصر - الطبعة الأولى ١٩٩١م .
٢٠ - عقيدة التثليث فى المسيحية وموقف الإسلام منها - د/ محمد أبو الغيط الفرت أستاذ العقيدة والفلسفة - جامعة الأزهر - ١٩٩١م .
٢١ - الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل - أبو حامد الغزالى - دار الجيل - بيروت - الطبعة الثالثة سنة ١٩٩٠م .
٢٢ - محاضرات فى النصرانية - الإمام محمد أبو زهرة - دار الفكر العربى - القاهرة بدون تاريخ .
٢٣ - النصرانية تاريخاً وعقيدة - د/ مصطفى شاهين - دار الإعتصام - ١٩٩٢م.
٢٤ - الأناجيل دراسة مقارنة - أحمد طاهر - دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٩١م.
٢٥ - عقائد النصارى الموحدين - حسنى يوسف الأطير - مكتبة الزهراء - القاهرة سنة ١٩٩٨م .
٢٦ - عيسى رسول الإسلام - القس سليمان شاهد مفسر - ترجمة أبو إسلام أحمد عبدالله - بيت الحكمة - القاهرة الطبعة الأولى سنة ١٩٩٣م .
٢٧ - محمد رسول الله فى الترجوم والتلمود والتوراة - هشام محمد طلبة - النهار للطبع والنشر والتوزيع - القاهرة الطبعة الأولى ٢٠٠١م .
٢٨ - سر مريم - حسنى يوسف الأطير - مكتبة الزهراء - طبعة أولى ١٩٩٤م.
٢٩ - الكنائس الكاذبة - وليد طوغان - دار الخيال - القاهرة سنة ٢٠٠١م .
٣٠ - السنوات المجهولة من حياة المسيح - د/ فريز صموئيل - مطبعة أوتوبرنت سنة ١٩٩٦م .

٣١ - المجىء الثانى للمسيح ونهاية التاريخ - د/ القس مكرم نجيب - دار الثقافة - القاهرة طبعة أولى ١٩٩٧ م .
٣٢ - الديداخى - أي تعليم الرسل - الكاتب / راهب من الكنيسة القبطية - مصادر طقوس الكنيسة طبعة أولى سنة ٢٠٠٠م - مكتبة المنار - القاهرة .
٣٣ - محاكمة الإيمان المسيحى - روث كلفورد - ترجمة رأفت زكى - الجمع والإخراج الفنى والطباعة - لوجوس سنتر - القاهرة سنة ١٩٩٧م .
٣٤ - كل يوم صباح جديد - رابطة قراء الكتاب المقدس - دار الكتاب المقدس - طبع بدار نوبار - القاهرة - طبعة ثانية سنة ٢٠٠٠م .
٣٥ - إحياء علوم الدين - أبو حامد الغزالى - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابى الحلبى - القاهرة ١٩٥٧م .
٣٦ - اكتشاف أهل الكهف - وفيق وفا الدجانى - مؤسسة المعارف - بيروت سنة ١٩٦٤م.
٣٧ - أهل الكهف - محمد تيسير ظبيان - دار الاعتصام - القاهرة سنة ١٩٧٨م.
٣٨ - اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها - الجزء الثانى - إداور چيبون نقله إلى العربية لويس إسكندر - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - القاهرة سنة ١٩٦٦م .
٣٩ - تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - فيليب حتي - ترجمة چورج حداد وعبدالعظيم رانق - دار الثقافة - بيروت سنة ١٩٥٨م .
٤٠ - تاريخ المسيحية (مصادر الوحى الإنجيلي) المجلد الثانى من سلسلة إنجيلية يوسف درة الحداد - بدون تاريخ ولامكان نشر ولاناشر .
٤١ - حياة المسيح - عباس محمود العقاد - دار الهلال - القاهرة .
٤٢ - السيرة النبوية - ابن هشام - مصطفى البابى الحلبى - الطبعة الثانية - القاهرة سنة ١٩٥٥ م .
٤٣ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - أحمد بن على المقريزى - دار صادر بيروت - بدون تاريخ .
٤٤ - إتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء - أحمد بن على المقريزى - طبع بليبزيج سنة ١٩٠٩م ، ثم أعيد طبعه محققاً فى مصر أكثر من مرة .
٤٥ - الأقباط فى القرن العشرين - تأليف رمزى تادرس - أربعة أجزاء طبع سنة ١٩١١م.
٤٦ - تاريخ الفيوم وبلاده - لأبى عثمان النابلسى الصفدى الشافعى - طبع سنة ١٨٩٨م - القاهرة .
٤٧ - تاريخ مصر - للواقدى - طبع فى ليدن سنة ١٨٢٥م .
٤٨ - تاريخ الأمة القبطية - يعقوب نخلة روفيلة سنة ١٨٩٨ م .
٤٩ - تاريخ الكنيسة القبطية - الشماس منسى القمص - سنة ١٩٢٤م .
٥٠ - تحفة النظار فى غرائب الأمصار - لابن بطوطة - طبع فى باريس سنة ١٨٩٣م .
٥١ - مروج الذهب ومعادن الجوهر - المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦هـ - طبع بباريس سنة ١٨٦١م .
٥٢ - نظم الجوهر - سعيد بن البطريق - طبع فى رومية قديماً وحديثاً فى بيروت بدون تاريخ .
٥٣ - الكافىء فى تاريخ مصر القديم والحديث - ميخائيل بك شاروبيم .
٥٤ - مختصر تاريخ الأمة القبطية فى عصر الوثنية والمسيحية - سليم سليمان طبعة عام ١٩١٤م .
٥٥ - قوانين الرسل والمجامع المسكونية والمكانية - طبع عام ١٨٨٤م .
٥٦ - عصر المجامع - القمص كيرلس الأنطونى - طبع عام ١٩٥٢م - من كنيسة الشهيد مار جرجس بالزقازيق - المكتبة الاستعارية .
٥٧ - تاريخ المجامع - ساويريس بن المقفع - أسقف الأشمونيين - بدون تاريخ.
٥٨ - توراة الأنبياء والكتبة (تورا نبيئيم وكتوبيم) الأصل العبرانى مصحوباً بترجمة إنجليزية .
٥٩ - العهد الجديد (هاربريت هحداشيا) ترجمة عبرانية عن الأصل اليونانى للأناجيل .
٦٠ - العهد الجديد فى أصله اليونانى مصحوباً بترجمة إنجليزية بينية حرفية .
٦١ - المعجم الحديث لألفاظ توراة الأنبياء والكتبة (هَمِلّون هِحَداش لَتَناخ) عبرى / عبرى - دكتور صفى راداى وبروفسيور حاييم رابين - القدس ١٩٨٩م .
٦٢ - المصدر الرئيسى للكتاب (مخطوط بعنوان صمت المسيح) نسخة وحيدة خطية من عند المرحوم الشيخ عبدالعزيز عبدالسلام حجازى وهو جدى لوالدتى متوفى سنة ١٩٨٣م وهو من مواليد ١٨٩١م والمخطوط بتاريخ ١٩٠١م وهو تأريخ جديد وليس تاريخ كتابة المخطوط .
٦٣ - إلى غير ذلك مما أشرنا إليه فى حواشى الكتاب ولم نذكره هنا .

الفهرست



نموذج رقم « ١٧ »

الأزهـــر الشريف
مجمـــع البحـــوث الاســـلامية
الادارة العـــامة
للبحـــوث والتأليف والترجمـــة

AL - AZHAR AL - SHARIF
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

السـيد / ناصر رمضان منشاوي

السـلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ـ وبعـد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : الجوانب الخفية من حياة المسيح .... تأليفكم ....

نفيد بأن الـكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع من طبعـــه ونشره على نفقتـكم الخـاصة .

مع التـأكيد على ضرورة العنـاية التامة بكتـابة الآيات القـرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والالتزام بتسليم ٥ خمس نسخ لمكتبة الأزهر الشريف بعد الطبـع .

واللـــه المـــوفق ،،،

والسـلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ،،،

تحريرا فى ٤ جمادى الآخر ١٤٢٣ هـ
الموافق ٢ / ٩ / ٢٠٠٣ م

مدير عـام
ادارة البحوث والتـأليف والترجمـة

هذا الكتاب

مخطوط قديم .. يكشف جوانب خفية من حياة المسيح لم يذكرها التاريخ الإسلامى ولا التاريخ المسيحى من قبل ، ويعرض هذا الكتاب كل هذه الجوانب بطريقة شيقة تدعو للقراءة ، وقد صرّح الأزهر الشريف بنشر هذا الكتاب بعد أن تم فحصه ومراجعته جيداً .

فتعالى معى نكتشف أين كان المسيح منذ أن بلغ الثانية عشر وحتى بداية الدعوة ، وطريقة القبض عليه ليلة العشاء الأخير ، وكيفية خلاصه ، وكيفية الصلب والقتل والرفع .

فتعالى معى لنكون لحظة بلحظة مع المسيح .

ناصر المنشاوى

١٠ جنيهات